كتاب الهلال

١٥١

رجال عرفتهم

بقلم عباس محمود العقاد

سلسلة ثقافية شهرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصــدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥١ ـ جمادى الاولى ١٣٨٣ ـ اكتوبر ١٩٦٣

No. 151 — October 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى الســـودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشــا ســوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر أنحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحـرين ٤٠ آنه ، ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجـزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

رجال عرفتهم

بقلم

عباس محمود العقاد



تقديم

فى الصفحات التالية تعليقات متفرقة على سير طائفة من الأعلام الذين كنا نسميهم بالشيوخ أو الأقطاب حين بدأت حياتى الصحفية قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات ، ومنهم من لم يكن من الشيوخ والأقطاب فى تلك الفترة ، ولكنهم لحقوا بهم فى الطريق وعرفناهم كما عرفنا الأولين ، ووصفنا معرفتنا بهم كما وصفنا معرفتنا بأولئك الشيوخ والأقطاب ، من زاوية خاصة تتيح لنا أن نقول عنهم ما ليس فى التاريخ العام الذى يقال فى كل تعليق أو تقدير

وأكثر هؤلاء الأعلام من الصحفيين أو الذين كانت لهم مشاركة موجهة فى الكتابة الصحفية ، ونسمى كتابتنا عنهم بالتعليقات ولا نسميها بالسير أو التراجم أو التحليلات لأننا لم نكتبها لنستقصى الحوادث أو

نحلل « الشخصيات » من وجهتهـا العـامة ، ولكننا كتبناها لنبدى لهم رسوما قريبة من الزاوية التى اتفقت لنا معرفتهم فيها ، وتوخينا فى هذه الرسوم أن تكون كصور السياحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المنـاظر أو بعض الشخوص حيثما مرت به فى رحلاته ، فليست هى أطلسا جغرافيا للمواقع والبلدان ، وليست هى شرحا تاريخيا للشخوص والأعلام ، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيـل المعـالم الخاصـة من زاويتها العارضـة ، وان لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم

وقد اتفق التقاء هـذه الزملة المختارة فى مجمـوعة واحدة كما يتفق التقاء الصور المتفرقة فى جعبة واحدة من هذه الرحلة أو تلك ، بغير مفاضـلة مقصـودة بين الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم ممن نعرفهم كمعرفتنا بهؤلاء الأعلام والأقطاب ... وربما جمعت المناسبة بين طائفة أخرى كهذه الطائفـة فى مكانتهـا وحق الكتابة عنها ، فلا تحسبهـا مسألة تقـديم وتأخير ولا مسألة موازنة وترجيح ، وانما هى رحلة أخرى من رحـلات الحياة الصحفية أو الأدبية أو السياسية ، ولا مفاضلة

بين معالم الرحلات فيما يعرض لها من أسباب التقديم والتأخير

وحسبنا عند أصدقائنا القراء أن تكون هذه المجموعة « حفلة استقبال » اجتمـــاعية ، نعرفهم فيهـــا بأقطابها وأعلامهـــا كما عرفنـــاهم على سنـــة التحية فى مجالس الأصدقاء . وذلك خير ما نبغيه

عباس محمود العقاد



علي يوسف

- ١ -

تجرى المقارنة احيانا بين الكاتب الصحفى الذى كان يكتب فى صحافتنا العربية قبل سبعين أو ثمانين سنة ، وبين كاتبنا الصحفى الذى يكتب الآن فى صحافتنا ، بعد ان بلغت مع الصحافة العالمية آخر اطوارها ، من وسائل الطباعة والتحرير الى وسائل الادارة والتوزيع

وقد نوجز هذه الفوارق التى يمكن أن تتعدد الى غير نهاية فنقول : ان الفارق هنا هو الفارق بين « روبنسون كروزو » فى جزيرته وبين رحالة من سياح اليوم ترلسم له طريقه من رقم الكرسى فى الطيارة الى رقم الحجرة فى الفندق الى اسماء الخطوط الجوية والبحرية فى كل مدينة وكل فندق ، وكل يوم من أيام الرحلة ، منذ «قطع التذكرة» الى تسليم البطاقة عند باب المطار الاخير ، مع سلامة الاياب

وفارق آخر ربما أوجز لنا تلك الفوارق على نحو آخر من المشابهة : وهو الفارق بين طبيب القرن التاسع عشر وطبيب القرن العشرين

ان طبيب القرن العشرين يعرف عمله المطلوب من خلال عشرين كشفا وتحليلا وأداة طبية او كيماوية بين يديه ، ويستوحى وصفه للدواء من تحليل الدم وتحليل المواد الجسدية على اختلافها ، ومن كشف الاشعة ورسامة

القلب وشهادات للاحوال الخاصة والعامة يرجع اليها فى سجلاتها اذا شاء

ولم تكن لطبيب القرن التاسع عشر وسيلة من هذه الوسائل الميسورة اليوم فى اكثر العيادات ، فربما أعوزته السماعة فلم يعتمد فى جس النبض على وسيلة غير الاصغاء بأذنيه ، وهو بعد ذلك يعالج العلل جميعا فلا يتخصص لعلة واحدة يستعد منذ عهد المدرسة « لتشخيصها » وتدبير علاجها

وكتابنا الصحفيون من أعلام القرن التاسع عشر كثيرون ..

ولكننا اذا نادينا اسماءهم من الذاكرة ، لم يكن منهم من هو اسرع تلبية النداء العاجل من اسم « على يوسف » صاحب « المؤيد » اخيرا ، وصاحب « الآداب » قبل ذلك

ان « على يوسف » كان يصنع « صناعته » الصحفية ليتعلمها الناس منه ، ولم يكن يتعلم تلك الصناعة على اساتذتها فى الشرق والغرب ، ولا على ادواتها التى تمليها عليه

لم يكن يعرف لغة للصحافة غير العربية ، ولم يكن يعرف من العربية غير ما اعتمد فى معرفته على نفسه ، بل غير ما اعتمد على نفسه قبل ذلك فى اختيار استاذه الذى يراجعها عليه

وكان يسمع ، ولاشك ، بالصحافة الاوربية ويعرف منها بالسماع اكبرها وأشهرها ، ولكنه لم يعرف من صحافة الغرب صحيفة واحدة لينهج على منهجها ، ولم يكن من غايته ولا طاقته أن يعرف «التيمس» أو «الطان» ليحكى هذه أو تلك فى طبعها وتحريرها ، ولكنه ــ هو واقرانه من كتاب عصره ــ كانوا يبتدئون فى الصحافة

طريقا آخر غير تلك الطريق التى تقدمتهم فيها الصحف الاوربية : طريقا يستطيعونها وتستدعيهم اليها ، وقدتكون الطريق لكل صحفى منهم غير الطرق الاخرى التىيستقيم عليها سائر زملائه

كان « على يوسف » يرتجل صناعته الصحفية فى كل شىء : فى التقاط الاخبار ، وفى جمع الآراء ، وفى تحرير المقالات ، وفى سياسة الجمهور وسياسة ولاة الامور

وظهر من قضية « التلغرافات » التى سيق من أجلها الى القضاء انه كان يستطلع اخبار الحملة على السودان قبل وصولها الى ديوان الوزارة ، لانه كان على صلة بموظف المكتب الذى يتلقاها ، ولم يكن احد يعرف « الواسطة » التى تحمل النبأ من مكتب البرق الى مكتب التحرير

وكانت تعبئة الآراء قبل هذا الجيل لازمة وعسيرة في وقت واحد ، بل كانت اداوتها كلها مجهولة يخترعها كل صاحب صحيفة على سنته فى اختراع هذه الادوات المرتجلة

اما « على يوسف » فقد كادت وسيلته لتعبئة الآراء أن تكون شخصية بينه وبين نفسه وصحبه ، ومن يرجع اليهم فى حياته الخاصة أو يرجعون اليه

فلما اتهم اللورد كرومر هذه الامة بالتعصب الدينى وعداوة الاجانب ، جمع الشيخ « على يوسف » نماذج الآراء التى تدفع هذه التهمة عن كل صاحب صفة ترشحه لابداء الراى فيها ..

فقال الخواجه ميماراكي اليونانى: « أشهد اننى ماشعرت قط فى معاملاتى مع المصريين بأننى اعامل اناسا يخالفوننى فى العقيدة »

وقال الفرنسي وكيل مصرف الكريدى ليونيه الفرنسي : « أننا لا نشعر بهذا التعصب الذى اتهمت به الامة المصرية .. اللهم الا اذا كان التعصب موجودا فى غير الدائرة التى اليها معاملاتنا »

وقال شكور باشا الادارى اللبنانى : « اننى افضل أن أمشي وحدى ليلا في جهات السيدة زينب والنحاسين ، على أن أمشى وحدى ليلا فى جهات مونمارتر بضواحى باريس »

وقال اسكندر عمون المحامى : « ان المصرى أكثر اكراما للغريب من سائر الشعوب »

وقال باسيلى تادرس باشا : « لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى أو الجنسى فى مصر »

وحين سأل الشيخ كلا من السيد عمر مكرم والشيخ محمد بخيت من رجال الدين الاسلامى لم ينس ان يسأل رجلا ينكر الاديان جميعا وهو الدكتور شبلى شميل الذى قال : « ان التعصب غير موجود فى مصر على الاطلاق »

أما المقالة فهى الصحفة المختارة على مائدة الشيخ على يوسف بغير جدال

وقد تكتب المقالة فى موضوعها بأسلوب أجمل من أسلوبها ، وعلى نمط من اللفظ والمعنى أبلغ من نمطها فى لفظها ومعناها ، ولكن مقالة « على يوسف » هى مقالة على يوسف التى لا يكتبها غيره ولا يؤدى الغاية منها أحد كما يؤديها بقلمه ورأيه .. فهى من الكلم المفصل على حسب قياسه جملة جملة وسطرا سطرا من فاتحتها الى ختامها ، وليست من الكلم « المجهز » على قياسه ولو على وجه التقريب الذى يحكمها أحكام التفصيل

واذا اردنا أن نجمع لهذه «الشخصية» النادرة مفتاحها فى كلمة واحدة ، فهى كلمة « العصامية » حيث تصل العصامية أحيانا الى حدود المغامرة

لقد كان لـ « على يوسف ومصطفى كامل » طريقتان مختلفتان ـ بل مختلفتان جدا ـ فى الكتابة الصحفية وفى الخطة السياسية ، وفى الدعوة الوطنية

ولقد فرق النقاد بين الطريقتين ، فكان الفرق بينهما عند اناس أن طريقة مصطفى كامل هى طريقة التطرف والحماسة ، وان طريقة على يوسف هى طريقة المحافظة والاعتدال .. وكان الفرق بينهما عند أناس آخرين هو الفرق بين التعليم الحديث والتعليم القديم ، أوهو الفرق بين الشباب والكهولة ، او الفرق بين السياسة القومية وسياسة القصر والحاشية الخديوية ، أو الفرق بين الخطيب المنطلق والكاتب الحصيف

لكن الواقع أن الفرق الوحيد الذى يحتوى جميع هذه الفروق هو « شعور العصامية » فى نفس الرجل الذى كان مثله الاعلى فى الحياة أن يصل باجتهاده وحيلته الى مكانة السيد الموقر ، ليرعى له السادة الوارثون للسيادة كرامة الرأى وكرامة « الخاطر » كما نقول فى عرفنا المأثور

وكان من حق العصامية الناجحة عند على يوسف أن يتكلم مع ذوى « الاعتبار » كما يتكلم ذوو الاعتبار ، ولا يخف به القلم خفة الحديث المتعجل أو الحديث المستثار

واذا قال ، كما كان يقول كثيرا ، أنه لا يرضى السياسة على مذهب الرعاع .. فليست كلمة الرعاع هنا مقابلة عنده لكلمة النبلاء أو الارستقراطيين » .. وليس انكاره

لـ « مصطفى كامل » انكاراً لانسان دونه في المقام والمكانة الاجتماعية ، لأن « مصطفى كامل » كان له نصـيبه من الالقاب التى خلعت على الشـيخ على يوسف ، وان لم تغلب عليه

وانما كانت المقابلة عنده مقابلة بين خفة النزق والعجلة ورصانة « العقلاء » من ذوى الرأى والحنكة فى كل طبقة، ولهذا كان يكثر من تلقيب « مصطفى كامل بالطائش » ، ويكثر من وصف سياسته بالطيش ، ويجذبه عرق الدراسة العتيقة فيقول معتذرا من تكرار كلمة الطائش انها تطابق اسم مصطفى كامل فى حسـاب التنجيم ، لأن مجمـوع الحروف بحساب الجمل فى كلمة طائش وكلمتى مصطفى كامل واحد ... وهو « ٣١٩ »

وهذه القيمة ـ قيمة العصـامى الذى بلغ فى المـكانة الاجتماعية مبلغ ذوى الرأى ـ هى هى التى جعلت لكتابته السياسية صبغة كصبغة اللغة الدبلوماسية بين وزراء الخارجية والسفراء ، وهى هى التى جعلته يعتزل الصحافة بعد أن أسندت اليه وظيفة « سيد السادات » أو شيخ الطريقة الوفائية الصوفية

وقد كان يكتب عن خصوم القصر الخديوى جميعـا ، فيبيح لقلمه من المغامز فى الكتـابة عنهم ما يرضى القصر ويستجيب لامره وايعازه ، ولكنه كان يأبى كل الاباء ان يحمل على رجل ممن أحسـنوا اليه فى نشـأته الاولى ، كمحمد عبده ، وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، لان هـذه المحافظة على سمت الرجل الكريم تدفع عنه سبة النعمة المحدثة والمقام المدخول

فاذا جاء بين تضاعيف الاخبار فى صحيفة « المؤيد » شيء يمس هؤلاء مرضاة للحاشية الخديوية ، فانما كان

يترك كتابته لغيره أو يفرغه فى القالب الذى يوافق مظهر الكرامة وينفى عنه شبهات العتب والملام

غير أن المحافظة على المظهر شيء ومطاوعة الحيلة والدهاء من وراء الستار شيء آخر .. ففى الوقت الذى كان فيه التشهير الصريح باسم محمد عبده محرما على اقلام المؤيد ، كان وكيل المؤيد بالآستانة يتطوع لمصاحبة الشيخ المفتى الغريب عن المدينة ، فيقحمه من مواطن الفرجة ما يتحاماه امثاله ، ويتواطأ بذلك مع رؤساء الشرطة ليفجاوا الشيخ والوكيل بين مواطن الريبة ..ثم ينتهى الامر الى « وصمة » شائنة تصيب الشيخ فى دار الخلافة الاسلامية ، فلا يشق على الخديو بعد ذلك ان يعزله من مناصبه الدينية برخصة من مقام الخليفة الاعظم ، ويتراجع امامها مجلس الوزراء فى مصر، فلايعتبر عزل المفتى فى هذه الحالة اخلالا بنظام العزل والتوظيف

***

وقد عمت الصبغة الدبلوماسية كل منحى من مناحى تفكيره وعمله فى السياسة وفى علاقاته بالسياسيين الوطنيين وغير الوطنيين ، وظهرت فى كل تصرف من تصرفاته العامة حتى فى صياغة المبادىء الوطنية التى قررها لحزبه أساسا للمطالبة بحقوق الامة ونظام الحكومة . فقد أوشك ان يجعل هذه المبادىء توريطا دبلوماسيا من كلام المحتلين أنفسهم ليسكتهم ولا يفتح لهم بابا للاحتجاج على ولى الامر أو اتهامه بتحريض الصحف والاحزاب عليهم ، اذ كان انتساب الشيخ على يوسف الى القصر الخديوى امرا مفروغا منه مفهوما بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسمية فى القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات فى هذه البلاد ، وكان وكلاء « المؤيد » يزورون الدواوين

ـ خارج القطر ـ كانهم ملحقون بسفارات القصر ، قبل ان توجد له سفارات ..

فالمحتلون كانوا يسمون أنفسهم بالمصلحين ، ويقولون ان اصلاح الاداة الحكومية غرض من أغراضهم الاولى التى ينجزونها قبل مغادرة البلاد

والشيخ على يوسف يسمى حزبه بحزب الاصلاح ، فاى اعتراض للدولة البريطانية عليه أو على الخديو اذا اقام قواعد حزبه على المطالبة بالاصلاح ؟..

والمحتلون كانوا يقولون انهم يدربون المصريين على حكم انفسهم ويحولون بين الامير والاستئثار بالسلطة فى مسائل الادارة والمال على الخصوص

والشيخ على يوسف يقيد الاصلاح بانه « اصلاح على المبادىء الدستورية » ، ولا يذكر الدستور على اطلاقه لانه قد يزعج الدولة العثمانية صاحبة السيادة التى لم تكن فى بلادها حكومة نيابية ، وقد يزعج الانجليز أصحاب السلطان الفعلى كما يزعج الخديو صاحب السلطة الشرعية

ولما ذكر « الاستقلال » ذكره مشروطا بالماهدات التى ارتبطت بها بريطانيا العظمى ، وقال أن تحقيقه تنفيذ لوعود هذه الدولة بالجلاء ، وقد زادت هذه الوعود على السبعين

وكل مقالة من مقالات « المؤيد » فى السياسة العامة فهى على هذا النمط ، مذكرة رسمية لا يأبى السفير أن يوقعها باسمه واسم ولى أمره ورئيس حكومته ، فاذا جاوزت هذا الحد الى شىء من الشدة فى التعبير فغاية خطبها ان تكون بمثابة المقال « الموعز به » الى لسان حال رسمى من السنة الحكومات التى تسمى احيانا « بالصحف

الشبيهة بالرسمية »

وقد اشتد الشيخ على يوسف غاية شدته فى الحملة على لورد كرومر بعد اعتزاله ، أو عزله، من منصب المعتمد البريطانى فى القاهرة ، وكان الشيخ على حريصا على ترويج الظن الذى شاع فى البلد عن نجاح الخديو فى مساعيه عند بلاط سان جيمس لعزل كرومر وتعيين رجل من أصدقائه فى مكانه ، ولكنه كان على حذر شديد من اعلان هذه الدعوى مخافة أن يغضب الدولة البريطانية ويضطرها الى الاخذ بناصر عميدها المخذول صيانة له من مهانة الشماتة وصيانة لها من الاعتراف أمام الناس بخذلانها لرجالها وخدام سياستها

فاذا بالشيخ على يوسف يخلص من هذا المأزق على احسن حال من الكياسة والانصاف ، فيتهم كرومر نفسه بأنه فضح حقيقة الموقف بثورته المحنقة فى خطاب الوداع ، ويسأل : لماذا كل هذا الحنق والرجل لم يفارق قصر الدوبارة على الرغم منه كما يقال ؟..

واذا بالشيخ يعترف للعميد المعزول بكل مأثرة من مآثره المدعاة ، فلا ينكر عليه حسنة واحدة يعتبر انكارها عليه انكارا على دولته كلها من ورائه

ثم يعمد الشيخ اللبق الى الخطبة الكرومرية نفسها ، فلا يضيف اليها حرفا من عنده ، بل يأخذها بنصوصها للايقاع بينه وبين المحتفلين بوداعه وبين المتشيعين لسياسته والمسخرين او المتبرعين بالشهادة لحكمه وحكم اعوانه ومستشاريه

كان الامير حسين كامل على رأس المدعوين للاشتراك فى حفلة التوديع ، فلم يكن تعليق الشيخ على يوسف نقدا للامير — عم الخديو — بل كان ابرازا واضحا لاساءة كرومر

اليه ، مرة بالانحاء على أبيه اسماعيل ومرة بالسكوت عن الاشارة اليه كأنه من سقط المتاع،وهو حاضر أمامعينيه:

« هذا الامير الجليل الذى والى جناب اللورد بالصداقة زمنا طويلا وخصهباحترامه دائما ، وكان له فى عهده أعظم اثر فى خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية لم ير اللورد أنه خليق بكلمة ثناء يوجهها اليه فى جنب ما وجه من عبارات الثناء لغيره من الاحياء والاموات »

ولم يتحدث الشيخ على عن أحد من المحتفلين باللورد كأنه خصم يحاربه وكأنه صديق اللورد وموضع حظوته ، بل كان حديثه عنهم جميعا كأنهم ضحاياه وضحايا سياسته وسوء خلقه فى حاضره وماضيه

قال كرومر عن رياض باشا انه علق الجرس فى عنق الهر ، فكان ثناء على يوسف على رياض باشا أكبر من ثناء اللورد عليه ، ولكنه استدرك قائلا ان اللورد :

« لم يقل ان رياض باشا لما أراد فى زمنه هو ، أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطعت يده وحلف اللورد الا يعود الى خدمة الحكومة ما دام هو فى البلاد، وزاده عقوبة فرفت ابنه من وكالة الداخلية فىاليوم التالى من استقالة ابيه.. فكان المستبد اسماعيل اخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر »

واثنى كرومر على بطرس غالى باشا ومدحه بسعة الحيلة فى حل المشكلات فقال الشيخعلى :

« نعم .. ولكنها المشكلات التى كان يخلقها اللورد بينه وبين الجناب العالى ، وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى .. »

وتساءل الشيخ على :

« لماذا أعرض اللورد عن ذكر بقية الوزراء كأنهم ليسوا نظارا فى الحكومة وليس لهم عمل مطلقا فيها ؟ »

وقد أشاد كرومر بالوفاق الانجليزى الفرنسى الذى تم على يديه فسرد له « الشيخ على » سلسلة من الاساءات الى الثقافة الفرنسية والخبراء الفرنسيين ، وانه يفعل ذلك « حبا فى مصلحة مصر ، ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدما انجليزية »

ولم يكن كرومر ليعدل عن هذه الخطة مرة الا اذا جاءه الأمر من رؤسائه فى العاصمة البريطانية

والحق ان براعة على يوسف فى التعقيب على اقوال كرومر كانت هى البراعة « الموصوفة » للرد على كل كلمة فيها بما يناسبها ويقلبها على صاحبها عند أنصاره قبل خصومه والشامتين به وبعهده ، وقد قلنا ـ فيما تقدم ـ ان مقالة على يوسف هى مقالة على يوسف التى لا يكتبها غيره وان كتب ماهو اجمل منها وما هو ابلغ منها وأوفى ..

فهذه المقالات فى توديع كرومر هى بعض الشواهد على هذه « الخصوصية اليوسفية » .. اذ لم يكتب احد من مودعى كرومر نظيرا لها بهذا الأسلوب « الدبلوماسى العصامى » الفريد ، وان كتبوا على أساليبهم ما هو جدير بالاعجاب من ناحيته فى عبارته وفحواه

ولم يستغرق هذا الأسلوب الدبلوماسى قلم الشيخ الألمعى فى كل ما كتب من مقال أو خبر ، فقد كان للكاتب «الانسان» قلمه الذى يجرى على هذه الطبقة من الفصاحة وحسن الأداء ، ويجرى كذلك مع العاطفة التى كان يأبى لها أن تقوده فى مواقف السياسة والمطالب العامة ، ولكنها

العاطفة فى نفس « العصامى » الذاكر لعصاميته ، كيفما تقلبت به الحال بين الرضا والغضب ، أو بين الفرح والاسى

وله فى رثاء ولده الوحيد عمر كلمات كتبها يوم نعيه ويوم تشييعه ، لم يحتفل لها بعدة من عدد البلاغة غير الشجن والتجلد والتسليم للواقع الذى بطلت فيه حيلة الالسنة والاقلام كما بطلت فيه حيلة العقول والقلوب

نعاه بقلمه فقال :

« فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر امس ولده الوحيد ـ عمر يوسف ـ فى الحادية عشرة من عمره ، بعد مرض قليل الايام كثير الآلام . فالى الله مآبك يا عمر ، والى الله مآبك ايها الزهر الذى قطفه الموت فى أزكى شذاه

« الى الله مآبك أيها الكبد الذى يمشى على الارض، ثم هوى الى حفرة ابدية يسمونها القبر ، ولو استطعنا لكان فى القلب ، بل هناك قلبان أولى بهما أن يكونا قبره : قلب والده الحزين وقلب أمه الثكلى .. »

وعاد من تشييع جنازته فكتب الخبر بقلمه وهو يمحو سطوره بدموعه ، وقال بعد كلمات :

« خرجنا به من الدار التى ولد فيها ، فألفها منذ كان طفلا يحبو الى أن صار فتى يمشى بها مشية الخيلاء : من الدار التى كان يضيق فناؤها على سعته به ، فيذهب الى الشارع والى المنتزهات تحيط به الخدم ان يصيبه اذى ، الى ذلك اللحد الضيق الذى لا يستطيع أن يعيش فيه انسان ساعة من الزمان ولكنه ـ مع ما به من وحشة ووحدة ـ أوسع المنازل بعد الموت وآنسها لمن يلقى الله طاهرا مثل عمر

« خرجنا به ، لاكما يخرج فيعربته الىالمدرسة يصحبه خادمه ، بل محمولا على الاعناق مودعا بجماهير المشيعين، فى سرير كما تزف العروس مغشى بالحرير الابيض مجللا بالزهور ، ولكنه كان زفافا محزنا يعلوه جلال الموت خطيبا يصيح : الصبر اجمل .. والناس يصيحون . سار مشيعوه جميعا مطرقى الرءوس كأن عليها الطير وتخاف أن يطير . الا رأسين كانا يتلفتان الى النعش بنظرات الملهوف: رأس والده الحزين فىمقدمة الجنازة، ورأس والدته الثكلى فى مؤخرتها .. فيهما اربع أعين هامية ، ودونهما قلبان مستعران ومهجتان زافرتان »

ويشاء القدر لهذه العصامية التى لم تفارقه فى تشييع فلذة كبده ، واعز أهله عليه ، ان تلازمه الى آخريات حياته ، وان تسلبه كثيرا كما وهبت له كثيرا .. فقد صحبتها دفعة الثقة بالنفس فى مغامراتها ، فغامر فى طلب الحب كما غامر فى طلب الكسب ، فلم تكتب له السعادة فى هذا ولا ذاك ، لانه شقى بالحياة الزوجية التى حسبها غاية الامل نعمة وشرفا

وشقى بالمال الذى اقتناه فضاع كله بين عثرات الجد وعثرات الطموح والاقدام ..



- ٢ -

من المصادفات التى عرضت لى فى حياتى الصحفية ، اننى جلست على مكتب على يوسف اياما فى اثناء نيابتى عن الأستاذ احمد حافظ عوض الذى كان يتولى رئاسة «المؤيد» فى تلك الأيام ، وقد دعى الاستاذ احمد حافظ عوض لمصاحبة الخديو فى رحلته التى طاف فيها بأقاليم الوجه البحرى على سبيل المظاهرة أمام الانجليز ، لانه احس انهم يفكرون فى خلعه وتعديل نظام الخديوية وولاية العهد فى الأسرة العلوية ، وقد كانت سفرته الأخيرة من مصر بعد الطواف بالاقاليم وزيارة الوجهاء والنواب فى مساكنهم واستقبال الشعب فى المنازل والطرقات والتهويل على الدولة المحتلة بمظاهر الولاء التى أراد أن تحف به قبل رحيله من الديار ، ولكنه خلع فعلا بعد سفره بثلاثة أشهر ، واحتج الانجليز لخلعه بانضمامه فى العاصمة التركية الى دول أوربة الوسطى ، متابعة للدولة العثمانية

وقد عهد الى الاستاذ أحمد حافظ عوض ان أتلقى رسائله ورسائل وكلاء الصحيفة أثناء تلك الرحلة ، وأفهمنى انه يعد العدة لتاليف كتاب عنها يقدمه الى الخديو بعد عودته الى الديار ..

وتقدرون فتضحك الاقدار ! ..

فلا الخديو عاد الى الديار ، ولا عاد اليها كتشنر الذى رسم الخطة قبل سفره من مصر لتغيير نظام الحكم كله

فى هذه البلاد . ولا الكتاب « المنتظر » كتب فيه حرف واحد ، لأننى رفضت العمل فيه ، واستقلت من تحرير « المؤيد » أثناء اشتغال الاستاذ حافظ بجمع الصور والتواريخ لتأليفه وتنسيقه

ومن المصادفات أن يتفق لى الجلوس على ذلك الكرسى، وان أكتب على ذلك المكتب الذى لم أكد افرغ من حملاتى على صاحبه وعلى سياسته أثناء حياته وبعد مماته ، ولا اذكر اننى لقيت فيه صاحبه غير مرة واحدة كانت هى المرة الوحيدة التى حييته فيها لكلام كتبه فى السياسة الوطنية

وكان كثير من الشبان المصريين قد تفرقوا بين الأحزاب السياسية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى ، فمال معظمهم الى جانب الحزب الوطنى لأقتراب السن والتعليم بين مصطفى كامل « الحقوقى » وطلاب مدرسة الحقوق الذين كانوا أكثر الطلاب اشتغالا بالسياسة ، ومالت طائفة منهم الى حزب الأمة وهم فى الغالب أبناء الأسر الذين تألف الحزب من آبائهم وذويهم ، ولم يجنح احد من الشبان الى حزب الشيخ على يوسف وهو حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ، لأن خطة الحزب كانت الى «الدبلوماسية» أقرب منها الى السياسة او الى الدعوة الوطنية ، وكان « المؤيد » يتبع فى كتابته أسلوب الصحيفة التى تعتبر لسانا شبيها بالرسمى للقصر والحاشية الخديوية ، وليس هذا الاسلوب بالذى يروق الشاب او يوافق حماسته الفتية ، ولم يكن الاعراض عن « المؤيد » من جانب واحد لانه أعراض متبادل من الطرفين ، وكان على يوسف يأبى على الطلاب ان يشغلوا بغير الدراسة فى سنوات التعليم ، وكان مذهبه أن ينتظر رجال الغد الى ان

يأتيهم غدهم الذى هم رجاله . . أما قبل ذلك فكل ما كان يرتضيه الشيخ منهم ان يدينوا بشرعة الولاء لأمير البلاد

وكنت من فريق الشبان القلائل الذين نفروا من الاحزاب منذ اللحظة الأولى ، فلم يكن لى حزب أتعصب له وانتمى اليه ، ولم تكن لى صحيفة أتشيع لسياستها ومنهجها فى كتابتها ، ولكننى كنت أفضل « الجريدة » فى جانب الثقافة ، وافضل « اللواء » فى شدته على الاحتلال والوزارة ، وأقرأ « المؤيد » لمقالاته الشرقية والاسلامية ، واعتقد أن الخطة المثلى هى خطة «مصر للمصريين» تمييزا لها من خطة المحافظة على السيادة العثمانية ، وكان بعضهم يترخص فى تسمية هذه الخطة وأصحابها باسم « حزب المفتى» لأن الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله كان اشهر المعروفين بذلك الرأى فى تلك الفترة ، ومعه فى ذلك سعد زغلول واحمد لطفى السيد . .

على أننى — فى المعارك القلمية — كنت أجد نفسي الى جانب مصطفى كامل كلما نشبت الخصومة الحامية بينه وبين على يوسف . وكنت أكتب الى اللواء منتصرا له كلما دخلت المعركة فى دور من أدوار المساجلة الأدبية ، ومن ذاك ان الشيخ على يوسف كان يكثر من تلقيب مصطفى كامل بالطائش ، ويتخذ لهذا اللقب شفيعا من حساب الجمل لموافقة مجموع الحروف فى كلمة طائش واسم مصطفى كامل بذلك الحساب.! وكنت يومئذ ادرس حساب الحروف والطوالع فيما كنت أحاوله من فضول الاستطلاع ، فلفقت لعلى يوسف لقبا مساويا لاسمه بذلك الحساب ، وهو لقب « نورى » بفتح النون أو ضمها على السواء ، ومعنى نورى بالفتح أنه من شذاذ الآفاق المعروفين باسم النور . . وكان هو متهما بالانتساب اليهم كما كان يقال عنه أنه من

« المسلمانية » الدخلاء من ناحية جده الأول .. وواجهه خصومه فى قضية الزوجية بهذه الدعوى أمام القضاء الشرعى، ليثبتوا أنه غير كفء للزواج من بنت «السادات» ويؤيدوا بذلك طلب التفرقة بين الزوجين

***

ثم حدثت المعركة القلمية التى جمعت الرأى العام كله على تعدد الوانه واذواقه فى صف واحد مع الشيخ على يوسف ، والتى سمع فيها صاحب المؤيد هتافا بحياته بعد عشر سنوات مضت من أيام قضيته التى اشتهرت باسم قضية « التلغرافات » وظل فيها الشيخ على « بطل الساعة » فى حومة الصحافة بضعة شهور ، وقد كان الهتاف بسقوط «المؤيد» وحياة « اللواء » يتكرر ويتواتر فى المظاهرات الشعبية حتى اصبح على حد تعبير الظرفاء من أولاد البلد كليشيهات مسموعة ، وحتى اضطر الشيخ الى التسليم بها وعمد الى الشعر لتعزية نفسه ومكايدة خصومه ، كلما واجهوه بمظاهرة من مظاهراتها ، فنظم هذين البيتين :

يدعون للواء بالحياة
لأنه يعد فى الأموات

ويهتفون يسقط المؤيد
لأنه نحو السماء يصعد

أما المعركة القلمية التى أعادت الهتاف بالحياة والتحية الى مسمع الشيخ ، فهى معركة عنيفة دارت بين الصحف ورجال السياسة حول توديع اللورد كرومر بعد خطابه الذى ألقاه على ملأ من كبار الموظفين واصحاب المقامات « الرسمية » من المصريين والاجانب والشرقيين ، ولعل

الشيخ على يوسف قد « صعد الى سمائه » فى هذا الأفق لأنه أفق الكتابة « الدبلوماسية » ولأنه استطاع بالأسلوب «الدبلوماسى» أن يعزل اللورد كرومر وحده فى ذلك الموقف بين مختلف التيارات السياسية ، أو استطاع ان يكون دبلوماسيا وحماسيا الى الغاية فى دفاعه عن ولى نعمته « الخديو عباس الثانى » خصم كرومر اللدود

كتب الشيخ على مقاله فى السابع من شهر مايو «١٩٠٧» وهو اليوم التالى لالقاء الخطاب ، فاشترك فى التهليل له والاعجاب به قراء الصحف من كل طائفة وطبقة ومن كل مشرب ونزعة ، واهدى اليه «جوهرى» كبير محبرة من الفضة المذهبة ، وازدحمت رحبة « المؤيد » بالمتظاهرين والهاتفين من الطلاب وجمهرة الشباب .. ومنهم أزهريون، ودرعميون ، وحقوقيون ، وموظفون .. وتلقى « المؤيد » رسائل التأييد ممن لم يكن يؤيده أو يطيف به من قريب أو بعيد ، فأصبح « المؤيد » لفظا ومعنى ، وكان « أولاد البلد » يأبون عليه ان يكون كذلك الا بالقاف القاهرية .. لأنه « يقيد » قلمه بقيود الأمير ..

وفى هذه المعركة كتبت للمؤيد كلمة التأييد التى كنت فى المعارك السابقة اكتبها عليه ، وقلت عن تلك المقالة الطنانة اننا :

« تلوناها كلمة كلمة وسطرا سطرا ، فكنا كلما قرأنا كلمة ازالت تأثير لمحة من تلك الخطبة ، وكلما تلونا سطرا انهزم سطر منها ، حتى جئنا على آخرها ، فكأنما حل ثقل وارتفع ، أوهام جهام وانقشع ، ولا غرو ان كانت مسهبة طويلة ، فانها تذيب سبابا كالقار اسود لا يصهر الا على أشد حرارة النار »

لقيت صاحب المؤيد فى مكتبه للمرة الاولى والأخيرة

لاسلمه تلك الكلمة ، فاستقبلنى مع رهط من الزوار والمحررين ، ورأيته يكتب وهو يحمل الورقة فى يده ويلتفت الى محدثيه لحظة ثم يعود الى ورقته يسطر فيها كأنه لم ينقطع عنها ، ثم وضع الورقة على المكتب بعد الفراغ منها ، وسألنى : هل انت طالب ؟ ..

ولم اكن يومئذ طالبا ولا موظفا بل كنت بين طالب وموظف ، لأننى كنت استعد للعمل بمصلحة التلغراف وأتلقى دروسا فى الكهرباء والكيمياء بمدرسة الصناعة ، فقلت : بين طالب وموظف !

فابتسم واستفسرنى ، واوجزت له تفسير هذا العمل الجامع بين طلب العلم والوظيفة ، وقد نبهته ذكرى « التلغرافات » على ما يظهر فأقبل على التحدث الى وعاد يسألنى : وما الذى اعجبك فى المقال ؟.. فقلت : اعجبنى المقال كله ، وبخاصة موقع الاستشهاد فيه بهذين البيتين ، وهما من شعر ابى العلاء :

ربما اخرج الحزين جوى الحز
ن الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما
ن ، فانحى على رقاب الجياد

فقال وهو يقطع الكلمات : اذن انت طالب .. وموظف .. واديب ، ووعدنى بنشر الكلمة فنشرها بهذا التقديم « من حضرة الفاضل صاحب الامضاء »

وكان الامضاء « ع.م. العقاد » على عادة التوقيع بأوائل الحروف فى المجلات الأوربية التى كنا نقرأها

وتشاء المعارك القلمية ـ والحرب سجال كما يقال ـ أن يقرأ الشيخ بعد ذلك هذا التوقيع تحت مقال عنه بعيد جدا من مقالات الثناء والتأييد لأننى كنت أوقع به كتابتى

فى صحيفة « الدستور » لصاحبها الاستاذ محمد فريد وجدى ، وفيها كتبت وصفا مجملا للمظاهرة « العدائية » التى لقيها الشيخ بدار الجريدةبعد سنة من تاريخ خطاب اللورد كرومر ، ولها قصة نوجزها فيما يلى :

« شرع المحتلون بعد عهد كرومر فى تنفيذ سياستهم الجديدة التى سميت بسياسة الوفاق بينهم وبين الخديو عباس ، فكف المؤيد عن انتقادهم ومحاسبتهم ، وتجاوز المجاملة احيانا الى الرضا والتأييد ، وسرت فى الامة يومئذ حركة قومية تطالب الاحزاب جميعا بتعيين موقفها من السياسة الجديدة ، فأعلن الأستاذ الجليل — احمد لطفى السيد — عن خطاب شامل يلقيه بدار «الجريدة» فى شارع غيط العدة ، بيانا لموقف حزب الأمة من السياسة المصرية على العموم « مايو سنة ١٩٠٨ » .. واكتظت دار الجريدة بمئات من المستمعين بينهم كثير من الطلبة والشبان ، ونجح الاستاذ الجليل فى اجتذاب الاسماع اليه، ولكننى سمعت الى جانبى همهمة متواصلة فى اثناء القاء الخطاب ، ورايت خمسة او ستة من الشبان يخرجون ويعودون ومعهم قراطيس ملأى بالطماطم والبيض ، ومع اثنين منهم حمائم يخفيانها تحت سترتيهما ، وهما متحفزان

«وكان المقصود بهذه الحركة كلها ابراهيم الهلباوى بك، ولكنها تناولت الشيخ على يوسف اتفاقا حين رآه الحاضرون فى الاجتماع ، ولم يكن منظورا ان يشهده لما بين حزبه وحزب الامة من الخلاف الشديد .. فما هو الا ان فرغ الاستاذ لطفى السيد من خطابه حتى انطلقت فى جو المكان تلك الحمائم وانطلق معها هتاف كالرعد بسقوط جلاد دنشواى .. ثم تلاه الهتاف بسقوط المؤيد وصاحبه او سقوط سياسة النفاق، ونال الرجل من قذائف الحاضرين

يومئذ اذى غير قليل .. وقد وصفت الحفلة فى صحيفة الدستور فقلت ان مظاهرة غيظ العـدة نسخت مظاهرة قضية التلغرافات ، وان الشعب المصرى اذا كان قد حيى صاحب المؤيد عند الحكم ببراءته فى تلك القضيـة فقـد سحب تحيته الأولى بهذه الثورة عليه ..

« ولقيت الشيخ على يوسف مرة اخرى فى تلك السنة بفندق شبرد على الأرجح ، حيث أقيمت حفلة توديع لوفد من اعيان البلاد اعتزموا السفر الى لنـدن لاقناع وزارة الخارجية بتوسيع نصيب مصر من الحياة النيابية ، وكان هذا الوفد مؤلفا من اسماعيل أباظة باشا ومحمد الشريعى باشا ومحمود سالم بك والسيد حسين القصبى وعبد اللطيف الصوفانى بك وناشد حنا بك والدكتور ابراهيم الشوربجى وبعض المترجمين والمحررين .. وحضرت هـذه الحفلة منتدبا من جريدة «الدستور» ولم نكن راضين عن مخاطبة الانجليز فى مسـألة الدسـتور . ولكن الصحيفة ندبتنى لتسجيل ما اراه فى تلك الحفلة أو الوليمة على الأصح ، لأنها كانت مقصـورة على من ذكرنا من الاعيـان وبعض الصحفيين ومنهم الشيخ على يوسف عن «المؤيد» وفارس نمر باشا عن « المقطم » وآخرون

« وفى تلك الوليمـة بدا لى أن صاحب المؤيد لم ينس كلمتى عنه فى التعليق على اجتماع دار الجريدة فسألنى: انت عم العقاد ؟.. قلت : نعم .. قال : هل بينك وبين السيد حسن موسى العقاد قرابة ؟.. قلت : هى مشابهة اسماء .. فضحك ضحكة غير خالصـة وقال : بل لعلها مشابهة فى غير الأسماء أيضا .. وهو يعنى ــ على ما اعتقدت ــ ثورة السيد حسن موسى وتمـرده ، لأنه كان فى أكثر

احواله مغضوبا عليه من المؤيد وشيعته السياسية »

ولا اذكر انني قابلت الشيخ في مجلس من المجالس الخاصة غير هذه المقابلات اكثر من مرتين ، يحضرني في احداهما حديثه عن الرتب والنياشين بمكتب أحمد زكي باشا السكرتير العام لمجلس النظار

وكنا مع زملائنا الصحفيين في طوفتنا اليومية بين « نظارة » الداخلية ومجلس النظار لتسلم نشرات الاخبار الرسمية التي تطبع في الدواوين وتوزع على مندوبي الصحف في مواعيدها اليومية ، وقد نشر في ذلك اليوم خبر الانعام على احمد زكي باشا برتبة من رتب التشريف اظنها الباشوية ، فخطر لنا ــ نحن زمرة الصحفيين ــ ان نمر به مهنئين باعتباره زميلا كبيرا في صناعة القلم ، فوجدنا عنده الشيخ على يوسف يهنئه ويحدثه في مسألة من مسائل المجلس ، وكان معنا الأستاذ جورج طنوس مندوب « الوطن » لصاحبه جندي ابراهيم ، وكان جورج مشهورا بين زملائه وعارفيه باللجاجة وقلقلة الحديث ، فتطوع للنيابة عنا وافتتح التهنئة مخاطبا للسكرتير العام على النغمة التي كانت مألوفة في ذلك المقام ، فجعل يقول له بصوته الجهوري كلاما في هذا المعنى : « ان الرتبة تزدان بك ولا تزينك ، وان الباشوية لقب يفخر به صاحب العزبة وصاحب الثروة من المال والعقار ، واما صاحب القلم فهو يذكر باسمه ــ احمد زكي ــ وكفى ، وبهذا نناديك أيها الكاتب الكبير ولا نزيد .. »

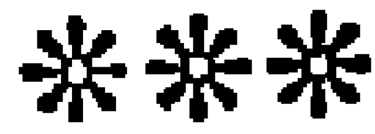
وقاطعه الشيخ على متململا ، وتوقعنا أن يقول شيئا يرد به على تهنئة الزميل اللجوج لأكثر من سبب .. فان رجلا يعلم الناس انه لسان حال القصر يأبى له « دوره » السياسي ، ان لم نقل شعوره النفساني ، أن يوصف أمامه

انعام الامير بأنه تحصيل حاصل ونافلة من النوافل التى لا يحفل بها أصحاب الأقلام ، واذا سكت على يوسف - لسان حال الأمير - عن هذا الاستخفاف بألقابه ونعمه فمن العسير أن يسكت عنه على يوسف « موزع » الرتب والنياشين . . اذ كان للرتب والنياشين موزعون معروفون يبيعونها بأسعارها من رتبة الميرمران الرفيعة بألف جنيه الى رتبة البيكوية من الدرجة الثانية بثلثمائة أو اربعمائة جنيه ، لان بخل عباس الثانى كان يأبى عليه أن يسخو بالاعانة من ماله على كبار الاعوان أو يسخو بها على ادارة الصحف الكبرى كلما احتاجت الى المال الكثير ، وكانت لصغار الصحفيين اعاناتهم من « ميزانية المعية السنية » ومن هبات ديوان الأوقاف . .

أما « المشروعات الصحفية الواسعة » فقد كان المعول فى سداد نفقاتها على أثمان الرتب والنياشين ، وكان لها موسمها كل عام فى مناسبات الاعياد والمهرجانات الخديوية،

فكانت الحصة الاولى من هذا المحصول السنوى للشيخ على يوسف واعوانه فى الاسكندرية وعواصم الاقاليم : وكان سكوت الشيخ عن تهوين شأن هذه « السلعة » على مسمع منه غير معقول ولا منتظر ، ولعل صاحبنا جورج طنوس لم يقل كلمته تلك الا وهو يتعمد اثارة الشيخ واستفزازه للرد عليه ، ولم يمهله الشيخ - فعلا - أن يتم كلامه الى نهاية ثرثراته التى لم تكن لها نهاية . فاستوقفه متبرما وقال وهو يخاطبه خطاب من يعرفه ولا يجهل عاداته بين زملائه : « مهلا . . مهلا . . يامعلم . . ان الرتبة تقدير من ولى الامر وتقرير لفضل صاحبها بين من يعرفونه ومن يجهلونه . وهل ترفضها يا معلم جورج ؟ . . »

ثم التفت الى السكرتير العام فأعاد عليه التهنئة وهو يقول : سيهنئك اصحابنا هؤلاء بمزيد من الرتب الى اعلاها وارفعها ان شاء الله ! »



أما مقابلات الطريق فقد كانت مركبة الشيخ تصادفنا أحيانا في طريقنا مع أصحابنا من العباسية حيث أسكن الى الحى الحسينى حيث نلتقى بأكثر اخواننا الادباء ، أو الى مقهى عابدين الي جوار مدرسة الحقوق القديمة حيث كنا نلتقى بطائفة من الطلاب الحقوقيين وغير الحقوقيين ، وليست هذه المقابلات العرضية وسيلة من وسائل التعريف تفيدنا كثيرا فى كلام نكتبه عن الشيخ كما عرفناه ، ولكن احدي هذه المقابلات ربما عرفتنا بالشيخ في خليقة من خلائقه التى أثرت عنه طوال حياته. وهي خليقة « المحافظة » على السمت القديم كما نشأ عليه ، وربما عرفتنا مقابلة أخرى بهوى من أهواء نفسه أو أهواء قلبه التي كادت تشغله كما شغلته المحافظة على شارة السمت والوقار

رأيناه مرة فى طريقه الى قصر عابدين فى يوم من أيام التشريفات فرأينا عجبا من أزياء الرتب المدنية ، لانه حافظ على العمامة مع كسوة التشريفة التى تؤهله لها رتبته الرفيعة ، ولم يشأ أن يغير عمامته كما غيرها الكثيرون ممن يلبسون كسوة الباشوية وكان يبدو وهو جالس كأنه يلبس العمامة على « بدلة الافندية » من لابسى السترة والبنطلون ، وهو زى كان يتزيى به فى القاهرة أبناء طائفة واحدة هى طائفة عمال شركة النور الذين كانوا يخرجون الى الشوارع فى المساء بسترتهم الملونة وسراويلهم الافرنجية لاشعال مصابيح النور ، وقد سخر اخواننا الشبان بهذه

المفارقة وتنادروا بها غير قليل ، ولكنني فى الواقع أعجبت بالرجل لهذه المحافظة وهو يتحدى العرف والسخرية ، واحسست فيها عصامية تأبى أن تفصل مظاهر الالقاب بينها وبين ماضيها ..

ومرة أخرى رأيت الشيخ مع السيد توفيق البكرى قادمين فى مركبة واحدة من قصر السيد بالخرنفش الى ناحية باب الحديد ، فاذا هما فى زى واحد من ملابس النزهة الفضفاضة على غاية من الاناقة التى يقصدها القاصد من لابسي هذا الزى التقليدى فى القاهرةالفاطمية! .. وزاد المشابهة فى لون الكساء وتفصيله وهندامه أن الشيخ والسيد كانا نمطا واحداً فى البنية والقامة وصورة الوجه الدقيق والراس الصغير ، فكأنما كان الشيخان فى تلك « الطلعة » الانيقة فتيين من فتيانالحسينية الظرفاء يتبادلان المجاملة بهذه المباراة « الودية » فى معرض من معارض الصبوة .. ولكنها صبوة فى حدود « التقاليد » على سنة « المشيخة » من ائمة الطريق .. وكلا الرجلين كان من أبناء « الطريق » فى مقام الرئيس أو مقام المرشح للرئاسة !

ولا ننسى أن « قضية الزوجية » قد عملت عملهاالمنتظر فى الاندفاع بالشيخ الى هذه الطلعة العاطفية .

ان السيد البكرى كان طراز القدوة المختارة بين أبناء طبقته وزيه فىالوسامةوالقسامة ووجاهة المركبوالشارة، وقد طمح الشيخ الى البناء بأكرم الكرائم من بيت السادة الوفائية ، فهل تطيب نفسها أن تراه ، وتراه أترابها معها ، فى طلعة دون طلعة الطراز المرموق من سلالة السادة البكرية ؟ !

على انها فتنة « عاقلة » لم تجاوز حدودها التقليدية فى نطاق المشيخة كما تقدم ، ولم يسلم حافظ ابراهيم من غلو الشعر حين قال فى وصف تلك الصبوة من الشيخ الكهل أنه :

أتاه الغرام بسن الشيو
خ فجن جنونا ببنت النبى

فان الصبوة لم تخرج الرجل قط عن سمته الذى طبع عليه طبعا وتكلف ما لم يطبع عليه منه تكلفا طويلا ، وماكان لمثل تلك الصبوة أن تنسى الرجل كل ما كان يشغله فى بواكير شبابه الى خاتمة حياته : وهو شاغل « المقام » الملحوظ بين ذوى الشرف الموروث من علية السادة وذوى القدر والمهابة ، وربما كان تحفظه المتأصل فيه هو الذى ألزمه ، على غير اختيار منه ، ديدن المحافظة الى حد الاحتجاز ، أو الاحتجاز الى حد الانزواء ، أو الانزواء الى حد الاستكانة التى لم تفارقه بعد ارتفاعه بالجد والجهد معا الى حيث أراد من دنياه

كتب الامير شكيب أرسلان فى عدد يناير من المقتطف (١٩٢٧) فى روايته لبعض ذكرياته عن صاحب المؤيد :

« كنا نجتمع دائما فى مجلس المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، واكثر ما نسمر عند صاحب الدولة سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد افندى زغلول المحامى الشهير بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمه الشيخ على يوسف ، يأتى فيجلس فى الآخر ويلبث أكثر المجلس ساكنا مستمعا ونكاد نرثى له لضعفه ومسكنته .. »

ولا نستغرب أن يرى « على يوسف الشاب » فى إبان

فقزه وانقباضه وخفاء ذكره على سمة توصف بالمسكنة التى يرثى لها من يراه ، لأن الناظر الى صاحب المؤيد بعد ارتفاع الشأن وذيوع الصيت كان يستطيع أن يصفه باستكانة تشبه المسكنة اذا نظر اليه وهو صامت ساكن بين الجلساء والنظراء ، لولا ان الاستكانة صفة لا يوصف بها المرء وهو يملأ الدنيا بما يقوله وما يقال فيه .. !

وانما هو مزاج أصيل فطر عليه هذا العصامى الناجح وعرفه من ذات نفسه فعرف ما خلق له وما لم يخلق له من أول مسعاه ، فلم يضيع جهده عبثا فى غير مايستطيع انه خلق لكل ما يبلغ المرء بالذكاء والحيطة ولباقة القلم وحضور الخاطر وحسن التفاهم مع القلائل المعدودين من النافعين والمنتفعين ، ولم يخلق للسيطرة الغالبة فى نجلبة الزحام ولا للعظمة المزهوة بالطنين والخيلاء ، فانتهى الى غايته وهو يبدو فى زاويته كالقابع المستكين ، لولا أنه يقدر على خطوب لا يقدر عليها القابع المستكين





مصطفى كامل

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، وكان عمره ثمانى سنوات عندما احتل الجيش الانجليزى القلعة فى الحى الذى نشأ فيه ..

سنوات ثمان تسمى بحق سنوات الثورة ، ولكنها أحق من ذلك أن تسمى سنوات الخطابة ، لان الثورة قد اشتعلت اشتعالها الاكبر قبل ختامها .. أما الخطابة فلقد كانت فى أوجها عند مولد الزعيم ، وبلغت قمة ذلك الاوج عند دخول جيش الاحتلال ..

كان حى الصليبة الذى ولد فيه الزعيم الخطيب احد الحيين الكبيرين اللذين تنافسا على الوطنية القاهرية عدة أجيال ، وكان هذا الحى أحفل بمعالم الحركة الوطنية من الحى الآخر الذى كان ينافسه « الفتوة » على عهد الحملة الفرنسية ، لانه حى القلعة التى كانت مسكن الوالى ثم صارت معسكر الجيش المحتل وبقيت الى جوارها ساحة المحافل القومية من ركب المحمل الى ركب الولاية بعد مبايعة الامير ، الى ركب العروض العسكرية

وكانت مساجد هذا الحى أعمر المساجد بالخطباء الثوريين ، ولم يكن فى القاهرة مسجد أعمر منها غير الجامع الازهر فى تلك الفترة ، وهو فى المكان الاوسط بين طرف الصليبة من ناحية وطرف الحسينية من الناحية الاخرى

كان مصطفى كامل فى الخامسة أو السادسة يوم كان

« عبده الحامولى » يسأل : أين نسمعك هـذه الليـلة ؟ فكان يجيب مازحا : أنا الليلة سهران مع عبد الله نديم فى فرح آل فلان ..

ولم يكن « عبد الله نديم » وحده خطيب هذه الحفلات، بل كان معه عشرات الخطباء المعممين والمطربشين يتداولون منابر المساجد والاعراس ، ممن لم يشتهروا شهرة عبدالله نديم .. وكان يصحب أستاذهم الاكبر تلميـذه الناشىء « مصطفى ماهر » فى سن تكبر سن مصطفى كامل ببضع سنوات : وهو التلميذ الذى قال عنه النديم مرة انه أخطب من « غلادسـتون » ، لانه تكلم فى أربعة موضـوعات وغلادستون لا يحسن أن يتكلم فى أكثر من موضوع !

وانقضت سنوات الصدمة الاولى بعـد الاحتـلال فى ركود من حركة الخطابة ، وفى ركود من كل حركة سياسية أو اجتماعية ، ولكنها كانت بمثابة فترة الانتقال بين اختفاء الخطباء الاول وظهور الخطباء اللاحقين ، لان مهمة الخطيب فى عالم السياسة لم تلبث أن تجددت على اشدها وأوسعها بعد ذهاب الدهشة من قيام الجيش المحتل فى عاصـمة البلاد

وجاء فى هذه الفترة زمن كانت الخطـابة فيه أهم من الكتابة ، وكان الصحفى الذى يحسن أن يتكلم كما يحسن ان يكتب أقرب الى الميدان من زميل يحسن عمل الصحافة ولا يحسن عمل المنبر ، ولو كان زميله هـذا أقـدر على البيان وأوفر حظا من الفكر والدراية

ويكفى أن نذكر أربعة من أصحاب الصحف اليومية ، بعد انقضاء عشرين سنة على دخـول المحتلين ، كانوا من الخطبـاء الكتاب : وهم مصطفى كامل فى « اللواء » ، وفارس نمر فى « المقطم » ، وجندى ابراهيم فى « الوطن » ،

ومحمد أبو شادى فى «الظاهر» ، ولم يكن تادرس شنودة المنقبادي صاحب صحيفة « مصر » خطيبا فى طبقة هؤلاء، ولكن رئيس تحريره توفيق عزوز كان أقدر المتكلمين على المنابر بين أبناء الطائفة القبطية مع زميليه اخنوخ فانوس وجندى ابراهيم . وكان على يوسف صاحب « المؤيد » لا يخطب مرتجلا ولكن كتاب صحيفته الخطباء لم يكونوا قليلين ، وفى مقدمتهم « ابراهيم الهلباوى » كاتب مقالات : « الى أين نحن مسوقون » •• بل لا ننسى أن « احمد لطفى السيد » رئيس تحرير « الجريدة » — وقد غلبت عليه شهرة الفلسفة والكتابة — كان من المحامين وكان قبل ذلك من وكلاء النيابة المبينين

وتتشابه الاسباب التى أبرزت مهمة الخطابة فى البلاد الشرقية غير مقصورة على الديار المصرية ، ولكننا نذكر الاسباب التى حفظت للخطابة مهمتها بعد الثورة العرابية فى هذه الديار : وأولها قيام المحاكم العصرية ، واشتداد الحاجة دفعة واحدة الى المحامين ولو لم يدرسوا القانون بمدارس الحقوق •• ومنها افتتاح الكنائس الانجيلية وانتداب الخطباء المفوهين من القسس للوعظ على منابرها •• وقد عنى المسيحيون القبط بمنافسة هؤلاء الخطباء كما عنى المسلمون المعممون والمطربشون ، وأذكر أننى حضرت أياما فى « قنا » كان « الانبا لوكاس » يعظ فيها على منبر الكنيسة القبطية ، والقس اسحاق يعظ على منبر الكنيسة الانجيلية ، والشيوخ الادباء يخطبون فى المساجد ومعهم أشهر المحامين والقضاة الشرعيين ، وأشهرهم محمد نور أستاذ مكرم عبيد فى الخطابة

ولد مصطفى كامل فى هذا العصر عصر الخطابة ، وشهد خطباء حى الصليبة فى الخامسة والسادسة . وهى سن

التقليد والمحاكاة ، واستفاد من حى « الصليبة » أول نفحة من نفحات « الوطنية المحلية » التى كانت مدار التنافس على بطولة القاهرة بين « فتوة » الحسينية وفتوة الصليبة ، وربما تعثر بين الحبو والعدو فى احدى تلك الوقعات التى كانت تنتقل من ساحة الازهر احيانا الى جوار شيخون أو جوار قيسون .. لانه لم ينس هذه الحمية « المحلية » بعد أن وصل فى تعليمه الى المدارس التوجيهية ، وكانت دعوته الاولى أنه دعا الى تأليف جمعية « الصليبة » فانتظم فيها نحو سبعين من المواطنين المحليين ، قبل أن يدعو الى تأليف الحزب الوطنى بعدة سنين ..

***

رأيت مصطفى كامل لاول مرة وأنا فى الخامسة عشرة ، أى فى مثل سنه يوم تصدى لقيادة « الوطنية المحلية » بحى الصليبة ..

كنت ببلدتى اسوان أشتغل مع زملائى باحدى الدعوات المحلية ، وهى دعوة التطوع للتعليم بالمدارس الاهلية ..

وقد تقدمنا فى هذه الدعوة زميل لنا فى مدرسة اسوان الاميرية تخرج قبلنا وانتظم فى وظيفة عسكرية بمصلحة خفر السواحل : وهو اللواء محمد صالح حرب رئيس جماعة الشبان المسلمين ، وكان يساعد المدرسة الاهلية التى تبعناه فى التعليم بها ويتبرع لها بالمال من مرتبه ، بعد أن حيل بينه وبين التطوع للتدريس فيها ..

وقدم مصطفى كامل الى أسوان فى موسم الشتاء ، ومعه الأمير حيدر ومدام جولييت آدم وكاتبة انجليزية من الاحرار تسمى مسز يونج – على ما أذكر – وهم

جميعا فى رحلة نيلية ..

وخرج مصطفى كامل ذات صباح يتمشى على شاطىء النيل ومعه الكاتبتان الفرنسية والانجليزية ، فوقفوا عند باب المدرسة الاميرية وسألوا البواب عن « حضرة الناظر » فغاب هنيهة ، وعاد يقول لهم : انه غير موجود !

وذكر مصطفى كامل أن صاحب المدرسة الاهلية ــ وقد كان يراسل اللواء ــ قد دعاه الى زيارتها فقال لصحبه : مدرسة بمدرسة .. فلنذهب الى المدرسة التى « ناظرها موجود » ..

ودخل غرفة السنة الرابعة وفيها درس اللغة العربية، فجلس مكان التلميذ الذى كان يكتب على اللوحة ، وأملى عليه هذا البيت لابى العلاء ليعربه ويشرح معناه :

والمرء ما لم تفد نفعا اقامته
غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجم مصطفى كامل هذا البيت الى اللغة الفرنسية فى طلاقة وثقة ، وناقش التلميذ فى شرح معناه ، فتلعثم التلميذ ولم يجب بطائل ، فأسعفته معتذرا له بأن الغيم الذى لا يمطر فى أسوان ولا يسير نعمة محبوبة ، وان الغيم الممطر وغير الممطر عندنا قليل !

ولاح لى أن « الباشا » لم يسترح لهذا التعقيب ، ولم يتقبل منه الاشارة الى خطئه فى اختياره ! وان لم يكن فى الامر غير فكاهة تتلاقى فيها التخطئة والتصويب

صورة مصطفى كامل التى بقيت فى خلدى مدى الحياة هى الصورة التى انطبعت فيه من أثر هذه الرؤية الاولى..

حركاته كلها كانت تنم على احساسه بدقة تكوينه ،

يبدو ذلك من شموخه وزهوه كما يبدو من طول طربوشه وارتفاع كعبه ، ومن سترة « البنجور » التى كانت لاتلائم سنه وهو دون الثلاثين ..

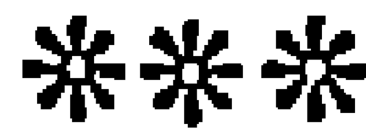
وهذا البيت من قصيدة ابى العلاء ـ اليس فيه تعريض بالاجسام التى تسد عين الشمس فتحجب الضياء ولاتجود بقطرة من الماء ؟

وربما شغلته دقة تكوينه بسمت الوقار ، فلم تسمح له بمجاراة روح الفكاهة ولا سيما الفكاهة على حسابه ، والفكاهة التى فيها تخطئة لاختياره

وقد كان من شأن المواقف الاخرى التى اقتربت فيهـا من شخص مصطفى كامل أن تؤكد هذه الصورة ولا تمحو عندى ظلا من ظلالها ..

كنت أحرر صحيفة « الدستور » مع صاحبها الاستاذ محمد فريد وجدى ، وكان الاستاذ وجدى أحد الاعضاء الذين دعوا الى تأسيس الحزب الوطنى قبل وفاة مصطفى كامل ببضعة أشهر ، فلما انتهى رئيس الحزب من عرض برنامجه اقترح ارسال تبليغ بالبرق الى وزارة الخارجية البريطانية لاعلانها بتأليف الحزب الوطنى ومطالبتها بالجلاء فأقره الاعضـــاء جميعا على اقتراحه ما عدا الاســـتاذ « وجدى » الذى كان من رأيه أن يعمم ارسال التبليغ الى جميع الدول ، دفعا لشبهة « المركز الخاص » الذى تدعيه بريطانيا العظمى باحتلالها هذه البلاد ، فأبى مصطفى تعديل اقتراحه وأصر على طلب قبوله بصيغته التى عرضه بها على الاعضاء ، وكاد ان يقاطع صاحب « الدستور » فلم يتبادلا الزيارة بعد ذلك .. الى أن توفى مصطفى فخرج صاحب « الدستور » من قطيعته ورثاه بمقال حزين جعل عنوانه : « مال اكبر راس فى مصر . انا لله وانا اليـــه

راجعون » .. فلم تزل كلمة « أكبر رأس » تعلق بذاكرتي منذ ذلك اليوم الى أن ذكرتها في كلمتي عن « الملك أحمد فؤاد » بمجلس النواب : أكبر رأس تحطم الدستور ..



كنت أحرر صحيفة الدستور مع صاحبها كما تقدم ، وكان صاحبها عضوا في الحزب الوطني .. والصحيفة لسان من ألسنة هذا الحزب القليلة في ذلك الحين بين الصحف اليومية والاسبوعية .. كانت « الدستور » لسان الحزب الثاني و « اللواء » لسانه الاول ، ولكنني لم أشترك في الحزب بعد اعلان تأليفه كما اشترك فيه زملاؤنا الصحفيون .. ولا يخطر لي الآن ، ولم يخطر لي قبل الآن أن تلك الصورة التي ارتسمت في ذهني من لقاء مصطفى كامل للمرة الاولى هي التي أخرتني عن طلب الاشتراك في حزبه ، فلم يزل مصطفى كامل أحب المجاهدين الينا في حومة القضية الوطنية بين أصحاب الصحف وأعلام القضية المصرية يومذاك ، وكنت اتشيع له اذا نشبت المعركة بينه وبين خصومه كما تقدم في الكلام على الشيخ على يوسف — صاحب « المؤيد » — وبعد أن عرفت من حقائق الدعوة الوطنية وحقيقة نفسي ما لم اكن اعرف أستطيع أن أقول ان اختلاف الطبيعة البعيد قد رسم امامي مثالا للامامة المذهبية غير هذا المثال ، فان مصطفى كامل كان من اصحاب الطبيعة الخطابية الشعورية وكانت الطبيعة الادبية والفكرية أقرب الى واحرى بالاتباع ، فضلا عن نفور أصيل عندي من التقيد بالحزبية في الرأى أيا كان مقصدها في السياسة أو الادب أو الثقافة على الاجمال

واختلاف الطبيعة هو الذى جعل لى سبيلا في المسائل القومية غير السبيل التي كان يختارها مصطفى كامل في

كثير من مواقفه العامة ..

فلم يعجبني موقف المصرى المتوسل أمام تمثال فرنسا يناجيها ويناديها :

يا فرنسا يا من رفعت البلايا
عن شعوب تهزها ذكراك
انقذى مصر ان مصر بسوء
وارفعى النيل من مهاوى الهلاك

ولم يكن أدب فرنسا ، ولا ما اطلعنا عليه من تاريخ ثورتها ، داعيا عندنا للثقة بنجدتها واستعدادها لانقاذ مصر أو سواها ، ولم تكن طبيعتى التى تأبى طلب المعونة من القادرين عليها كما تأبى طلبها من العاجزين عنها مما يقنعني بامكان التعويل في قضية الاستقلال على معونة دولة قط ، من الدول الكبار أو الصغار

ولهذا أيضا لم يعجبنى تعليق الاستقلال المصري بالسيادة العثمانية ، لأننا على عطفنا الدائم على الدولة العثمانية فى مكافحتها للتعصب الاوروبى لم نكن نفهم أن هذا العطف ينتهي بجهادنا الي الرضا باستقلال تشرف عليه سيادة دولة اخرى ، وقد كان مصطفى كامل يمزج كثيرا بين المصرية والعثمانية حتى فى أحاديثه الخاصة .. كما قال فى جوابه لسؤال الجنرال « بارنج » شقيق لورد كرومر: هل أنت مصرى أو عثماني ؟ فكان جوابه : مصرى عثمانى

وعجب الجنرال بارنج فعاد يسأله : وكيف تجتمع الجنسيتان ؟

قال مصطفى : ليس فى الامر جنسيتان ، بل فى الحقيقة جنسية واحدة ، لأن مصر بلد تابع للدولة العلية ، والتابع لا يختلف عن المتبوع فى شيء من احكامه

ولقد اوشكت ثورة مصطفى كامل أن تنحصر فى الثورة على الاحتلال ، ولا تنظر الى تبديل شيء من النظم السياسية او الاجتماعية .. فلم يكن فى نزعات نفسه ، ولو قبس ضعيف من الثورة على المساوىء الخديوية ،

ولم يختلف فى كثير ولا قليل عن أبناء عصره فى تعظيم الالقاب الرسمية واعتبارها «انعامات» مشرفة لمن يتلقاها، بل كان على صلة بالقصر الخديوى فى التوسط بين طلابها وبين الامير لتوزيعها على من يتطلع اليها ، ولا شك انه كان انظف الساسة الذين كانوا يومئذ يتوسطون مثل هذه الوساطة ، لأنه كان ينفق منافعها على خدمة الدعوة الوطنية لحاجته الى المال فى هذه الدعوة وبخل الخديو بالمال الكثير أو القليل بغير هذه الوسيلة ، ولكن ايمان مصطفى كامل بشرف هذه الرتب والالقاب ربما كان أدعى الى النقد من وساطته فى توزيعها ، فقد بلغ من ايمانه بها انه لم يصدر « اللواء » يوم جاءه خبر الانعام عليه بالباشوية من دار الخلافة الا بعد تغيير « الكلشيه » الذى كان اسمه فيه متبوعا بلقب الباشوية

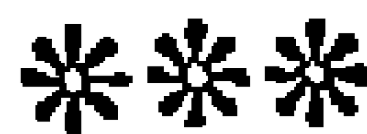
جاء فى الجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا وهو أحد رؤساء الحاشية الخديوية :

« ان الرتب أصبحت كالسلع السهلة ، وكان لهذه التجارة وسطاء كثيرون ، منهم الشيخ على يوسف ، وحسين بك زكى ، وأحمد بك العريس ، وابراهيم بك المويلحى وهو مقيم بالآستانة يأتى كل شتاء لأخذ بضاعته من مصر ، وأحمد شوقى بك الشاعر ومصطفى كامل الذى كان ينفق ما يأخذه فى الدعاية لقضية مصر »

ولا شك فيما قاله صاحب المذكرات من تخصيص مصطفى كامل بين سماسرة الرتب والنياشين بالانفاق من

منافعها على الدعاية الوطنية ، ولاسيما الدعاية فى العواصم الاوروبية ، ولكن حرص « الباشا » على الوجاهة التى لا تقل عن وجاهة الامراء ربما كلفته هناك أضعاف نفقة الدعاية

ولم تخف دخائل هذه الاحوال على طائفة الصحفيين ، والمشتغلين بالسياسة الوطنية ، ولكنها لم تغض من قدر الزعيم الشاب ، ولم تشكك أحدا فى اخلاصه لدعوته وغيرته على قضية بلاده ، وبلوغه بالشعور الوطنى مبلغ الهوى الذى يملك على العاشق لبه ويجرد هواه للاوطان من تقدير الوطن بحساب المبادىء والواجبات أو حساب المطالب والآمال ، فقد كان مصطفى كامل من أكثر المجاهدين شفيعا الى قلوب أنصاره وخصومه ، لنزاهة أخطائه جميعا من شائبة الغرض الملتوى والنفاق الذميم



ان الزعامة السياسية لا تخلو من أخطاء فى الحياة العامة أو الحياة الخاصة ، وربما كانت زعامة مصطفى كامل أقل الزعامات خطأ فى أوائل دعوتها ، ولست أذكر اننى تبينت هذه الاخطاء أو تبينت غيرها من الاخطاء السياسية بحثا وتفكيرا وامعانا فى تحقيق المطالب الوطنية وتحقيق أساليب العمل لها والوصول اليها .. فان هذا البحث جهد لا يطيقه عقل صبى فى الخامسة عشرة أو شاب فيما دون العشرين وهى سنى يوم عملت فى الصحافة اليومية ، فلا اذكر ــ اذن ــ اننى احجمت عن الاشتراك فى حزب مصطفى كامل بعد البحث المفصل والموازنة الواعية بين مقاصد الزعامات السياسية وطرائق الزعماء فى ذلك الحين ، ولكن الذى اذكره جيدا اننى كنت أقرأ مقالات مصطفى كامل واسمع خطبه فأحمد له غيرته وأعجب

بصدقه فى جهاده ، ولكننى ارانى أمام منهج من الكتابة والقول غير المنهج الذى أتلقى منه رسالة الفكر والعاطفة وتستجيب اليه بديهتى المتطلعة الى الوعى والمعرفة ، فان ذلك الاسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان له أبلغ الاثر فى جمهور مصطفى كامل لم يكن هو ذلك الاسلوب المختار الذى عهدته فيما اطلعت اليه من كلام مقروء أو كلام مسموع

ولعل أشهر الامثلة للاسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان ذريعة التأثير الكبرى فى خطب مصطفى كامل قوله فى خطبة زيزينيا الكبرى وهى أقوى خطبة وآخرها قبل وفاته اذ يقول :

« بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فانت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر .. »

فان هذا الاطناب وما شابهه لا يعطينى ما أتطلبه من الاقناع ولا من العبارة الادبية عن العواطف ، وانما هو أشبه بدقات النفير تتكرر على وتيرة واحدة لتحتفظ بأعصاب السامعين فى طبقة مشدودة من الانفعال والتنبه ؛ سواء كان هذا الانفعال للوطنية أو لغيرها من العقائد الشعورية

واحسب أن قدرة مصطفى كامل على هذا النوع من التأثير كانت تطغى على كل قدرة خطابية فيه ، ومنها القدرة على الاقناع .. فلم تبلغ قدرته على الاقناع فى كلام قرأته له أو سمعته عنه مبلغا يسوقه الى الاعراب عنه أو اعطائه نصيبا من أسباب التأثير الى جانب الحركة الخطابية الشعورية ، وأسميها « الحركة » لأنها فى الواقع أقرب الى بواعث الحركة « اللاارادية » من مجامع الاعصاب

ولا يظهر ذلك فى الخطب كما يظهر فى الاحاديث الخاصة والمساجلات الشفوية ، فلم يكن مصطفى كامل المتحدث مقنعا للجنرال « بارنج » حين سأله هذا هل هو مصرى او عثمانى ؟ فقال له انه مصرى وعثمانى معا لأن التابع يشبه المتبوع فى أحكامه .. فماذا لو قال له الجنرال : ولكن التابع لا يحسن به ان يشتهى التبعية وان « يتحمس » لها ويصر على البقاء .. وقد يحمد من المتبوع ان يستبقى علاقته بتابعه ولا يحمد من التابع أن يستبقى تلك العلاقة برضاه .. !

وانه لمن ضعف الاقناع أن يفوت الزعيم الوطنى المتحدث ان يجيب « بارنج » سائلا : هل أنت انجليزى أو بريطانى ؟ .. فكل جواب لهذا السؤال محرج للمجيب موافق للمصرى العثمانى من وجهة نظره فى مناقشات السياسة مع البريطانيين الانجليز

وخلاصة ما بقى فى نفسى من أثر لهذا الزعيم المجاهد — كما عرفته — أنه كان نعم الزعيم على منهجه وسجيته ، ولكن زعامته كانت تتسع فى عصره — وبعد عصره — لزعماء آخرين على مناهجهم وسجاياهم ، لأن الوطنية المصرية كانت تشمل مصطفى كامل بكل مااحتواه من غيرة وحماسة ، ولكنه رحمه الله لم يكن يستغرق الوطنية المصرية بكل ما تحتويه أو ينبغى أن تحتويه





محمد فريد

محمد فريد من أكبر اعـلام الوطنية المصرية ، بل من خيرة شـهدائها الذين يستحقون التمجيد والتخـليد فى صفحاتها الباقية ..

عرفته فى اسوان قبل أن ألقاه فى القـاهرة بسنوات عديدة ..

عرفته من قضـية « المؤيد » التى اشتهرت بقضـية التلغرافات ..

وعرفته من مؤلفـاته التاريخية ، لأن كتابه فى تاريخ الدولة العثمـانية كان أول كتاب قرأته فى تاريخ هـذه الدولة ..

وقد كان فى هذا الكتاب مؤرخا واسع المصادر حريصا على التحقيق ، مع عطف واضح على الدولة وكراهة لاعدائها

وقد كان شأنه فى ذلك شأن جميع الشرقيين أو جميع المسلمين خاصة ، لأن الدولة العثمانية كانت احدى الدول القلائل التى بقى لها اسـتقلالها فى الشرق ، وكانت الى جانب هذا دولة الخلافة الاسلامية ، فكان لها نصيب كبير من عطف الشرقيين الطامحين الى استقلالهم ، ومن عطف المسلمين الذين بايعوا آل عثمان بالخـلافة ، بعد زوال الخلافة العباسية

وهنا موضع ايضاح لا غنى عنه فى سياق هذه الفصول فقد تقدم غير مرة أننا كنا ننكر السيادةالعثمانية ونكره أن يكون الاعتراف بها مبدأ من مبادىء الوطنية المصرية . فمن الواجب أن نلفت الانظار هنا الى الفارق بين كراهة الدولة العثمانية وكراهة سيادتها ، وانما كان استقلال مصر مطلوبا عندنا كاستقلال الدولة العثمانية ، بل كان استقلال مصر مقدما بالطلب عندنا على استقلال الدولة اذا وجبت المقارنة بين الطلبين ..

وأذكر فى هذا السياق اننى كنت أعتقد ان تشبث الدولة العثمانية بسيادتها على الامم الاخرى يضيع عليها جهودها فى غير طائل ، ويعرضها للمتاعب على غير جدوى

ومن المصادفات العجيبة أن الرأى الذى أخذ به « مصطفى كمال » زعيم الترك العظيم بعد الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩٢٠ ، كان هو الرأى الذى دعوت اليه قبل ذلك بثمانى سنوات ، وهو اعتماد الدولة على بلادها الاسيوية ، واعفاء نفسها من المشكلات والجهود التى يسوقها اليها الاحتفاظ بالسيادة على امم البلقان . فكتبت فى مجلة «البيان» ـ سنة ١٩١٢ ـ مقالا بعنوان «مستقبل الدولة العثمانية » قلت فيه : « كذلك زلزلت الصدمة قلوب العثمانيين فيئسوا من الدنيا ، كأن أوربا هى كل الدنيا . ولو كانت الدولة العثمانية شجرة لا تنبت الا فى أوربا لحق لهم الا يرجوا منها بعد الآن ثمرا . ولكنها شرقية المنبت ، وهذه أرومتها لا تزال فى الشرق ، وما هذه الولايات الاوربية الا فروع منها لا يميتها انفصالها منها . وقد كان يمكن أن يدور التاريخ دورة غير التى دارها فلا تتحول أنظار محمد الفاتح البتة الى القسطنطينية .. »

وهذا رأينا القديم فى مسألة السيادة العثمانية على الامم الاجنبية ، فأحرى به أن يكون هو رأينا الاقدم فى مسألة السيادة على هذه البلاد

لقد كنت اومن بهذه العقيدة وانا أشد ما اكون غيرة على الدولة العثمانية واهتماما بماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ومن أجل ذلك شغلت نفسى بقراءة مئات الصفحات فى ذلك التاريخ وانا لا أعدو الرابعة عشرة ، ومن أجله كتبت ما كتبت عن مستقبلها لأنه ــ على ما اعتقدت ــ هو المستقبل الوطيد الذى تستقر فيه على اساس المنعة والتقدم والسلام

وجئت الى القاهرة وانا أسمع اسم « محمد فريد » الوطنى المخلص ، ولا أنسى اسم « محمد فريد » العالم المؤرخ !

ولقيته مرات فى المجتمعات الكبيرة والمجتمعات الصغيرة، ولكنى لم أتحدث اليه فى مجلس خاص غير مرة واحدة

وكان ذلك فى مكتب صحيفة « الدستور » ..

كان هذا المكتب فى منزل بدرب الجماميز الى جوار ديوان المعارف العمومية

وكان الدور الارضى منه مخصصا للمطبعة ، والدور الثانى على قسمين : أحدهما مسكن الاستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك صاحب الدستور ، والآخر مكتب التحرير والادارة ..

وكان الاستاذ وجدى بك يؤثر الكتابة فى مسكنه ، وقلما يجلس فى مكتبه الا لاستقبال زائر أو مراجعة عمل من أعمال الصحيفة . واذا بـ «محمد فريد بك» يحضر الى الدار ذات يوم على غير موعد ، فجلست معه أتحدث اليه ريثما

يرتدى الاستاذ وجدى بك ويحضر للقائه ..

ولست أذكر تاريخ اليوم على التحقيق ، ولكنى اذكر أنه كان بعد أوائل شهر مايو سنة ١٩٠٨ لأن حديثى مع « سعد » رحمه الله كان مدار الكلام فى تلك الفترة ، وقد جرى حديثى مع « سعد » حوالى ذلك التاريخ ، وكان أول حديث لصحفى مصرى مع أحد الوزراء المصريين

وقال « فريد بك » رحمه الله بعد ان عرفنى ! « انك لتحفظ لجارك فى درب الجماميز حق الجوار »

ففهمت ما أراد ، وقلت : « وهو حقيق بحفظ الجوار »

ثم انتقل الكلام الى تعليم اللغة العربية ، فقلت : ان تحويل التعليم من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم لا يتأتى فى شهر واحد ولا فى سنة واحدة ، لانه خطوة لابد أن تسبقها خطوة أخرى من تخريج المعلمين وتأليف الكتب أو ترجمتها

ووافق ما قلت أن سعدا قد أمر فى تلك السنة نفسها بتعيين المتخرجين من مدرسة المعلمين للتدريس فى المدارس الثانوية ، والابتداء بالتعليم باللغة العربية فى السنة الاولى من تلك المدارس ، ثم فى السنة الثانية

ولاح لى أن « فريد بك » لا يصر كثيرا على قوله فى هذا الموضوع ، ويحيل فيه الى ما يذكره الشيخ عبد العزيز جاويش

ثم حضر الاستاذ وجدى واستأذنت فى الذهاب الى مكتبى ، وانصرف فريد بك بعد قليل

تلاحقت الضربات على ذلك الزعيم الكريم وذهب الاضطهاد الظالم بثروته العريضة ، وهى تقدر يومئذ بمئات الالوف

وغادر الرجل القطر ليستطيع العمل فى حرية وطلاقة ، واستقر به المطاف فى عاصمة الدولة العثمانية

وهنا تتجلى بطولة « فريد » ..

لقد كان «فريد» يناصر الدولة العثمانية وهو فى غنى عنها ، ولعلها هى التى كانت فى حاجة الى مناصرته ... وكان رأيه فى علاقة مصر بالدولة العثمانية ذلك الرأى الذى أعلنه حزبه فى تقريره عن حوادث سنة ١٩٠٧، وهو أولا « استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة فى عام ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ، ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على ، والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد »

وهو أخيرا « بذل الجهد لتقوية علاقة المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية »

ولقد غادر «فريد» وطنه والعداء بينه وبين الخديو عباس على أشد ما يكون العداء. وقد علم وهو فى الآستانة أن العسكريين من رجال الدولة يقصدون بالحملة على مصر فى اثناء الحرب العالمية الأولى أن يغيروا نظام الحكم فى البلاد المصرية ويتعرضوا لحقوقها وحقوق عرشها .. علم هذا وهو فى قبضة أيديهم ، ولعله فى حاجة ماسة الى كل معونة منهم ، ولا ملاذ له من غضبهم فى مصر لانها موصدة أمامه ، ولا فى أوربا لانها تضطرب بأهوال الحرب فى كل بقعة من بقاعها ، فلم يحفل بشىء مما يصيبه من جراء غضبهم ، وراح يعلنهم باستنكاره لخطتهم واحتجاجه عليهم ، وعلق فى عروة كسائه شعار « مصر للمصريين » وقد كان أبغض شعار الى القائمين بالامر فى الآستانة يومذاك !

حدثنى صديقى الفاضل الدكتور حسين همت بك ـ وهو

ممن شهد تلك الايام فى الآستانة ـ ان طلعت باشا أخطر رجال الدولة التركية فى عهده ـ كان يمتعض كلما لمح ذلك الشعار الذى يحمله فـــريد وصحبه ، وكان يعجب لانهم ينكرون على الترك حكم مصر ، وانهم ليتكلمون التركية خيرا مما يتكلمها أهل الآستانة !

ومع هذا ظل فريد وصحبه يحملون شعارهم ، ويعلنون استنكارهم حتى تعذر عليه البقاء فى العاصمة التركية ، فهجرها الى أوربا ليتنقل بين ربوعها على غير هدى ، ويشقى بتلك المعيشة الضنك فى ظلمات تلك الغاشية العالمية ، بغير أمل وبغير عزاء ..

نعم المثل للوطنية الصادقة ذلك الشهيد الكريم ..

رحمه الله ، وخلد ذكراه ..





مصطفى لطفي المنفلوطي

فى فترة من تاريخ ثقافتنا ، وفى أيام لاتتجاوز أيام الحرب العالمية الأولى ، كان السائل يسأل : من أكتب الكتاب فى لغتنا العربية ؟ فيسمع الجواب من الكثرة الغالبة بين قراء تلك الفترة : انهما اثنـــان : الشيخ على يوسف والشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى !.

وربما حرص المجيب على تقديم لقب الشيخ على الاسم، خلافا للعادة فى تداول أسماء المشهورين ..

وكانت عصبية لا شـك فيها ، قد نسميها بالعصـبية الأخوية ، أو العصبيـة المحليـة ، او العصبية الفخرية ؛ ولكنها ـ بأى الاوصاف وصفناها ـ وزنة لازمة لتصحيح التقدير فى موازين الأدب والأدباء ، فلا تصح هذه الموازين ولا تعرف الحقائق التى كمنت زمنا وراء أسـباب الاقبال والاعراض على مدارس الكتابة عنـدنا بغير الوقوف على معنى تلك العصبية

ونسأل : ما معناها ؟

فلا نستطيع أن نقول انها عصبية بين المعممين والمطربشين، لان السيد توفيق البكرى والشيخ عبد العـزيز جاويش والشيخ حفنى ناصف قبل ذلك كانوا من المعممين، ولكنهم لم يحسبوا فى عداد الزمرة التى تجنح اليها تلك العصبية وتخصها بالتنويه والتفضيل

كذلك لا نستطيع ان نقـول انها عصـبية السـبق الى موضوع الكتابة المختـارة ، فان المويلحى الكبير والمويلحى الصغير قد سبقا معا الى الكتابة فى موضوع المقالة الانشائية

والمقامة الادبية ، وكتب كلاهما فى الصحف السياسية كما كتب علي يوسف دائما وكما كتب المنفلوطى أحيانا، ولكنهما لم يحسبا فى عداد تلك الزمرة ، ولم يسمع لكتاب « عيسى بن هشام ذكر بين نماذج الانشاء التى اختارها للتلاميذ مدرسو اللغة العربية كما اختاروا مقالات « النظرات » و « العبرات » و « المختارات » و « مجدولين » و « فى سبيل التاج » ، وكل كتاب ألفه المنفلوطى أو ترجمه بمعونة غيره

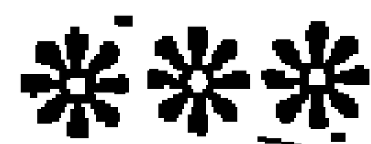
ولم تكن العصبية عصبية المعهد الذى انتمى اليه على يوسف والمنفلوطى، لأنهما أزهريان لم يتما التعليم الأزهرى والمدرسون الذين يزكونهما فى دروس الانشاء او يتشيعون لهما فى «الحزبية الادبية» أكثرهم من خريجى دار العلوم، وبينهم وبين اخوانهم الأزهريين منافسة لا تخفى

انما كانت تلك العصبية فى حقيقتها عصبية المعرفة باللغة الاجنبية والجهل بها ، فهى لا تشمل المطلع على لغة أجنبية ولو كان من أصلاء المعممين كالسيد توفيق البكرى ، وهى لا تستثنى أحدا يجهلها ولو كان من غير المعهد الذى ينتمى اليه المعجبون .. وقد لحق بالكاتبين المعممين كاتب مطربش كان له سهمه فى هذه العصبية لأنه لم يحصل من اللغات قسطا يعتمد عليه فى المطالعة والكتابة ، وهو مصطفى صادق الرافعى خريج المدرسة الابتدائية وربيب الأسرة « المشيخية »

وقد كانت « العصبية اللغوية » لا تخلو من ناحيتها الفكاهية كما هو الشأن فى كل عصبية من قبيلها ، ولكن اصحابها لم ينفردوا بهذه الناحية الفكاهية ، لانهم كانوا يقابلون من الطرف الآخر بناحية تضارعها أو تزيد عليها فى نزعتها المضحكة ، اذ كان « المتفرنجون » يومئذ يزهون

برطانتهم المستعارة زهو الحديث النعمة أو زهو الغنى الذي نسميه « غنى الحرب » وان كان غناه من غيرها ، وقد كان بعض هؤلاء المتفرنجين ينسى لغته ـ لغة الأم كما يقال ـ فى عرض الخطاب فيلوى لسانه بالكلام الدارج فى الانجليزية او الفرنسية ، كأنه يجهل ما يقابله باللغة العربية الفصيحة أو العامية

وكان المعنيون بالادب منهم يبالغون فى اشتراطهم تعلم اللغات لتكوين ملكة الكتابة حتى خلطوا بين القدرة على الكتابة وبين القدرة على توسيع موضوعاتها وتصحيح معلوماتها واختيار مناسباتها العصرية بعد مناسباتها التقليدية ، وما زالت العصبيتان على انفراج بعيد فى الزاوية الى ما قبل الحرب العالمية الثانية بقليل ، ثم أخذت هذه الفرجة شيئا فشيئا فى الاقتراب حتى التقى الخطان أو كادا قبيل هذه الأيام ، لأن دارسى العربية عرفوا اللغات الأجنبية وتعلموها واطلعوا على ثقافتها وعلى المترجم من روائعها ، ودرس « المتفرنجون » آداب شعرائنا وكتابنا الذين سبقوا أيام الحضارة الفرنجية وتقدموها ، فكفكفوا من غلوائهم الأولى وعلموا أن ملكة الكتابة قد توجد على احسنها وأبلغها عند اديب لا يعرف كلمة من اللغات الأوربية



وذات يوم من أيام الحرب العالمية الأولى ، والزاوية المنفرجة آخذة فى التلاقى والاقتراب ، شاءت أزمة الصحافة المعطلة اوالمقيدة أن اشتغل بالتعليم ، ناظرا لمدرسة المؤاساة الاسلامية ومدرسا للادب والترجمة ، ثم مدرسا بالمدرسة الاعدادية الثانوية فمدرسة وادى النيل الثانوية

وعلى صفحات كراسة الانشاء التقيت بالأسلوب

المنفلوطي لأول مرة ، وعنيت بنقده لأول مرة فى دروس التعليم ، قبل عنايتي بنقده فى مجال الثقافة الواسع ببضع سنوات

***

كانت الوصية الأولى لطالب « الانشاء » عند أساتذة اللغة العربية باجماع الآراء : اقرأ كتب المنفلوطي واكتب على منواله

وكانت موضوعات الانشاء كلها تنتهي بالبكاء على بطل من الأبطال المألوفين فى النظرات والعبرات ، وهم كلهم أناس يبكون ويبكى عليهم لانهم مخذولون منكسرون أومضيعون فى ذمم اللئام وقرناء السوء ، وقل منهم من هو مسئول عن خيبته أو قادر على انصاف نفسه والاقتصاص لها ممن يجني عليه، وكان من ديدن التلاميذ اذا كان الموضوع في غير هذه الأغراض أن ينحرفوا به الى عبارة محفوظة يستطردون بعدها الى مناسبة للبكاء والشكوى يسردونها أحيانا بكلماتها المسطورة فى القصة أو المقال

فى ذلك العهد كنت أناهز الخامسة والعشرين ، وكانت قراءاتى المفضلة فى فلسفة الحياة موزعة بين فكرتين تجتمع حولهما جملة الأفكار عن المثل الأعلى للشباب الناظر الى مكانه من الدنيا ومن الناس : وهما فكرة « السوبرمان » للفيلسوف الالماني فردريك نيتشه ، وفكرة البطولة أو عبادة البطولة لتوماس كارليل فيلسوف البريطان الأيقوسيين الذى كان بعض ابناء وطنه يلقبونه بالأيقوسي « المتجرمن » لأن كتابته عن الأدب الألمانى كانت أكثر وأقرب الى الاعجاب من كتابته عن أدب بلاده

وقد كتبت عن نيتشه مقالا فى مجلة « البيان » قبل الحرب العالمية لعله كان أحد المقالات الثلاث أو الأربع الاولى التى كتبت عنه باللغة العربية وتحدثنا كثيرا مع

الشيخ البرقوقى صاحب « البيان » عن كتاب « الابطال » فلم يهدأ حتى عهد الى زميلنا الكبير « محمد السباعى » بترجمته والابتداء به قبل سائر الكتب المختارة للترجمة والتلخيص فى برنامج المجلة

ونشبت الحرب العالمية الاولى بعد قليل ، فلم يكن لقراء الأدب الغربى يومئذ حديث في غير فلسفة «نيتشه» داعية القوة والعظمة عند الألمان ومحرك القوم فى رأى بعض النقاد الى الحرب والمغامرة فى سبيل السيادة على العالمين

ولم أكن قط مؤمنا بفلسفة نيتشه، ولامعجبا بسوبرمانه على صفته المترددة بين أشتات أقواله ودعواته ، فقد كان مثال القوة المحبوبة عندى ذلك البطل القوى الذى يعطى الضعفاء من قوته ولا يأخذ من ضعفهم لنفسه ، مجتمعين كانوا أو متفرقين

ولم يكن بطل كارليل كذلك مثلى الاعلى فى تقدير العظماء وانما كان النفور من استكانة الضعف عندى أقوى من الاعجاب بسطوة البطولة ، ما لم تكن بطولة فداء وزجر للطغاة من الأبطال ، وقد حفزنى التفكير اللاعج فى هذه المسألة — أثناء السنة الاولى من سنوات الحرب — الى تأليف رسالتى عن « مجمع الاحياء » للموازنة بين فلسفة القوة وفلسفة السوبرمان وفلسفة المثل الاخلاقية العليا ، وجعلت ذلك على ألسنة الحيوان من الثعلب والقرد والحمامة والأسد وابن آدم وبنت حواء الى ختام الرسالة بخطاب الطبيعة ، وفى خطاب القرد أقول عن الخير أمام القوة :

ويحسب الخير أنه منذ اهتدى اليه الناس تراجعت القوة وتمردت النفوس على شريعتها ، فأصبح أقوى الاقوياء لا يجرؤ على الاعتداء والجور باسم القوة العمياء ،الا أن يتمحل لها المعاذير ويتذرع لها بسبب من الحق والعدل ، فبطل القول القديم : اعمل ماتستطيع.

وخلفه القول الجديد : اعمل مايحق لك عمله ، وعامل الناس بماتحب أن يعاملوك به .. ولست أعنى ان القوة العمياء قد خضعت للحق كل الخضوع ودانت له فى الصغائر والكبائر فهذا مالا يدعيه الحق وماينبغى للحق أن يدعى ماليس له ، ولكن عنيت أن الناس لايسلمون اليوم بظلمها وان اضطروا الى الخضوع لها ، ولا تقتنع ضمائرهم بشريعتها وان لم تكن لهم حيلة فى تبديلها ، وياضيعة العالم ان سلموا ، وياسوء المنقلب ان اقتنعوا .. اذ ليس وراء ذلك الا أن يسترخى الاقوياء فيفقدوا العزيمة والمضاء ، وينزل الضعفاء عن الحياة بنزولهم عن الرجاء ، فتنعدم القوة الحافزة المجددة بين هؤلاء وهؤلاء ، وينهار سلم النشوء والارتقاء ، الى حضيض الموت والفناء ، فاذكروا ياقوم — أقوياءكم وضعفاءكم — أن التسليم للقوة الغاشمة يفسد القوى منكم والضعيف ، وانه لاشيء يشرف التسليم له الاقوياء كما يشرف الضعفاء غير الحق ، فاتخذوه لكم قبلة واماما ، واجعلوه لكم صاحبا ولزاما ، واذكروا أن العالم لم يسلك طريق هذه الاداب وله ندحة عن سلوكها ، ولم يلجأ اليها وفى وسعه الاستغناء عنها ، لان الطبيعة لاتملك الخيار بين طريقين .. »

ولقد بلغ بى الاشمئزاز من الاستكانة للضعف مبلغ النفور الحسى مما لا يطاق النظر اليه بالاعين أو لا يطاق شمه بالانوف ، وبعض ذلك ظاهر من القصيدة التى نظمتها خلال الحرب العالمية وقلت فيها أوجه الخطاب الى الشباب الضعفاء :

نحوا وجوهكم عنى فقد سئمت
نفسى المقابر فى أسلاخ احياء

فى كل دار شباب ينهضون بها
الى العلا بين جيران واعداء

لا يحفلون أماشوا وهى ناجية
أم أصبحوا طى أرماس واحناء

يعلو بهم ذكر من بادوا ومن لحقوا
وأنتم عار آباء وأبناء

أأنتم بشر ؟ انى برئت اذن
من آدم حين يدعونى وحواء

***

ويتصور القارىء « معلم انشاء » يعالج فى طويته كل

هذا النفور الثائر على أعراض الاستكانة والخور ، ثم يرى أمامه ـ عند جمعه لأول محصول من محاصيل الكراسات الانشائية ـ تلا من تلك الكراسات لا تخلو احداها من ميزاب دمع أو مأتم شجو وأنين ؟

لقد كانت « مظاهرة » ضعف لم أجد ما أقابلها به غير مظاهرة سخرية تصلح لها، أوجاها الى منظر حجرة المطبخ التى تطل عليها الفرقة المدرسية وفيها خزين اللوازم المدخرة لاعداد الطعام من البصل والثوم والأرز والدقيق وما اليها، وكانت المدرسة الاعدادية التى اشتغلت بالتعليم فيها مع صديقى المازنى مدرسة « نصف داخلية » .. أى أنها تقدم طعام الغداء للطلبة ولمن يشاء من المدرسين مع خصم ثمن الوجبات آخر الشهر من المرتب وعليه الزيادة من حساب القهوة أو الشاى أو الأشربة الصيفية

واستدعيت الطباخ الى الغرفة ، وسألته سؤال العارف كما يقال : اعندك بصل صعيدى حار ؟

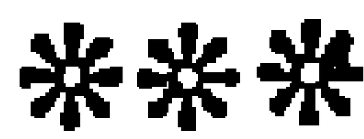
قال الرجل مستغربا : كل البصل الذى عندنا من الصعيد ، ومن الصنف الجيد ، والغالب عليه انه حار شديد الحرارة !.

قلت : حسن .. هذا ما نريد ، فاذا جاءك أحد من تلاميذ هذه الفرقة فاعطه ما يطلب من هذا الصنف ، ولا تتركه يفارقك حتى تذيقه الكفاية منه لمسيل الدموع .. مقدار منديل أو منديلين . وقدم الحساب ـ باسمى ـ الى ضابط المدرسة السيد عبدالحميد ..

وكان السيد عبدالحميد هذا من أظرف الضباط الذين عرفناهم فى المدارس الثانوية ، وهو الذى كنا نسأله عند الحضور صباحا : هل دق الجرس الثانى ؟ فيجيب وهو جاد لا يبتسم : من زمان يا استاذ .. قبل الأول !..

وانصرف الرجل وهو لا يصدق اذنيه ، حتى واجهته بالضابط الظريف وأفهمت هـذا سر « المظاهرة » فتممها من فنونه المعهودة ، ومنها ان البصل لازم للعمل فى حصة الانشاء .. ومنها أن المطبخ قد أصبح ملحقا بالعمـل فى دروس هذا الأستاذ !.. الى آخر ما اخترعته بديهته التى لم تكن تخذله فى مثل هذا المقام

والتفت الى الطلبة قائلا : من كان منكم يخزن فى عينيه فائضا من الدمع فالبصل اولى بمهمة تصريفه من كراسة الانشاء !.



ولا يحسبنى القارىء العصرى الحديث اننى بالغت فى شعورى بافراط المنفلوطى فى البكاء او بافراط فئة من شباب تلك الآونة فى النعومة والفتور ، فاننى لم اقل عن دموع المنفلوطى الا بعض ما رثاه به شوقى وهو يقول من ابيات كثيرة :

من شوه الدنيا اليك فلم تجد
فى الملك غير معـذبين جيـاع

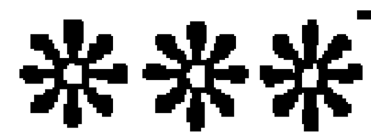
أبكل عين فية ، أو وجهه ، ترى
لمحات دمع أو رسوم دماع ؟

أما الشباب الناعم فقد كان موضوعا مألوفا مطروقا بين موضـوعات التمثيل الفكاهى والاحاديات المسرحيـة « المنولوجات » .. وكان اشـهر المثلين المغنين سـلامة حجازى يخصهم بغير قليل من نغماته ، واحداها قصيدة الدكتور شدودى التى نظمها بعنـوان : « فتى العصر » وقال فى مطلعها :

بالله قل لى يا فتى العصر ماذا تركت لربة الخـدر

فلم تكن سورة « السوبرمانية » ولا البطولة المعبودة هى التى كانت تحضرنى حين رأيت الكراسات أمامى تفيض بكلمات « النظرات » و « العبرات » ، وبعضها منقول بحروفه من مقالات هذا الكتاب أو ذاك

وقد عرفت أسلوب المنفلوطى فى الصحف قبل التقائى بأسلوبه المنقول فى كراسات الانشاء ، ولكننى كنت أتناوله من جانب المطالعة الأدبية العامة ولم أنظر الى الجانب «التربوى» ولا شعرت بالاتصال بينه وبين غاشية الضعف عند ناشئتنا قبل أن أشهد هذا الأثر فى أكبر معاهد التعليم «الأهلى» فى تلك الآونة



وسرعان ما وصلت قصة الدموع والبصل الى السيد المنفلوطى من طريق المطبخ أو طريق الفرقة أو طريق الضابط الظريف .. فقد أشار اليها فى أول لقاء بيننا بعد ذلك بالمكتبة التجارية ، ولم أكن ألقاه كثيرا فى المجالس الخاصة ولا أذكر اننى لقيته فى مجلس خاص غير مرة أو مرتين ببيت الامة ، ولكننى كنت اشترى اكثر كتبى العربية من المكتبة التجارية فألقاه هناك بين حين وآخر ، ويجرى بيننا الحديث كثيرا فى المسائل العامة وقليلا فى المسائل الادبية والثقافية .. وفى هذه المرة لقيته يوقع على بعض الأوراق ، فقال لى بلباقته « البلدية » التى اشتهرت عنه: بسم الله .. أو « بسم اللا » باللهجة الدارجة ، وهى كما يعلم القراء دعوة الى الطعام

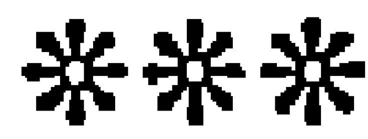
فقلت له سائلا : « بسم اللا » فى التوقيع فقط أو فى قبض الفلوس ؟!

فعاد يقول بتلك اللهجة البلدية ايضا : الحكاية لاتستحق

« مش قد المقام » .. انها أرخص من « البصل ! »

قلت مجاريا له فى سياقه : ولعله أحلى من العسل على حد نداء الاخوان فى منفلوط ..

ولاح لى فى المناقشة الوجيزة التى جرت بينى وبينه ، على أثر ذلك ، أننى لم أنفذ منه الى موضع اقناع فى كل ما ذكرته عن أدبالشكاية أو أدب البكاء ، وأيقنت أنه غير قابل للتحول عن الشعور التقليدى بأن العاطفة هى الرقة وان الرقة هى البكاء ، وكل ما سمعته منه حول هذا المعنى يتلخص فى انه يسأل الله أن يلهمه اعطاء الرحمة حقها واعطاء البأس حقه ، ولعله عنى بذلك تصويره للعاشق المبارز فى قصة « ماجدولين » وتصويره للبطل المغامر فى قصة «فىسبيل التاج» ، ووصاياهالحسنة فيما كتب عن القضية الوطنية ، وهو غير قليل بتوقيع منه أحيانا وبغير توقيع



وكانت أيام الاعياد مجتمع الادباء بمجلس الزعيم الكبير سعد زغلول ، فلقيت المنفلوطى مرة من هذه المرات ومعنا جعفر ولى باشا — وزير الحربيةيومئذ — وهوكثير الاطلاع على منظوم العرب ومنثورها ، وأساتذة لاعرفهم، فجرى الحديث عن أساليب بعض الكتاب فقال سعد : اننى أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فاذا هى جمل مفهومة لا بأس بها فى الصياغة ، ولكننى أتتبع هذه الجمل الى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ولا أعرف مكان أحداها مما تقدمها او لحق بها .. فلعل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق « بالقطاعى » ولا يبيعون بالجملة !

قال الشيخ المنفلوطى : يغلب يا باشا ان يشيع هذا

الأسلوب بين الصحفيين الذين يكلفون ملء الفراغ ، ولا تتيسر لهم المادة فى كل موضوع

فابتسم الباشا وقال للشيخ : « انك يا أستاذ تتكلم عن الصحفيين وهنا واحد منهم ! » ثم التفت الى وقال : «ما رأيك يا فلان ؟ »

قلت : « هو ما يقول الشيخ المنفلوطي مع استدراك طفيف .. »

قال : « ما هو ؟ »

قلت : ان هذا الأسلوب هو أسلوب كل من تصدي لملء فراغ لا يستطيع ملأه سواء كتب فى الصحافة او فى غير الصحافة

وعاد الشيخ المنفلوطى فقال : « أن العقاد لا يحسب من الصحفيين لأنه من الأدباء »

قال الباشا : « أو كذلك ؟ »

ثم تفضل بوصف موجز لكاتب هذه السطور ليس من حقنا ان نرويه

ولسنا نريد أن نختصر الأدب المنفلوطى كله فى تلك الزاوية التى تلاقينا لديها على كراسات الانشاء ، فهكذا عرفناه ويعرفه غيرنا اذا لقيه من هنا وعلى يمينه« سوبرمان » نيتشه و «بطل» كارليل ، وعلى يساره قضية تربوية فى إبان أزمتها

ولكن المنفلوطى فى غير هذه الزاوية ، يعرف بمكانته الادبية العامة .. فلا يعرف له نظير بين اعلام الادباء الناثرين من مطلع النهضة الكتابية قبل مولده الى ما بعد وفاته ، فليس بين أدبائنا الناثرين من استطاع ان يقرب بين أسلوب الانشاء واسلوب الكتابة كما استطاع صاحب

«النظرات» و «العبرات» ، فربما ذهب القصد فى الكتابة بجمال الانشاء فى اساليب الناثرين المجيدين ، وربما ذهب الاسلوب «الانشائى» الجميل بالمعنى المقصود فى كتابة أدباء الفكر والتعبير ، ولكن المنفلوطي ــ قبل غيره ــ هو الذى قارب بين الجمال والصحة على نسقه الفصيح فى سهولة لفظ ووضوح معنى وسلاسة نغم ، وهو لا يبلغ مبلغ التبرج بالصقل والزينة ، ولا يترك التبرج والزينة ترك المتقشف فى مسبوح النساك ، وليس لدروس الانشاء نموذج اصلح من هذا النموذج من وجهته الفنية ، وعن أدبه هذا اقول فى بعض فصول « المراجعات » :

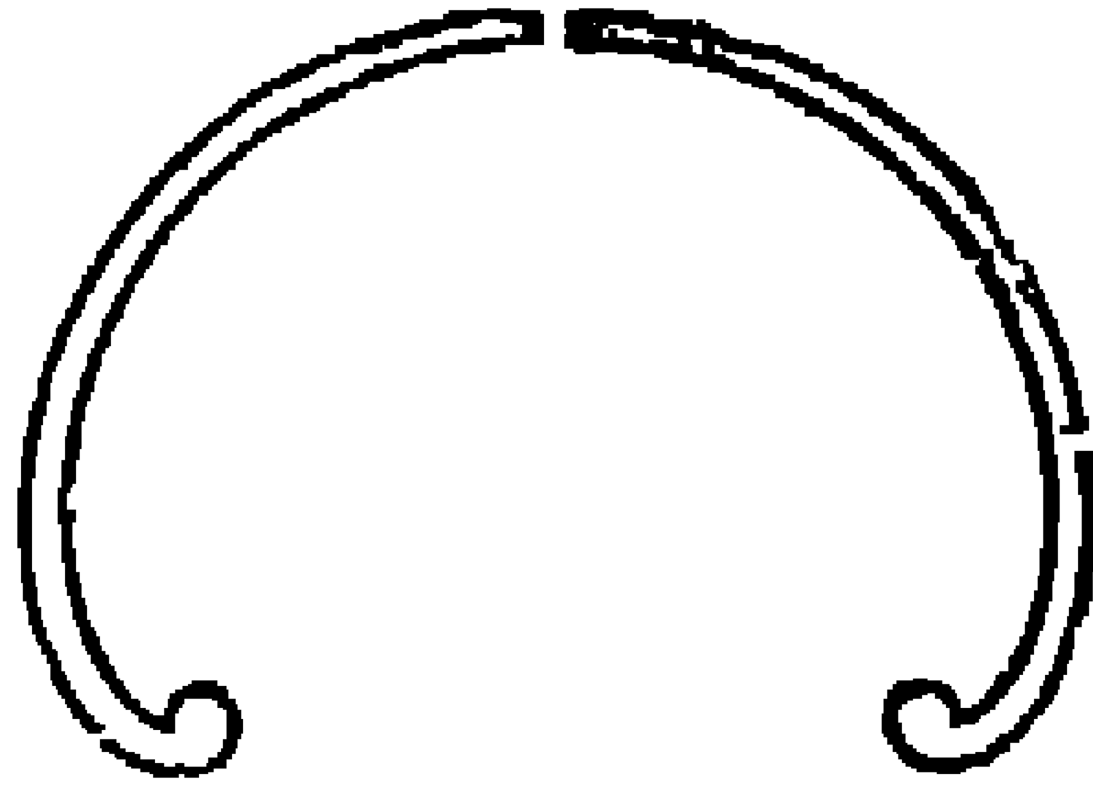
« انه احد الذين ادخلوا المعنى والقصد فى الانشاء العربى ، بعد ان ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد .. وكانت الكتابة قبل جيله قوالب محفوظة تنقل فى كل رسالة .. وكانت اغراض الكتابة كخطب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة القائها ..

وقد اطلعت على مجموعة وافية مما كتب المنفلوطى للفن وما كتب بغير كلفة ، فكان لكتابته على كلا النمطين المتباعدين طابع الرائد المجاهد فى أمثال هذه الرسالة : رسالة التقريب بين حفاوة الانشاء ورخصة الخطاب واطراح الكلفة .

ويتمثل طابع الرائد فى تباعد الشقة بين موضع الحفاوة وموضع الرخصة مما يكتب للفن وما يكتب لخاصة أمره .. فكان المنفلوطى « يدبج » مقالاته الفنية فلا يفوته موضع العناية بكل كلمة وكل فاصلة ، وكان يكتب رسائله لصحبه ــ ومنهم المتعلمون بل المعلمون ــ فلا يبالى أن ترد فيها أمثال هذه التعبيرات الدارجة : « فيدونى تلغرافيا » أو « مرسول لحضرتكم » أو « تأملوا الاسطوانات حتى لا تكون مستعملة ثم ارسلوها فى البوسطة .. » أو « فهموها أن ترسل شهادة المدرسة المتخرجة فيها » .. او « أهديك سلامى » أو « تلامذتك بخير يسلمن عليك وأرجو تبليغ سلامى لحضرات الافاضل اخوانك المعلمين .. » .

وكلها من شواهد النظر الى الكتابة الفنية كأنما هي كتابة «الاستعداد والحفاوة » وما عدا ذلك من كتابة الاغراض الخاصة فرخصة العرف فيها أولى من كلفة الاستعداد ، أو كلفة « السمعة والحشمة ! »

وتعيد الينا قدرة المنفلوطى على تبسيط الأسلوب الجميل كلمة « أناتول فرانس » التى يقول فيها : « ان البساطة الجميلة هى القدرة على اخفاء الجهد والكلفة ، وان النور الابيض بسيط فى النظر ولكنه أوفر الألوان تركيبا لأنه « توليفة من جميع الألوان »





محمد المويلحي

كانت للحياة الادبية فى القرن الماضى مؤامراتها ودسائسها التى تشبه المؤامرات والدسائس فى حياة القصور الملكية ، والصواب أن مؤامرات الادب ودسائسه كانت فى باطن أمرها فرعا من فروع المؤامرات المعهودة فى كل حاشية ملكية ، لان الادباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية الامير ، وكان للقصر اشياع ودعاة بين أصحاب الاقلام كما كانت له خصوماته معهم على حسب الظروف والعلاقات التى تتغير بينهم جميعا من حين الى حين . وربما كان حامل قلم عونا على حامل قلم آخر مرضاة للسياسة أو مرضاة للمنافسة المعهودة بين ابناء الصناعة

وكان لمحمد المويلحى صاحب « عيسى بن هشام » نصيب واف من مؤامرات القصور ؛ ولعله استحقها بقدم الصلة بين اسرته ، وبين الاسرة الخديوية من عهد مؤسسها محمد على الكبير ؛ وقد عاش أبوه ابراهيم فى معمعان سياسة القصور بين عابدين بالقاهرة ويلدز بالآستانة ، وكان صاحب القلم الوحيد الذى اصطحبه الخديو اسماعيل الى منفاه ، سفيرا له فى علاقاته بعد المنفى بالسلطان عبد الحميد

ولم يسلم المويلحيان معا من مؤامرات عابدين ، ولم يسلم عابدين ولا يلدز معا من مؤامرات المويلحى الكبير على الخصوص ؛ وكان حامل القلم الذى اختارته حاشية عابدين للنكاية بالمويلحيين صحفيا من أقرب الناس اليهما واشدهم اعجابا بهما ومحاكاة لهما فى أسلوبه ، وهو صاحب « الصاعقة » احمد فؤاد ؛ وما كان يرجو لصاعقته

حظا في ميدان الصحافة أعظم من مقارنة « مصباح الشرق » صحيفة المويلحيين في هذا الميدان

وقد كانت وقيعة « أحمد فؤاد » بالمويلحي الكبير او انا لا تحصى من الشائعات والاراجيف و « القفشات » التي كان ينشرها على الاندية والقهوات ، وكانت وقيعته الكبرى بالمويلحي الصغير أنه كان يجرده من ملكة الكتابة الادبية ويزعم ان « عيسى بن هشام » من قلم ابيه ، وأنه كان يرى مسودات المقالات بخطه في مطبعة المصباح !.. وكانت وقيعته بأبيه انه طامع في امارة الشعر بقصر الامير

اما المويلحي ابراهيم ، فكان اكثر من ند « لاحمد فؤاد » في ألوان الوقيعة ، اذ كان يفل الحديد بالحديد .. ويكيل لتلميذه المتمرد بالكيل الذي يكيل به ذلك التلميذ ، ويزيد

وقد سكت عنه حتى أوهمه « الصلح والرضا » ، ثم أوفده برسالة الى الاستانة من تلك الرسائل التي كانت تغدق الهيل والهيلمان على حامليها بين عابدين ويلدز وبين يلدز وعابدين ، ثم بادر فأبلغ الخبر الى مدير « الشحنة » بالآستانة فتلقى هذا صاحبنا احمد فؤاد على « اسكلة الميناء » وانتزع منه أوراقه انتزاعا ، فاذا هي سبيله الى السجن بدلا من دار الضيافة !.

واما المويلحي محمد ، فقد كان على مشابهته لابيه في كثير من خصاله أقرب الى عزلة التصوف وترفع الوجاهة والامارة ، فلم يكن يعنيه من احاديث أحمد فؤاد وامثاله الا أن يعقب عليها بنكتة لاذعة أو سخرية واسعة ، ونسميها بالسخرية الواسعة لانها كانت تتسع حتى تشمل السخرية بالشهرة الادبية نفسها .. فماذا لو لم يكن المويلحي الصغير كاتب عيسى بن هشام او كاتبا على الاطلاق ؟ ذلك خطب هين كما كان المويلحي الصغير يقول ، ولم يكن في الواقع

يبالغ فى تكلف السخرية بالشهرة الادبية ، لانه كان يرتضى لنفسه منزلة أحب اليه وأرفع عنده من منزلة الاديب الصحفى المشهور ، وهى منزلة الوجيه الحكيم العزوف عن الدنيا والناس

ولقد شاعت وقيعة أحمد فؤاد فى حينها ، فلم نكد نسمع احدا يتكلم عن « حديث عيسى » الا وهو يتقبلها أو يتساءل متشككا : أحقا كتبه المويلحى الصغير ولم يكتبه له أبوه ؟

وكنا نحن نعلم من اخبار « محمد المويلحى » أنه أوفر أطلاعا من أبيه .. وندرك الفارق البعيد بين ملكتهالادبية الناقدة وملكة أبيه المرتجلة ، ونعرف خلال سطوره مدى اطلاعه على كتب اليونان وكتب الاوربيين المتأخرين ، مما توفر عليه ولم يتوفر عليه أبوه من قبله .. ولا بعداشتراكه معه فى حياته الادبية ، فكنا نعجب لشيوع تلك الوقيعة ولا نستطيع أن نفسره بغير هوىالنفوس لاستماعالوشايات والاغترار فى تفرقتهم بين ملكة الاب وملكة الابن بالتفرقة بين اسم المويلحى الكبير ،.والمويلحى الصغير .

ولكننا لقينا صاحب « عيسى بن هشام » بعد العلم به من طريق المطالعة وطريق السماع ، فعرفنا سببا أدعى من ذلك السبب لرواج الوقيعة التى اذاعها صاحب « الصاعقة » ، فقد كان « محمد المويلحى » أصدق مثل رأيناه لقول القائل : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه »

.. حتى كنا نروى المثل بعد ذلك : « سماعك بالمويلحىخير من أن تراه » وقد نزيد عليه المويلحى الصغير توكيدا للنسخة الجديدة من ذلك المثل القديم !

كان صديقنا المازنى يقول عن مشهور منمشاهيرالشرق الحديث بغير حق : انك لاتحتاج الى أكثر من خمسدقائق

فى محادثته لتنزل به الى مكانه من الاحتقار

والمويلحى الصغير تراه خمس دقائق ، فلا تحتقره ولا تشعر من سمته ورصانته أنه قابل للاحتقار .. ولكنك تقدر له ماشئت من الصناعات الموقرة غير صناعة القلم او صناعة الكتابة الفنية ، فاذا تكلم زادك ايمانا بأنه من ابعد خلق الله عن الكتابة ، ولاسيما كتابة اللباقة الفكاهية، لانه يتعثر فى كلامه وتعترضه فأفأة قد تطول حتى تضطره الى اختتام الكلام والاشاحة بوجهه علامة الضجر من الحديث أو الرغبة فى السكوت ، وانما هو استحياء من تلك العثرات التى تعترضه احيانا خلال الحديث

رأيته أول مرة ـ كما رأيته آخر مرة ـ بكساء « البونجور » الذى لايغيره فى الشتاء ولا فى الصيف ، وان غيره من لون الى لون ومن نسيج الى نسيج ..

ورأيته بعد المقابلة الاولي أسابيع متوالية لم أكن أسمع منه خلالها غير الكلمات التى يفوه بها رئيس العمل وهو يوقع الاوراق الرسمية أو يعيدها للمراجعة والاستيفاء ؛ ولكننى كنت فى كل مقابلة من تلك المقابلات القصار أخرج من مكتبه وقد ازددت علما بسرعة خاطره وسدادملاحظته وقدرته على ايجاز القول والكتابة بما يفيد على البديهة ، بغير كلفة ولا اطالة روية

***

لقيت « محمد المويلحى » لاول مرة فى ديوان الاوقاف وهو يومئذ مدير قسم الادارة ، ويتبعه تحرير مجلس الديوان الاعلى ومجلسه الآخر الذى كان يسمى بمجلس الادارة أو المجلس الادارى ، ومن أقلامه قلم «السكرتارية» وهو يومئذ ندوة المنشئين والمترجمين والادباءوالمحررين ، يعملون « رسميا » فى اعداد المذكرات التى ترفع الى

المجلسين وتهذيب أسلوبها وتصحيح لغتها ، ولا يفرغ منهم لهذا العمل فى الواقع غير اثنين او ثلاثة ، مع الاستعانة ــ قليلا أو كثيرا ــ بمعارف الادباء اللغوية ، اذا التبس عليهم الامر فى صحة كلمة أو سلامة أسلوب ، وقد كان فى قلم السكرتارية من المنشئين والشعراء والمترجمين والمشتغلين بالادب والتحرير رهط منظور اليه فى الديوان كله من طراز عبد العزيز البشرى ، وعبد الحليم المصرى ، وأحمد الكاشف ، وحسين الجمل ، وحسن الدرس ،وامين الدولة ، ومحمد فكرى ، وغيرهم فئة قليلة من الكتاب الديوانيين غير معروفين بين أكثر الموظفين ، وغير هؤلاء رهط اخر فى الديوان ولكن فى غير قلم السكرتارية ، نذكر منهم صديقينا الشاعرين المجيدين على شنوقى ومحمود عماد

وكانت كتابتى الادبية ــ السياسية ــ طريقى الى وظائف الديوان ، والفضل فى ذلك لخصلة من خصال الفضول المحمود عند صديقنا الاستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة « البيان » طيب الله ثراه .

كان من دابه ان يطمئن الى تحرير مجلته باهدائها الى شيوخ الادب والصحافة وسؤالهم عن موضوعاتها كلما زارهم أو زاروه فى مكتب المجلة ، وكان ممن يسألهم فى ذلك حافظ عوض ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد المويلحى ، وهو قليل الزيارة ، لايزار فى غير مكتبه بالديوان . فلاحظ حافظ عوض ان اسم الكتاب الذى أترجم بعض فصوله لايطابق اصله باللغة الانجليزية وهو « الاكاذيب المتفق عليها ، فى مدنيتنا » والمجلة تذكره باسم « الاكاذيب المقررة فى مدنيتنا الحاضرة »

فزاد انتقاده من ثقة الشيخ بكاتب هذه السطور ،لاننى ترجمت العنوان كما ذكره الاستاذ حافظ ، ولكنه هو

اقترح تسجيع العنوان لانه اجمل بعناوين الكتب ، فلما جاءه النقد من بعيد ــ وهو على عادته سريع التصديق ــ قال لى انه لن يرفض رأيا لى مطاوعة لرأى السجعة بعد الآن .. !

وكنت أسمع من البرقوقى غير مرة انه يحفل برأى مصطفى صادق الرافعى فى البلاغة العربية ، ولكنه لا يحفل به ، بل يرفضه ، فى أذواق الادب الحديث ومباحثه الفكرية ، وقد أنحى الرافعى على « ماكس نوردو » صاحب الكتاب وعلى كاتب هذه السطور مترجم فصوله فكانت هذه الشهادة المعكوسة خيرا من الثناء فى تقدير الشيخ

ثم سأل المويلحى ــ وهو يعلم عنه كثرة الاطلاع على امثال هذه المؤلفات باللغات الاوزبية ــ فعاد المويلحى يسأله : بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شيء !

قال : اتراه يعيش على شيء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ اننى لا أنتمى الى السيد حسن موسى العقاد المشهور ، واننى اعيش بالقليل مما يردنى من أهلى وبالقليل من أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة ، فقال المويلحى مبتسما : انه أولى بالوظيفة من أكثر « التنابلة » عندنا ، فشجعنى ما سمعت على طلب الوظيفة فى الديوان ، فطلبتها فأجيب طلبى لساعته ، بغير امتحان وبدأت العمل فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية وهى وظيفة من اخطر وظائف الديوان فى تلك الفترة ، قبيل تحويل الديوان الى وزارة ذات « ميزانية » ملحقة بميزانية الدولة

وتتابعت المناسبات التى كانت تدعونى الى مراجعة

« المدير » فى بعض الاوراق ، فلا أذكر اننى سمعت منه حديثا غير الذى يصدر من « مدير الادارة » وهو يملى توقيعاته ويوجه مرءوسيه ، الا مرة واحدة كان الحديث فيها دائرا بينه وبين بعض زواره حول مسألة تتصل بالسياسة وطلب الدستور ، فجرى ذكر الفيلسوف « هربرت سبنسر » وعلمت من اشارته الوجيزة اليه انه كان على الما م بكتابه عن « الانسان والدولة »

على أن الاحاديث التى تتعاقب عن مسائل فنية تتعلق بتحرير المذكرات واملاء التوقيعات لاتخلو بطبيعتها من دلالة على مبلغ اقتدار الرئيس الادارى فى فن الكتابة الادبية ، وكل ما استحضره اليوم من اشارات المدير المجملة ، وتصحيحاته العاجلة ، وتوقيعاته المبرمة ، أنهامن ايحاء «معلم» فى صناعة القلم على هينة وفي غير كلفةولامشقة .. فكان على أناته فى الحديث يملى التوقيع المصحح للعبارة الرسمية فلا يتوقف فى الاملاء ، ولا ينسى ضرورة التوفيق بين العرف الديوانى وبين العبارة العربية الفصيحة ولا يبدو عليه انه ينتقل من الارتجال الى الروية وهو يمضى فى املائه على من حوله .. وقد يتعدد هذا الاملاء فى وقت واحد

ومما روجع فيه حكمه الفنى ــ والديوانى معا ــ كلمة طال عليها الخلاف بين انصار العرف الديوانى وانصار الابتكار والتجديد فى أساليب الموظفين .. فقد كان المألوف بعد اقرار المذكرة أن تذيل بكلمات قليلة لاتتغير لتوقيع المدير عليها ، وهى : « محول على مجلس الادارة » ، أو « محول على المجلس الاعلى ! » ..

وخطر لاديب من ادباء السكرتارية ان يخرج على هذه الوتيرةحبا للتصرف الذى يليق بأمثالهوانفة من «التقليد» الذى يلتزمه الموظف العتيق ! فذيل المذكرات المعروضة

على الجلسة كلها بكلمة « محال على المجلس » ولم يذكر صفته اكتفاء بعنوان الديباجة .. واحتكم المختلفون الى المدير ، فكانت احدى الفتاوي التي ظهر فيها صاحب « عيسى بن هشام » من وراء صاحب العزة البيك المدير

قال المويلحي : الحق انني لا ارى صيغة « التحويل » الا ذكرت محطة باب الحديد ، وذكرت « محولجى » الرصيف !

ولا بأس بصيغة « محال » بدلا من صيغة « التحويل» فهي صحيحة مليحة .. ولكن يخشى اذا قيل «محال على المجلس» ان يفهم المجلس انها مستحيلة عليه .. وتبتعد هذه الشبهة اذا قيل « محال اليه » .

ثم سأل : ولماذا لا يذكر اسم المجلس الذى تحال اليه ؟

فقال صاحب التعديل : لانه معروف من ديباجة العنوان ...

فحكمت « النكتة » حكمها على صاحب « عيسى بن هشام » وقال للاديب المتحذلق : وهل تكتب على ظرف الجواب « ملحق بما تقدم » بدلا من العنوان السابق فيما تقدم من الجوابات ؟ .. ان الوثائق الرسمية لا تعرف الملل من التكرار ، فاكتبوا اسم المجلس كاملا فى ذيل كل مذكرة ولا « تدوشونا » بمشكلة « محلول ومحال » فى جلسة اخرى فلا حرج من تكرار صحيح فى أمثال هذه الاوراق !

***

وربما لمحنا صاحب « عيسى بن هشام » قبل صاحب العزة المدير فى هذه الملاحظة الديوانية ، فمنها نلمح ذوقه فى اجتناب ما يتحرى اجتنابه من الكلمات المطروقة ،

وتلك على الاكثر كلمات اللغة الفصحى التى تسرى الى اللهجة العامية فتجرى على ألسنة الناس مجرى العبارات التى يختلط فيها الابتذال بالافصاح ، ثم تتلبس — مع تداعى الخواطر — بكلمات معلقة بأحاديث السوق او احاديث الصناعة اليومية ، واظهرها هنا مادة التحول الفصحى التى « تحولت » مع الاستخدام الحديث الى تحويلة الرصيف والى اقافية « المحوَلجى » على حد التعبير الدارج بين « شخصيات » عيسى بن هشام

وانك لترجع الى كتابات محمد المويلحى ، فلا تلبث أن تلاحظ اذا التفت الى هذه العادة القلمية عنده انه اقل كتاب عصره اساغة للكلمات المطروقة من هذا القبيل الا على سبيل النكتة والدعابة .. وقد كانت هذه الكلمات المطروقة تتخلل المقالات فى عصره بالعشرات والمئات ، ولكنك تحسبها فى كتابات المويلحى فلا تراها تزيد على أصابع اليدين .. وقد تعمدت أن اراجعها فى كتابه « علاج النفس » ، وهو فى اكثر من مائتى صفحة ، فوجدت منها قوله : « انصرافهم بكليتهم نحو المستقبل » ، او قوله : « فترى الواحد منا اذا اضطجع فوق فراشه » ، أو قوله : « ان الفضل فيها بينهم ليس للشخص » الى عبارات كهذه لا يخطر للقارىء أنها من قبيل اللفظ الدارج المطروق الا اذا علم انها قد سلكت سبيلها الى الشارع والسوق

وربما كان الابتذال ابغض شىء الى الرجل فى كل خصلة من خصاله ، وفى كل شاغل من شواغل حياته ، فمن مراقبتى لمسلكه المطبوع قرابة سنتين استطيع أن أفهم انه كان — كما تقدم — يرتضى لنفسه سمتا واحدا لا يعلوه عنده سمت يظهر به الانسان بين الناس ، وذلك هو سمت السرى الحكيم العزوف عن مواطن الزحام ،

فهو عنده أعز واكرم من سمت الرئيس الملقب والاديب المشهور ، وهو فى طبيعته وراثة قد زادها تمكنا منـــه انه لم يرث من أبيه طلاقة اللسان التى كانت تحبب اليه غشيان المجلس او مناوشة الجلســـاء بالكلام كما كان يناوشهم بالقلم على صفحات الاوراق

وروى عن أبيه انه مر بدكان تاجر كبير ـ وهو راكبـ فحياه فلم ينهض لرد تحيته ودعوته الى النزول لديه ، فمضى قليلا ثم عادالى التاجر يسأله عما عنده من فناجين القهوة حتى عرض عليه التاجر فنجانا ثمنه عشرة مليمات فألقاه من يده على الارض فانكسر ، وناول التاجر قرشا وهو يقول ويهم بالانصراف : ان من يقيمه ويقعده قرش لايحق له ان يترفع عن رد التحية على كائن من كان

وقد كان عزوف محمد اشد من عزوف ابيه ، وكان يلزم داره شهورا لايفارقها اذا صفرت يده من المال الذى يجارى به أقرانه فى مجال الانفاق خارج الدار ، واستقال من وظيفته بديوان الاوقاف بعد اعلان الحرب العالميـة الاولى ـ وهو لا يستغنى عن مرتب وظيفته ـ لانه احس أن أعوان السلطان الجديد يغضون من قدره ولا يعاملونه بما هو أهله ، وعكف على داره بقية حياته لا يبرحهـــا الا لرياضة أو عمل يلجئه الى الخروج

وفى اعتقادنا ان هـــذه الانفة انما كانت وليدة اعتزازه بنسبه وعقله قبـــل اعتزازه بأدبه وعلمه ، وان مواجهـة أقرانه بهذه الانفة قد أصبحت عدته الكبرى لحفظ مكانته بالكرامة الملحوظة ، بعـــد أن زالت ثروة البيت التى كانت تغنيه ـ لو بقيت ـ عن احضار هذه المناظرة فى ذهنه ، بين اناس من ذوى البيوتات اقدر منه على مظهر البـــذخ والجاه

واشد ما تكون هذه المنـاظرة حين يتنافس أبنـاء « الذوات » من الطبقتين المتقاربتين فى ذلك العهد : طبقة « الذوات » أبناء العرب ، وطبقة الذوات « أبناء الترك » أو طبقة الوجاهة « البلدية » وطبقة الوجاهة « ألا تركة » .. فانك لا تقلب صفحتين من حديث « عيسى بن هشام » الا لمست فيهـا هواه من أبنـاء البلد وسخريته ـ بل استجهاله واستحماقه ـ لنفخة الذوات من الطبقة الاخرى، وهو لا يعفى أبناء البلد من دعابته وغمزه ، ولكنه يداعبهم ويغمزهم كما يفعل أبناء الاسرة الواحـدة فى مناوشـات الدار بغير زراية ولا نقمة ، وعلى غير هذا النحو كان منحاه اذا كتب عن الآخرين

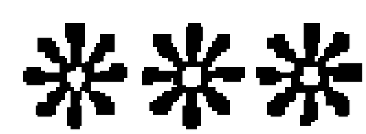
بل نحسب انه لم يكن يألف موضـوعا للكتـابة الا ما يحسب من موضوعات الناقد المترفع أو المشرف المتبسط فى سـاعات فراغه ، فكل ما كتبه فى « حـديث عيسى بن هشام » فهو نظرات الى الدنيا والناس من هذه الشرفة المطلة عليها وعليهم ، وكل ما اتخذه من أدوار هذا النقـد الاجتماعى ، فانمـا هو دور « فرجة » لا دور صـناعة قلمية ، مهما يبلغ من شأنها فما بلغ فى عرف مناظريه من ذوات « الا تركة » أن تقارن منزلة الوجاهة والرئاسة

وهذه العصبية بين « ذوات » البلد وذوات « الا تركة » هى التى ضمته مع أسرته جميعا الى معسـكر الثـوار وأبعدته عن معسكر « الخديو » وأعوانه من الجراكسـة وخدام الدولة ، وقـد كان بيت المويلحى أقرب الى بيت محمد على منذ قيامه فى الحكم من أكثر البيوتات الوطنية

ولما فرغ من نشر « عيسى بن هشـام » لم يعمد الى اتمامه و « تقفيله » كما يقال فى اصطلاح التـأليف .. ولكنه عمـد الى موضـوع آخـر من موضوعات الحكمة

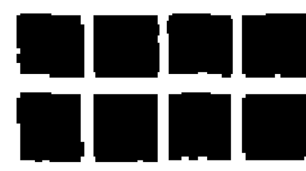
والتهذيب تليق بتلك الشرفة التى يستوى عليها الناقد الاجتماعى .. فألف كتابه « علاج النفس » الذى طبع بعد وفاته ، وساقه مســاق الواعظ الحكيم للمتأدب المستمع ، وان كان قد تلطف فى تقديمه فقال انه ليس « فى منزلة أوامر الطبيب للمريض بل فى منزلة دواء مجرب من مريض الى مريض ومن عاجز مستزيد الى طالب مستفيد »

ولا نرى أن الامر فى ليـاذه بتلك « الشرفة » كان أمر وجاهة وسمعة وكفى ، فانه كان فى لبابه اقرب الى قداسة الدين لمـا فيه من حفظ أمانة الانتساب الى خاتم النبيين وسيد المرسلين ، اذ كان بيت المويلحى ينتسب الى الحسين رضى الله عنه ، وكانت له بهذا النسب سيادة مرعية في بلاد العرب ، وولاية على محلة «المويلح» لا ينساها خلفاؤه الأدباء في عهد المناظرة والمنازعة بين سلالة العرب الاقدمين ، وسلالة الترك المحدثين



ان المويلحى الصغير قد أصبح أكبر المويلحيين فى العصر الحاضر ، وانما يذكر « بحديث عيسى » وقلما يذكر بكتابه الاخر عن « علاج النفس » ، وهو على هذا طبقة فى بابه لا تقصر على طبقة عيسى بن هشام فى بابه ، ولكن مزية هذا أنه فاتحة منفردة فى الادب العربى الحديث تذكر بها حقبة كاملة سجلها فأبدع فى صـدق تسجيله وحسن تمثيله ، وكان فيها الكفاية لذكر كاتبها بين الرعيل الاول من رواد عصره وما بعد عصره من عصور الآداب العربية المقبلة ، وسيظل هذا الكتاب نموذجا يقتدى به من يطلب التجديد، ويتعلم الابتداء به على نهجه القويم . فهو مثال من النقد الاجتماعى يضارع ابلغ المثل فى الآداب الاوربية المعاصرة ، ولكن المؤلف لم يقطعه مبتورا من جذوره بموطنه ليغرسه

غريبا بين مواطن الضاد على غير منبته .. بل تناول جذور المقامة العربية فأقامه عليها وأحسن تناولها واقامتها لفظا ومعنى ، فهو مقامة يرتضيها « بديع الزمان » ومنهج من النقد العصرى يرتضيه « سويفت » و « لى هنت » و « هايتى » و « أناتول فرانس »




وراء
التراجم
والسير

- ١ -

فى حديثنا عن محمد المويلحى صاحب عيسى بن هشام ، أشرنا الى دسائس الادب ، بل ودسائس القصر ، فى عصره .. وقلنا :

« أن مؤامرات الادب ودسائسه كانت فى باطن أمرها فرعا من فروع المؤامرات المعهودة فى كل حاشية ملكية ، لان الادباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية الامير »

واتفق أن نشرت احدى المجلات الادبية قبل كتابة الحديث ـ فى باب « الفكر والأدب قبل ستين سنة » ـ نبذتين منقولتين عن صحيفة « مصباح الشرق » وصحيفة «الصاعقة» لهما اتصال وثيق بتلك المؤامرات ، وفيهما دلالة على محور المؤامرات التى كانت تدبر فى القصر وتتصل بالكتاب والادباء ممن تحدثنا عنهم ، وهم على يوسف ، ومصطفى كامل ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، والبكرى ، ومحمد المويلحى ، ولا يستطيع ناقد خالى الذهن مما وراء تراجمهم من خفايا القصور أن يفهم طبيعة الحملات الأدبية والمناوشات القلمية ، فضلا عن حملات السياسة ومناوشاتها التى يشتركون فيها ، ومن هنا وجب أن نكشف النقاب عما وراء تاريخ الادب من تاريخ القصر فى تلك الفترة

جاء فى النبذة التى نقلت عن « مصباح الشرق » بعنوان

حادثة دراكتوس :

« اشتغل صاحب المؤيد طول الاسبوع بالكتابة عن حادثة دراكتوس فكتب ما يلى : « ساءنا أن أحد أبناء الذوات المشهورين بالذكاء والنباهة قد استعمل الشدة والقسوة مع محرر احدى الجرائد الاسبوعية المشهورة بحسن الكتابة والتوقيع ، والنابغ فى الانتقادات الشخصية ، فضربه على خده وصفعه على قفاه .. ولا صحة لما قيل من أنه جره بيده من اذنه بلا جريرة ولا ذنب سوى أن المضروب رحب بالضارب عند دخوله حانة دراكتوس قائلا مازحا : أهلا بالفاتن او الفتان ».

ثم عقب محرر « المصباح » على ذلك قائلا :

« ثم كتب ــ المؤيد ــ غير ذلك فى عدد ٥ نوفمبر ما يضيق المقام عن نقله لطوله .. وقد حدثت لنا حادثة كنا نظنها من الامور الخاصة . أنا محمد المويلحى اقر واعترف بأننى كنت فى دكان دراكتوس عشية يوم السبت ٢٥ من شهر اكتوبر مع جماعة من الاصحاب ، وبينما أنا جالس اذ دخل محمد بك نشأت وقال لى : بونسوار مويلحى ! فأجبته كعادتى معه مازحا : أهلا بالفتنى ! وهى تعريب الكلمة التى يطلقها عليه أصحابه بالفرنسية Petit interegant فما كان منه الا أن ضربنى بكفه على وجهى فلم أتحرك من مكانى ولم تتغير جلستى ، وقلت له : ما زدت أن فعلت ما يمكن لاى حمار فى الطريق أن يفعله مع أكبر كبير » الخ الخ

***

فهذه القصة احدى قصص ثلاث لها سلسلة من العناوين المتقاربة : عام الكف ، وعام الكفء ، وعام الكفر ، محورها هم : محمد المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل ، وبواعثها من دسائس القصر رغبة الحاشية فى

الاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية فى البلاد ، ولا سيما الرئاسات التى لها اشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ، وتقترن بها منافسة أصحاب الاقلام على مركز شاعر الامير ، وكاتب الصحيفة السيارة التى تعتبر لسان حال الامير

ولقد كان محمد المويلحى مرشحا للعمل الصحفى الذى يمثل سياسة الامير ، ويقوم مقام لسان الحال بالنسبة اليه .. وكان يعين أباه على طموحه الى مركز شاعر الامير ، فكان كلاهما منافسا خطيرا للشيخ على يوسف فى عالم الكتابة السياسية والمنادمة الشخصية للامير فى مجالسه الخاصة ، وهما أكتب من الشيخ على من الوجهة الادبية وأوسع ثقافة فى اللغة العربية واللغات الاجنبية ، وأقدم عهدا بالاتصال الوثيق بالاسرة الخديوية التى صاحبتها اسرة المويلحى منذ عهد مؤسسها ، ورفع شأنها عند هذه الاسرة انتساب المويلحيين لآل البيت النبوى نسبة اثبت من تلك التى ادعاها صاحب المؤيد بعد ذلك عندما اراد الخديو عباس ترشيحه لمشيخة السادات الوفائية ، ومهدوا لذلك بمصاهرة الشيخ على يوسف لهذا البيت على الرغم من عميده السيد عبد الخالق ، مما انتهى به الامر الى قضية الزوجية المشهورة وعزل الخديو للشيخ احمد ابى خطوة قاضى المحكمة الشرعية التى حكمت بالغاء الزواج ، وتعيين الشيخ الرافعى الذى كان يأوى السيدة صفية فى بيته بعد صدور القرار بالفصل بين الزوجين خلفا للاستاذ الامام

فما هو الا ان سمع الشيخ على يوسف بخبر اللطمة التى أصابت محمد المويلحى حتى فتح لاخبارها وتفصيلاتها صدر صحيفته ، وحرص على تسمية المكان الذى وقع فيه الحادث باسم « الحانة » وتحريف الكلمة التى قالها

المويلحى لتظهر للسامعين بها كأنها من لغة المغازلة ، وفى كلا الامرين مايعطل المويلحى عن الترشيح لمقام لسان الحال ومقام المشيخة الصوفية ، ولم يحفل المويلحى بالرد على « المؤيد » الا ليقول ان الحادث وقع فى « دكان » لا فى حانة ، وان الكلمة التى فاه بها هى كلمة « الفتنى » لاكلمة الفتان »..

وسمى المؤيد العام كله باسم عام الكف ، والح على ذكر الحان فى المنظومات الشعرية التى كانت تنشر تحت هذا العنوان ، ومنها :

يا صريع الاكف صـــدغك أمسى
خلقـا مثل طيلسان بن حـــرب
انت فى الحـــان فى أمان وســلم
وهو فى معمعان حـــرب وضرب

ومنها :

لا تدخل الحـان والصـناع ثائرة
حتى تقـام حواليك المتـاريس

والح الشيخ كذلك على ذكر شهر الصـيام فى ابان المعمعة ، فكتب بعض شعراء هذه المقطوعات يقول :

ان شهر الصوم قد حل ففـز
فيه بالاجـر وشكر الشـاكرين

وختم المقطوعات بأبيات تشير الى شهر رمضان يقول ناظمها :

ان هذا الشهـر شهـر يجتنى
فيـه امثالك صفع الصـافعين
قد محـونا آية الـكف وهـا
نحن نتلو اليـوم آى الراحمين

وكان المشاع يومئذ ان المقطوعات جميعا من نظم الشاعر اسماعيل صبرى لان المويلحى كان يلقبه فى مجالسه باللقيط ..! ولكن المعلوم ان شعراء آخرين قد اشتركوا فى نظمها ، ماعدا حافظ ابراهيم صديق المويلحيين

***

وجاء دور الشيخ على يوسف فى تشهيرات هذه العناوين المتسلسلة فظهر عام الكفء بعد عام الكف !.. اذ كان السيد عبد الخالق قد طلب تطليق ابنته من صاحب المؤيد لانه غير كفء للزواج من الشريفات وجده مشكوك فى اسلامه ، واستعان المويلحى باطلاعه الواسع على الادب العربى القديم فاستخرج من قصة الشاعر الاحوص مع مطر زوج أخت امرأته التى كان يهواها ببيتين من أبيات الاحوص كأنما نظما لهذه المناسبة ، وأبيات الاحوص هى :

كأن المالكين نكاح سلمى
غداة نكاحها مطرا نيام
فلا غفر الآله لمنكحيها
ذنوبهم ، وان صلوا وصاموا
فلو لم ينكحوا الا كفيئا
لكان كفيئها الملك الهمام
وان يكن النكاح أحل شيئا
فان نكاحها مطرا حرام
سلام الله يا مطر عليها
وليس عليك يا مطر السلام
فطلقها فلست لهنا بكفء
والا يعل مفرقك الحسام

وكأنما الاشارة هنا الى ان الامير نفسه هو الكفء لبنت السادات ، وليس الشيخ على الذى أذن له الامير فى زواجها

ولم يكن مع المويلحى أحد من كبار الشعراء فى عام الكفء غير حافظ ابراهيم ، وقد كان « يرد الجميل » فى وقت واحد للشيخ على يوسف بعد حملات المؤيد على المفتى ، وللشاعر أحمد شوقى منافسه على الشهرة وعلى مطمع آخر ستأتى الاشارة اليه ، فنظم حافظ لهذه المناسبة قصيدته البائية بعد طول صمته ، وقال فيها :

حطمت اليراع فلا تعجبى
وعفت البيان فلا تعتبى

فلا تعذلينى لهذا السكو
ت فقد ضاق بى منك ماضاق بى

الى ان قال عن قضية الزوجية ، ولم ينس الناحية الدينية فيها :

وقالوا « المؤيد » فى غمرة
رماه بها الطمع الاشعبى

دعاه الغرام بسن الكهو
ل فجن جنونا ببنت النبى

فضج لها العرش والحاملوه
وضج لها القبر فى يثرب

وقالوا لصيق ببيت الرسو
ل أغار على النسب الانجب

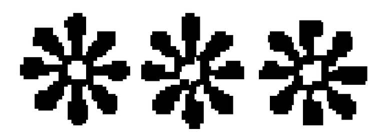
والطمع الاشعبى فى البيت يشير الى ضياع ثروة الشيخ على فى مضاربات « البورصة » وهى من المقامرة التى لا تحمد من أحد ، فضلا عن شيخ الطريق

ولقد كان لحافظ ابراهيم نصيبه المهم من هذه الدسائس التى كانت تحاك لترشيحه لوظيفة شاعر الخلافة فى البلاد العربية الاسلامية ، منافسة لشاعر الامير أحمد شوقى ، فما زال به الخبثاء حتى زينوا له

نظم ابيات فى الشاب « شكيب » معشـــوق ابى الهدى الصيادى صاحب النفوذ الاكبر فى حاشية السلطان عبد الحميد ، فقال على لسان الشيخ ابى الهدى :

وأفض الاذكار حتى يفيبـــــــا
اخـــرق الدف ان رأيت شكيبا
فاسألوا سبحتى فهل كان تسبيحـ
ـى فيهـا الا شـكيبا شـكيبا

فذهبت مساعى من رشحوه لذلك اللقب الفخم بعد اقترابها من النجاح



اما عام « الكفر» فلم يكن له شأن هذين العامين من اقلام الادباء ، ولم يهتم به صاحب « المؤيد » كثيرا لانه آثر ان ينتظر للخلاص من مزاحمة مصطفى كامل مناسبة أخرى ، وتلك هى مناسبة اغلاق الصحف التى كـان مصطفى كامل يصدرها باللغات الاجنبية ، وهى التى كان على يوسف يخشى أن تجعل مصطفى كامل لسان حال للامير فى الصحـــافة الاجنبية ، ولم يكن يخشى مزاحمته فى الصحافة العربية لان مصطفى كامل نفسه كان ينوى ان يقطع صلته الصحفية بالقصر ، حتى كتب خطابه الصريح الى الخديو عباس يبلغه فيه انه سيبتعد عن كل صـــلة بالحاشية الخديوية صيانة لمقام الامير من تهديد المحتلين اياه من جراء تلك الصلة ، وهذه هى الفعلة التى استكثرها بعض المتملقين على صحفى يخاطب أميره ، فحملوا عليها بعنوان « عام الكفر » وأسـكتها الناصحون بايعاز من الامير

على ان صحيفة المويلحيين لم تصبح لسانا سـياسيا للقصر ، ولكنها أصبحت لسانا للحركة الادبية مسـموع القول فى نقد الكتابة والشعر وفى الموازنة بين الـكتاب

والشعراء ، وكان قولها فى ذلك منتظرا مرموقا فى اندية الادب والثقافة ، ومنها اندية القصر نفسه وأنديةالمعارضين لسياسته ومؤامراته . وكانت خطتها العامة ـ فيماعدا فترات القلق الزئبقى التي اشتهر بها المويلحى الكبيرعلى الخصوص ـ ان ترجح كفة حافظ ابراهيم على منافسيه، فلم يكن من اليسير أن تساق الى خطة الزراية به وتهوين شأنه ونكران فضله ، ولكن « مصباح الشرق » كانت تنافسها ، وتحاكيها صحيفة اخـــرى على اسلوبها هى صحيفة « الصاعقة » الاسبوعية ، وصاحبها أحمد فؤاد تلميذ المويلحى ، يواليه يوما ويكيد له اياما على حسب الطلب والجزاء ، وفى الصاعقة كانت تنشر الحملات التى يأباها « مصباح الشرق » ، ويترفع عن قبولها أو مجـــاراة طلابها .. ولاسيما الحملة على حافظ ، ومحاولة الايقاع بينه وبين نصيره الاكبر الاستاذ الامام ، وقد أملى على صاحبها ان ينكر على حافظ قدرته على الشعر والنثر معا ولو كان من النثر المترجم .. فلا يصلح بطبيعةالحال لولاية الديوان العربى ومعه ديوان الترجمة ، فجاء فى مقال نشرته بعد صدور الجـــزء الاول من ترجمتـــه « للبؤساء » :

« .. انا لنبدا بأولهم ذلك المعجب بنفسه الذىعرضه الغرور للاستهزاء به ، وهو حافظ ابراهيم .. ولما كان معدوما من مزية تمييز الصحيح من الفاسد والخطأ من الصواب والجيد من الردىء ، وكان مجبولا على الاعجاب بنفسه .. ظن فاسده صحيحا وخطأه صوابا ورديئه جيدا فيما جمعه فى البؤساء من خليط كلام الفابرين .. »

الى قول الكاتب :

ولقائل ان يقول : لو ان الكتاب كذلك لما قرظه المفتى ،

فنجيب المعترض بأن فضيلة المفتى من العلماء الاعلام ، وعنده من الاشتغال بأمور الاسلام ما يشغله عن قراءة مثل هذه الترهات ، ولكن جبرا لكسره وتخلصا من الحاح جافظ وفرارا من تحمل غصص رؤيته والاجتماع به .. قال ماقال ، وعلم الله ان فضيلة الاستاذ تأذى كثيرا من تقريظ البؤساء »

ويقول المطلعون على احوال القصر ان المويلحيين أوشكا فى وقت من الاوقات ان يبلغا مطلبهما من الأمير وهومركز شاعر الامير للمويلحى الكبير ومهمة الدفاع عن سياسته للمويلحى الصغير

وربما كان ابراهيم المويلحى أصلح أبناء عصره لوظيفة الشاعر فى قصر الامارة كما كانت تفهم فى تلك الحقبة ، لانها كانت وظيفة تجمع بين نظم الشعر لمناسباته ومواسمه، وبين منادمة الامير فى مجالسه وسهراته وساعات طربة وخلوته لسماع المغنين والمغنيات ، ولم يكن ابراهيم المويلحى دون على الليثى ومحمود ابى النصر فى فن النظم ولا فى المنادمة ، بل كان أعرف منهما بأدب العرب والافرنج وأقدر منهما على الحديث فى مختلف شجونه ، وقدرته على نظم التواريخ بعدد الحروف المعروفةبتواريخ «الجمل» لم يكن يدانيها احد من معاصريه ، وقد كانت هوى الملوك والامراء من شعر المديح لتسجيل أوقاته ومواعيده ، فلم ينظم شاعر من هذا الفن قصيدة تضارع قصيدة المويلحى الكبير التى استقبل بها عباسا الثانى « سنة ١٩٠٢ » وكل شطر منها تاريخ للسنة الهجرية « سنة ١٢٢٠ » يوافق معانى الكلمات فى غير تكلف ظاهر يقتضيه التوفيق بين النظم ومجموع الارقام ، وهذه أبيات منها :

وافى الخديو فحسب النيل أفراحا
واستبشر الناس لما نجمه لاحا

والمجد ينصره ، والقطـــر يشكره
والملك يذكره ، بالعدل ان ســـاحا

***

وقد كان الخديو عباس يأنس لابراهيم المويلحى فى مجالسه ، ويعلم ولع جده اسماعيل بمسامرته ومنادمته ، فضلا عن الاعتماد على لباقته للسفارة بينه وبين ولاة الامر فى الدولة العثمانية ، ويعلم ان جده قد بلغ من ولعه به انه اصطحبه دون غيره من أصحابه وندمائه عندمفارقة القطر الى منفاه ، ولعله كان موضع اختياره شاعرا له لولا اعتراض المحتلين على تقرير هذه الوظيفة فى الميزانية، لان النظام المالى فى حكومات العصر الحديث لايعرف عملا يسمى عمل الشاعر أو النديم الخاص بمجالس الملوك والامراء ، ومن أجل هذا سميت وظيفة « أحمد شوقى » باسم رئيس الديوان العربى ولم تعرف « وسميا » باسم شاعر الامير

وربما كان طموح الوالد الى هذه الوظيفة سببا من أسباب نقد ابنه لشعر شوقى وقوله — على الخصوص — انه لم يكن يحسن الحـديث عن الملوك والامراء ، ولولا ذلك لما تحدث عن اسماعيل وهو يقول عنه انه « الخديو المشار اليه » .. ولا تحدث عن توفيق فقال « ثم مد الى العزيز يده فقبلتها واجما .. » ، ولاذكر انه كان يركب حمارا ابيض وهو يذهب للقاء الامير ، ولا أكثر فى مقدمته من الزهو والسهو والحشو كما قال ، ولا شبه العزيز بعمر بن الخطاب فقال وهو يصف حفلة البال :

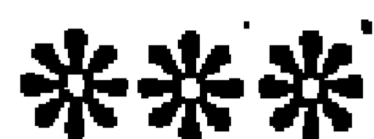
فهو بينهم عمـــر والوفود تنتـــدب

وانما عمر بن ابى ربيعة هو الاجدر « بمجلس الطرب والعزف ، والرقص والقصف ، والقدود والخـــدود ،

والصدور والنهود ، والنحور والعقود .. »

فقد كان هذا النقد ـ كما هو ظاهر ـ اقرب الى نقد « لياقة النديم » منه الى نقد بلاغة الشاعر ، وعند لياقة النديم تنتهى منافسة المنافسين للاديب الظريف والسمير الممتع ابيه ابراهيم !

الا ان المويلحيين كانا ـ ولا ريب ـ وفاق الشروط جميعا ـ بمقياس الامير قبل كل شيء ـ لوظيفة شاعر القصر ولسان حاله ، لولا قصورهما عن شرط واحدكان عند الامير أهم وألزم من جميع هذه الشروط ، وهو شرط الاستقرار والكتمان الذى لابد منه لكل من يعمل فى حواشى الامراء ، فقد كان كلاهما ـ ولا سيما الاب ـ من أصحاب المزاج الزئبقى الذى لا يطول قراره ، ولم تكن لهما حالة فى السياسة ولا فى العلاقات الحميمة يطول الاطمئنان اليهما ، فلم يفلحا حيث أفلح شوقى الصامت الحصيف ، وعلى يوسف الناطق الامين بلسان الحال



وفى « الصاعقة » التى كانت تخدم الحاشية الخديوية كما تقدم ، نشرت أعنف قصيدة من قصائد الهجاء للخديو عباس ولجميع الامراء فى أسرة محمد على من قبله ومن بعده ، وتلك هى قصيدة الاستقبال التى اتهم البكرى والمنفلوطى بنظمها ، وهى فيما نرجحه من نظم البكرى كلها ما عدا بيتا أو بيتين اشترك فيهما المنفلوطى أو أضافهما اليها بموافقة السيد توفيق

وقد كان موقف العميد « الصوفى » الكبير من بيت محمد على كموقف المويلحيين بين الاقبال والاعراض ؛ وبين المودة والجفوة ، وبين المعونة والمكيدة ، ولكن عميد السادة البكريين كان له موقفه الخاص بين رواد القصر

وهو موقف بيت البكرى من بيت الاسرة العلوية ، فكان على حذر دائم من الخديو عباس لانه ـ فى ذكائه واطلاعه على ما وراء الستار ومصاحبته لعباس منذ ايام الدراسة ـ لا يجهل سياسة البيت العلوى من جميع البيوتات التى اشتركت قديما وحديثا فى خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالى فى الآستانة ، وأولها : بيت البكرى العريق .. وسياسة عباس لم يكن بها خفاء نحو جميع البيوتات ذوات الرئاسة الدينية ، فانه كان يحاول جهده ان يحل فيها أشياعه ومريديه وينحى عنها الاقوياء من أبنائها ذوى « الشخصيات » الملحوظة فى الدوائر العليا ، واحذر ما كان يحذره أولئك الذين تتصل العلاقة بينهم وبين كبار الاجانب من السفراء ووكلاء الدول ، ولم يكونوا أقرب الى هذه الاوساط من السيد توفيق البكرى لمعرفته باللغات الاجنبية ونشوئه نشأة الامراء فى المعاهد الاوربية. ومن يدرى ؟ .. أن أعيان القاهرة وقناصلها كان لهم الشأن الاول فى تنصيب الولاة حتى بعد قيام الاسرة العلوية الى أيام اسماعيل ، فاذا حدثت بين زعازع السياسة التركية والاوربية حادثة تدعو الى تغيير الاسرة الحاكمة ، فهل من البعيد ان يرشح للحكم الجديد سليل بيت عريق فى البلاد له من سمته وتربيته وعلاقته بالآستانة ووكالات الدول ما يلفت الانظار اليه عند البحث عن الخلف المطلوب ؟

والذى لا نشك فيه ان القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة للمنفلوطى فى بعض أبياتها ، لان المناظرة بالآباء والاجداد والمقابلة بين الدخيل « القولى » والاصيل « البكرى » تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر للمنفلوطى على انتمائه لآل البيت النبوى بغير تلك الوجاهة الملحوظة فى تاريخ الولاية ، ولقد كانت اخر كلمة وجهها

السيد توفيق الى الخديو عباس حين وبخه هذا وقال له على مسمع من الملأ في حفلة المحمل : أنت قليل الادب :

« كلا .. لست انا القليل الادب .. انا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك .. »

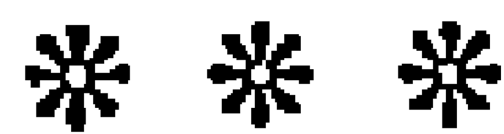
لاجرم يكون قائل هذه الكلمة هو ناظم تلك الابيات التى يقول فيها :

يذكرنا مرآك أيام أنزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا
سهام بلاء وقعهن شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا
اذا أصبح « القولى » وهو عميد
أعباس ترجو ان تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الارض حين تسود

ونحن ننقل الابيات هنا كما سمعناها بالرواية مخالفة للقصيدة المنشورة فى « الصاعقة » بعض المخالفة وكل ما فيها من ذكر القصور والنعمة المحدثة والاسرة الطارئة كلام من له نشأة راسخة فى القصور والنعمة التالدة والحسب العريق

ولم يكن عباس ـ وهوالذى سماه كرومر أستاذا فى فن الدسائس ـ قاصرا عن « رد الجميل » من نوعه فى هذه الحملة ، فانه أراد أن يستخرج من مادة الشعر وثيقة على البكرى بخط يده تسقطه فى بيئة الدوائر الاجنبية العليا : وأهمها عنده دوائر الوكالة البريطانية .. فأوعز الى ولى من أولياء القصر بين رجال الادب ان يستدرج السيد الى كتابة قصيدة ينظمها فى موضوع

من موضوعات الغزل المحظور ، وكان حفنى ناصف اقرب هؤلاء الادباء صلة بالسيد البكرى ينشده ويستمع اليه .. فلما ذهب يزور السيد وأقبل هذا ينشده من جديد نظمه تعمد حفنى ان يستثيره وقال له : أيها السيد ! انك ممن لاينبغى لهم الشعر ، فدعه لنا وحسبك فخار الشرف والجاه ! .. وحمى غضب السيد فتحداه ان يجاريه فى نظمه ان استطاع ، وقبل حفنى التحدى على شريطة ان يكون موضوع القصيدة شخصيا لا يستعار من ناظم آخر فى باب من الغزل المحظور ، فكتب البكرى ابياتا فى المعنى المقترح بخطه وكتب حفنى ابياتا فى معناها ثم أخذ ابيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر فوق رجحانه عليه فى الحسب والنسب ! وذهب الى النافذة يوهم السيد انه يمزق الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات ، ولكنه مزق ورقته وأبقى الورقة الاخرى فى جيبه ، ثم أسرع بها الىالقصر ليسلمها الى الخديو فأسلمها الخديو الى لورد كرومر فى أول لقاء بينهما ، وقيل انها كانت اخر العهد بدعوةالسيد الى حفلات الوكالة البريطانية واخر العهد بزيارة العلية من رجال الدول لقصر الخرنفش ، حيث كانت لهم زيارات متكررة فى المواسم والاعياد



نقرأ ل « حفنى ناصف » ـ رحمه الله ـ رسالة منابلغ رسائل العتاب على الاسلوب السلفى كتبها الى توفيق البكرى يقول فيها ، وكان قد زاره فتخطاه السيد الى جاره ولم يقرئه السلام :

« .. وجاء السيد فى موكبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهيمنا بكماله ، فمر يتعرف وجوه

القوم حتى حازانى ، وكبر على عينيه أن ترانى .. »
الى ان يقول :
« فان حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الاجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع الناس . والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف ، ويحييهم بصنوف من المعروف ، ويتخطى الرقاب الى صروف ، ويخترق لاجله الصفوف ؟ فان زعم السيد أنه أعلم بتصريف الاقلام فليس بأقدم هجرة فى الاسلام ، وان رأى أنه اقدز منى على اطرائه ، فليس بالممكن أن يتخذه من أوليائه .. »

والمقصود بصروف كما هو معلوم صاحب «المقتطف» الدكتور يعقوب صروف ، ولم يؤثره السيد لانه أقدر على اطرائه ، فان الدكتور يعقوب لم يكن من أصحاب أقلام الاطراء ، ولكنه آثره لانه ربما كان أقدر فى الدوائر العليا على محو المسبة التى جاءته من ناحية الحاشية الخديوية

* * *

ونحن لانجاوز فى مقالنا هذه بعض الامثلة على مؤامرة الادب التى لاتفهم دون العلم بما وراءها من مناورات القصور ، ولم نزد فيها هنا على مايحيط منها بالأعلام الذين كتبنا عنهم فى هذا الكتاب



فى مقالاتنا بعنوان « حياة قلم » عرضت مناسبة لعلاقة « ابراهيم المويلحى » بمؤامرات القصور فى القاهرة والآستانة ذكرنا فيها بعض حوادثها ملخصة فى القصة التالية :

« .. حدث أن حركة فى القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد بالاستانة — وهى حركة تركيا الفتاة — وأن رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم انهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين !

« وكانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال .. ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام فى يلدز وعيناه على شارع محمد على بالقاهرة ، واتفق يوما أن المويلحى الكبير — صاحب مصباح الشرق دخل مكتب « المؤيد » ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة: قادر انت يارب أن تسقط هذا السقف اعلى من تحته ، فيستريح عبد الحميد ! قال محمد عبده — وكان من زوار الحجرة — نعم .. لو تقدمت انت خطوتين ! »

ذكرنا طرفا من أخبار المؤامرات وقصرنا الكلام فيها على أعلام الادب الذين تقدمت الكتابة عنهم ، وهم على يوسف ، ومصطفى كامل ، والمنفلوطى ، والمويلحى

صاحب عيسى بن هشام ، ولكنهم طائفة معـدودة من الذين اتصلوا بالقصور واجتذبتهم حبائلها أو اشتملت عليهم شباكها ، وغيرهم كثيرون من أبناء عصرهم وأبناء العصر الذى يليه تعرضوا لمثل ماتعرض له زملاؤهم من قبل ، وامتزجت حياتهم العامة والخاصة كما امتزجت حركاتهم الادبية والفكرية بأسرار تلك المؤامرات ، فلا سبيل الى تقديرهم وتقدير بواعث أعمالهم بغير الاطلاع على تلك الاسرار .

ومن أشهر الاخبار عن العلاقات المتصلة بين القصور ودوائر الادب ، ذلك الخبر الذى لم يكتب فى حينـه ، ولكنه ورد فى مذكرات أحمد شفيق باشـا التى نشرها بعد خلع السلطان عبد الحميد والخديو عباس الثانى ، وذلك هو خبر الاستاذ الامام محمد عبده مع شـبكة الجاسوسية الصحفية فى القاهرة والآسـتانة ، وكان الخديو عباس شديد النقمة على الاستاذ لمعارضته اياه فى سـياسة الازهر وديوان الاوقاف ، ولكنه لم يكن يستطيع عزله لغير سبب يمكن تقريره والاستناد اليه ، ولم يكن نظام مجلس الوزراء يسـمح له بالتصرف فى المناصب الكبرى بوحى من اهوائه الشخصية ، فأراد أن يتمسح بحقوق الخليفة الاكبر ـ عبد الحميد ـ فى المسائل الدينية ، وانتهز فرصة السياحة الصـيفية وسفر الاستاذ الى الآستانة لتوريطه فى موقف مـريب يؤدى بالاتفاق مع جواسيس « المابين » الى اعتقـاله « متلبسا » بحالة من الحالات الشـائنة التى لا تجمل بمفتى الديار .. فلا يصعب على الخديو بعـد ذلك ان يأمر باخراجه من المناصب الدينية ومن وظيفة التعليم بالجامع الازهر ، ولا يسـتطيع المستشـارون الذين

يشهدون مجلس الوزراء أن يعارضوه باسم القانون المالى ونظام تأديب الموظفين

وقد تولى هذه المهمة مكاتب « المؤيد » بالآستانة فقدم نفسه الى الاستاذ ، وعرض عليه خدمته لتمكينه من الفرجة على مناظر البلد التى يجهلها السائح الغريب ولايهتدى اليها بغير دليل ، ولولا يقظة الشيخ محمد عبده وانتباه بعض المصريين فى الآستانة الى خبيئة هذه الدسيسة لاعتقل الشيخ فى جهة من جهات اللهو المنكر يراقبها الشرطة ، ويستطيعون على الاقل أن يخرجوا من البلد من يصطدم فيها بالمشاغبين الغرباء .. فيحق القول على الامام « المتهتك » وتكون هى القاضية على سمعته وعلى جهوده ومشروعاته فى سبيل الاصلاح

وأمثال هذه « المؤامرات » بين سماسرة القصور وحملة الاقلام أكثر من أن تحصى ، كنا نسمع بعضها فى حينه .. ولكنها لاتنشر فى الصحف السيارة الا بأسلوب التورية والتلميح ، أو تنشر عنها الكتب التى تصاغ بأسلوب « القصة » الخيالية وابطالها جميعا معروفون

ولم تنقطع هذه المؤامرات كل الانقطاع الى زمن فاروق ، ولكنها ذهبت شيئا فشيئا على مراحل متعاقبة ، ترتبط كل الارتباط بتواريخ القصور « ذات الشأن » كما يقال فى التعبيرات الحديثة ، وهى مراحل العلاقة بين قصر يلدز وقصر عابدين ، ثم مراحل العلاقة بين قصر عابدين وقصر الدوبارة ، وهو عنوان دار الوكالة البريطانية المشهور

ولهذا كانت الناحية الدينية غالبة على هذه المؤامرات فى مرحلتها الاولى ، وكان محورها الاكبر مسألة الخلافة

ومسألة السـمعة الدينية أو الدعاية التى لها علاقة بالدين وبالاخلاق

كان السلطان العثمانى يتهم الخديويين بالسعى الى تحويل الخلافة من الترك الى البلاد العربية ، وكان الخديويون يحذرون من سلطان الخليفة لانه السلطان الذى كان من حقوقه أن يخلع أمير مصر أو يبدل نظام الوراثة أو يساوم الدول الاوروبية على حساب الخديوية المصرية ، كلما كانت له فى ذلك مصلحة من مصالح السياسة الدولية

ومن هنا جاءت تلك القضايا التى ترتبط بمناصب الافتاء ومشيخة الطرق الصوفية ومنازعات الزوجية والكفاءة لها من وجهة النسب والوجاهة الاجتماعية ، كما جاءت تلك الاقاويل التى تدور على اتهام كبار الرجال العاملين فى نهضة هذه الامة ، لانهم ينازعون الخليفة أو الامير ، ولا يسهل التغلب عليهم بغير التشهير وتدبير المواقف التى تنفر الناس منهم باسم النخوة الدينية على الخصوص

وقد ذهب عهد عبد الحميد ، وبقيت لمسألة الخلافة ذيولها التى شهد المعاصرون آثارها فى حياتنا الفكرية .. فان الثورة الفكرية التى اشتبكت فيها أقلام العلماء والادباء شهورا فى هذا البلد بعد ظهور كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لم تكن لتشتعل هذا الاشتعال لولا طموح احمد فؤاد الى الخلافة واعتقاده أنها توطد مكانه عند الدولة البريطانية لتستعين به على حكم الامبراطورية الهندية ، ولو بلغ من شأن الخلاف أن يشغل أقلام العلماء والادباء كما شغلهم يومذاك لما بلغ من شأنه أن يستفحل حتى يؤدى الى سقوط الوزارة واثارة المشكلة الدستورية على وضع جديد

وللناقد الادبى – اذن – أن يجعل شعاره « فتش عن القصر » أو « فتش عن قضية الخلافة » ليفهم حقيقة لاغنى عنها فى تقدير مدارسنا الادبية فى الجيل الماضى وتقدير أسباب التجمع والتفرق بين حملة الاقلام فى كل مدرسة منها ، وبغير هذا « الشعار » يتعذر عليه كل التعذر أن يدرك الاسباب الكامنة وراء تكوين تلك المدارس من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها المعروفة ..

ولنضرب لذلك – مثلا – قصيدة الاستقبال التى قيل فى مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وان طال المدى سيبيد

وقيل فى ختامها :

اعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الارض حين تسود

فدسيسة القصيدة – على حد قولنا دسيسة الرواية – هى قضية الخلافة واتهام الخديو عباس الثانى بالطموح اليها

والاطراف المعنيون فى القصيدة – كما ظهروا للناس – هم السيد توفيق البكرى ، والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ حمزة فتح الله ، واحمد فؤاد صاحب « الصاعقة » ومن وراء الستار السيد ابراهيم المويلحى والسيد محمد المويلحى ، والسيد على يوسف ، وأدباء الحاشية الخديوية

فالسيد توفيق البكرى شيخ الطرق الصوفية ، والسادة البكرية ركن مهم من أركان قضية الخلافة بما كان له من المكانة الدينية وماكان له فى الآستانة من « الصفة الرسمية » التى خولته منزلة من الرئاسة تقارب منزلة الخديويين ، وهذه هى الصفة التى عناها حين اهانه الخديو عباس فقال فى جوابه :

« أنا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك »

والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى كان فى تلك الآونة طالبا فقيرا من طلاب الجامعة الازهرية ، ولكن انتسابه الى الشرف النبوى هو الذى قربه من شيخ الطرق الصوفية وزج به فى منازعات الخلافة ومناوراتها

والشيخ حمزة فتح الله هو احد علماء اللغة من المغاربة الذين كان القصر الخديوى معنيا بضيافتهم مع أمثالهم من علماء البلاد العربية ، لاكتساب الصفة الاسلامية .. ودوره فى قضية القصيدة أنه شطرها ليرد هجاءها الى ناظمها ، ويعنيه عناية خاصة من ناحية النسب وعراقة البيت ، وفى هذا التشطير يقول :

قدوم ولكن لا اقول سعيد
على فاجر هجو الملوك يريد
لئام لهم « بيت » من اللؤم عامر
وملك وان طال المدى سيبيد

واحمد فؤاد هو صاحب صحيفة « الصاعقة » التى انشئت لتكون صحيفة « الهجاء الاجتماعى » الاخرى أمام السيدين المنتسبين الى الامام الحسين ، وقد كان يومئذ الى جانب الآستانة ، فى تردده الطويل بين القصرين : قصر يلدز وقصر عابدين

والمويلحيان ، وعلى يوسف ـ كلهم ينتسبه الى الشرف ، وكلهم يخوض معركة الكفاية الزوجية باسم الانتماء الى السادات ، ومنظومات عام الكف وعام الكفء بعض ثمرات هذه المناوشات

ومن وراء ذلك حاشية الادباء فى قصر عابدين ودورهم فى القضية مستور ، ولكنهم يقومون به من وراء الحملات التى تشن على أدباء القضية من وراء ستار

* * *

وفى المرحلة الثانية من مراحل المؤامرات بين القصور وحملة الاقلام ، تأتى مؤامرات النزاع بين قصر عابدين وقصر الدوبارة مقر العميد البريطانى الذى كان يلقب بقيصر قصر الدوبارة ، واليه يوجه حافظ ابراهيم قصيدته حين يقول :

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا
فالشرق ريع له وضج المغرب

وعنه يتحدث حين قال :

وما دام فى قصر الدبارة ربه
فسعد ودنلوب لعمرك واحد

وعلاقته البعيدة بمدارس الشعر تظهر فى منظومات أناس بلغ من قحة أحدهم أن يسمى قصائده بالكروميات معارضا بها « الشوقيات »

* * *

ولولا أن عاملا جديدا ظهر فى الوسط ـ وهو عامل الحركة الوطنية ـ لكان مجال المؤامرات القلمية بين قصر عابدين وقصر الدوبارة أوسع من كل مجال آخر ، بلا

استثناء ، لمجاله الاكبر بين يلدز وعابدين ، ولكن ظهور هذه الحركة تحول بأصحاب الاقلام الى معركتها الصريحة فى الصحف وعلى منابر الخطابة ، ولم يترك للشئون الديوانية من الجانبين غير « اجراء ادارى » فى يد الانجليز لصرف الاقلام عن الكتابة السياسية ، واجراء ادارى آخر فى يد الخديو لصرفها عن الصحافة « المشاغبة » عموما الى ديوان الاوقاف ، فكان نفوذ المستشارين وراء تشجيع المجلات العلمية والادبية باشتراك الوزارات فى مئات النسخ من أعدادها الشهرية أو نصف الشهرية ، وكان نفوذ الخديو وراء تعيينات الادباء الكبار والناشئين بديوان الاوقاف ، ومنهم محمد المويلحى كاتب « مصباح الشرق » و « عيسى بن هشام » وأحمد الازهرى صاحب مجلة « الازهر » وعبد العزيز البشرى ابن شيخ الاسلام ، ومعهم ادباء آخرون لم يكن للخديو يد مباشرة فى تعيينهم بالديوان ، ولكن تعيينهم هناك شغلهم بالشعر عن الكتابة الصحفية وجعل من بعضهم شعراء يتسابقون الى نظم المدائح الخديوية فى مناسبات المواسم والاعياد



وانتهت بانتهاء العلاقة بين مصر والدولة العثمانية مدرسة الكتاب والادباء الذين كانوا يضعون قدما فى هذا البلاط أو ذاك وقدما أخرى فى بلاط صاحبة الجلالة ، ونشأ الجيل الجديد من الكتاب والشعراء فى الهواء الطلق ، أو فى جو الحركة الوطنية بما اشتمل عليه من نواح واطراف .. تارة الى القصور وتارة عليها فى صف المعسكر الجديد ، وهو معسكر الامة بنواحيه واطرافه التى أشرنا اليها

انتهت تلك المدرسة من أصحاب الاقلام ، ولم تنته مؤامرات القصر « القلمية » من طرف واحد او من كلا الطرفين .. وقد كانت المصروفات السرية بعض وسائل القصر الخديوى لاصطناع الانصار ومحاربة الخصوم ، ولم تكن كلها تصرف فى خدمة السياسة الخديوية أو مطامع الخديو الشخصية ، ولكنها كانت كلها تصرف فيما يرضى الموكلين بتوزيعها على محررى الصحف والمشتغلين بالادب المنظوم والمنثور ، وبعضهم كان من كبار موظفى القصر ، وغيرهم كانوا من سماسرة الرتب والنياشين غير الموظفين ، وربما استعين بأموال الخاصة لهذا الفرض اذا خيف انكشاف الامر لديوان الرقابة على الميزانية

والى عهد غير بعيد كان لاموال الخاصة ـ مع المصروفات السرية ـ عملها فى اصطناع المحررين والمؤلفين لتعبئة المعسكر « القلمى » حول دعوة الخلافة تارة ، وحول الخصومات الادبية التى تعنى القصر تارة أخرى فكانت الخاصة فى عهد أحمد فؤاد تتولى الانفاق على أبناء بعض الكتاب فى المدارس المصرية والاجنبية ..

وكانت هذه الخاصة ـ مع مكتب المصروفات السرية ـ تنفق على انشاء المطابع والمجلات لمحاربة الادباء المخالفين لسياسة القصر والمناصرين لدعوة غير دعوته الخفية أو العلنية

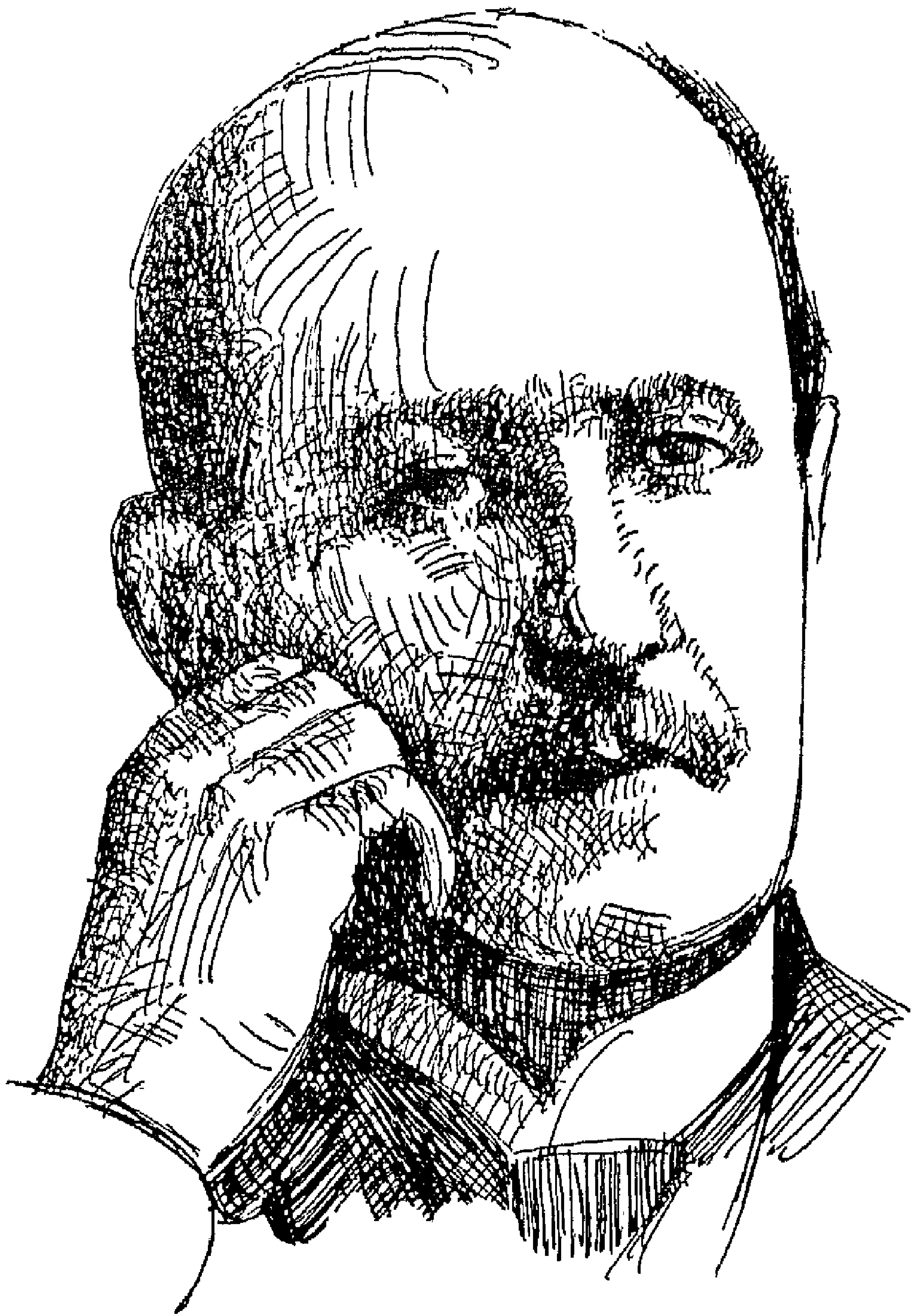
فى هذه الفترة نشأت المدرسة الادبية التى ينتمى اليها كاتب هذه السطور ، وفى هذه الفترة تعرضت هذه المدرسة للتشهير والتنديد فى الصحف الاسبوعية التى تخصصت للهجاء الاجتماعى والمناورات الادبية والسياسية .. وكلها صحف يعرف من عرفوها أنها

تقصد بحملاتها من يبذلون المال فى سبيل اتقائها ، ولا يعنيها أمر أمثالنا من الناشئين الفقراء ، الا أن يكون مصدر الحملة من ورائها ، لا من بين يديها ! ..

وتقدير الحملات الادبية ، والمدارس الفكرية أيضا ، فى هذه الفترة المتأخرة يعود بالناقد المحقق ـ لامحالة ـ الى ماوراءها فى سراديب القصر وحواشيه ، فلاحيلة له فى اجتناب هذه الناحية الخفية لتصحيح الحكم على طبيعة كل حملة أدبية ولباب كل خصومة عامة او خاصة بين القائمين بها ، وان لم يكن كله لازما فى أمر المدارس المتأخرة لزومه فى أمر المدارس على عهد الادباء الأسبقين

ونظرة واحدة الى ماوراء الستار قد تغنى عن بحوث مستفيضة يجتهد لها الباحثون لوزن الدعوة أو وزن الحملة بميزانها الصحيح ، فلن يدرك الباحث حق الاسلوب من الرفق أو الشدة ، ومن الاعتدال أو الاندفاع ، اذا كان نظره قاصرا عما يستدعيه ويدفع بصاحب القلم اليه ، فان الاسلوب الذى يستدعيه نقد فكرة غير الاسلوب الذى يستدعيه احباط مكيدة من وراء الستار ، يمالئها سلاح السلطان كما يمالئها سلاح الدرهم والدينار





الدكتور يعقوب صروف

كنت فى زيارة للقاهرة حين لقيت الدكتور يعقوب صروف صاحب «المقتطف» حوالى سنة ١٩٠٥ ..

وكانت زيارات القاهرة فرصة للبحث عن الكتب الخاصة التى لا تصل الى الاقاليم مع الباعة المتجولين ، وقد يتطلب البحث عنها زيارة حى « الكتبية » الى جوار الأزهر ، او زيارة حى الفجالة حيث تباع المطبوعات العصرية ، لأن قوائم المكتبات لم تكن يومئذ شيئا معروفا فى بيئات النشر والمطالعة ، وكان المعروف المتداول منها لا يغنى عن البحث فى المطبعة التى طبعت الكتاب والمكتبة التى تبيعه .. وقلما يباع فى سواها ..

اما الكتاب الذى قصدت الى دار المقتطف فى مدخل شارع عبدالعزيز للبحث عنه ، فهو كتاب «الكائنات» للشاعر الباحث العراقى جميل صدقى الزهاوى ، وكانت مجلة المقتطف هى التى تولت طبعه فى القاهرة لانه يبحث فى موضوع من موضوعات « فلسفة ما وراء الطبيعة » .. وهى تلك الموضوعات التى كانت تثير الريبة فى الاقطار الشرقية الى ما بعد أوائل القرن العشرين

ولقد كان لقاء الدكتور يعقوب صروف ـ فيلسوف العصر عند المحدثين ـ هو الغرض الاول من زيارة الدار، اذ كان فى وسعى ان اسأل عن الكتاب بمخزن المطبوعات هناك ، وكان فى وسع عامل المخزن أن يتولى اخراج الاذن ببيعه من رئيسه فى ادارة المقطم أو ادارة المقتطف، ولكننى قدمت الى القاهرة من مدينة « قنا » حيث كنت أعمل تلميذا بالقسم المالى فى انتظار التثبيت وأنا خارج من احدى «المعامع» الادبية او الفكرية ، التى كان « يعقوب

صروف » محـورا من اهم محـاورها الكثيرة طوال ايام الحرب الروسية اليابانية ..

ولابد من ذكر الحرب الروسية اليابانية فى هذا المقام، لانها كانت فى الواقع محور المحاور فى ميادين العصبيات السياسية والوطنية ، والصحفية والادبية يومذاك ... بل كانت محور المحاور فى كل عصبية يثور لها الشـباب الذى يعنى بشأن غير شئونه الخاصة كيفما كان ..

وكان النزاع حول الطرفين — روسيا واليابان — يشمل ضروبا من النزاع حول كل موضوع عام يشغل أذهـــان الناشئة على الخصوص ..

فكان النزاع الوطنى يميل بالاكثرين من الشبان المصريين الى جانب الدولة الشرقية الناهضة ، او دولة « الشمس المشرقة » التى الف فيها مصطفى كامل كتابه بهذا الاسم، كأنها المثال الاول للامم الشرقية المجاهدة فى قضايا الحرية والنهضة والاستقلال ، وفيها يقول حافظ ابراهيم :

هـكذا الميكاد قد علمنـــا
أن نرى الأوطان أما وأبا

وكان التنافس بين خريجى المدارس الانجيلية والمدارس المحلية الارثوذكسية على أشده وأوسعه فى عواصم الصعيد، ولا سيما فى أسيوط ٩٠ فكانت روســـيا رمزا لعصبية المدارس الارثوذكســـية ، وكانت اليـــابان رمزا للعصبية الاخرى لانهــــا صديقة الدول الانجيلية التى تعـــادى روسيا فى قضايا السياسة العالمية ، وفى مقدمتها انجلترا والولايات المتحدة ..

وكانت العداوة بين دولة القيـاصرة ودولة الخـلافة الاسلامية سببا لعصبية اخرى ،جمعت انصار دولة الخلافة

الى صف واحد يناصر اليابان ، فى سبيل الوطنية وفى سبيل الدين ..

وكان أصحاب المقطم والمقتطف للمرة الاولى فى صف واحد مع انصار الوطنية وانصار الدولة العثمانية ، مع ما هو معروف من موقفهم حيال تركيا وحيال بريطانيا

أما عصبية الثقافة ، فقد ابرزت امام الخريجين من المدارس الانجيلية اسمى «يعقوب صروف» و « فارس نمر » صاحبى المقتطف والمقطم ، لانهما كانا فى عالم الكتابة انبغ من اشتهر من كتاب العلم والسياسة فى عالم الصحافة الشرقية . وكانت هذه العصبية تبلغ مبلغ الهزل على السنة المتشيعين لهذين الكاتبين حين يجعلونها موضوعا من موضوعات النظم شعرا وزجلا ، وهم لا يحسنون هذا ولا ذاك باللغة الفصحى ولا باللغة العامية.. ومما يحضرنى من ابيات «الزجل» فى الثناء على « فارس نمر» قول احدهم:

فارس نمر تعلملى وتهذبلى
وفى فنون العصر نابغلى

نابغلى فى علوم العصرى
وكان ساكنلى فى بلاد الشاملى

واسمع له فى الخطابة وتعال قل لى
واقرا لله فى المقطم والمقتطف ياخلى

واذا بلغ بالحماسة «الادبية» ان تنطق من لا ينطق بهذا « النشيد » فقد يتصور القارىء العصرى كيف كانت حماسة المتشيعين لكاتب المقتطف وكاتب المقطم عن فهم وادراك صحيح

أما نحن ـ من غير ناشئة المدارس الانجيلية ـ فقد كان تشيعنا لليابانيين لا يبلغ عندنا ان يشفع لـ « فارس نمر » او يقربه الينا ، كاتبا او سياسيا ، او عالما كما اشتهر

فى اوائل عهـده بالصحافة ، ولكننا كنـا نمحض يعقوب صروف من اعجابنا الادبى كل ما كنا نأباه على زميله، وكان اعتزال صروف للدعاية السياسية يخرجه من ميـدان الخصومة ويكسبه من كرامة العلم ولاء مشتركا نتفق عليه مع زملائنا الخريجين من المدارس الانجيلية

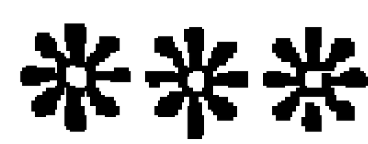
وقد أذكر الى اليوم كيف لقينى رهط منهم بعد عودتى الى قنا ومعى نسخة من كتاب «الكائنات» عليها كلمة بخط العالم الكبير

ولقد كانوا يستمعون لى كأنهم يستمعون الى حديث رؤيا غير قابلة للتصديق ، وكانوا يسألون : كيف حييته؟ وكيف رد عليك التحيـة ؟ وماذا قال لك حين أسـلمك الكتاب ؟ وهل فاتحك فى بحث من بحوثه ؟.. وماذا قلت له عن المؤلف ، وعن موضوع التأليف؟. وقد كانت دهشتهم الكبرى اننى لم أجد فى الرجل ما يثير الدهشة أن كانت الدهشة بمعنى الرهبة ، بل كان الرجـل فى الحق مثـلا للطيبة الابوية والوداعة الحكيمة ، فلم يختلف شعورى بلقائه الاول بعد ان لقيته مرات فى مكتبـه وفى داره وفى بعض المجالس الادبيـة ، ولم اره بعد ذلك على غير تلك الصورة التى شهدتها منه أول مرة ! .. بساطة لا تخلو من تحفظ السمت والوقار ، وعاطفة أبوية يشمل بها كل من عرفوه من ناشئة الكتاب والدارسين

عتب على اول الامر اننى فاجأته بالدخول الى مكتبـه بغير استئذان ، ولكنه عاد يستسمحنى حين أكدت له اننى طرقت الباب طرقا خفيفا لعله لم يسمعه وهو مستغرق فى القراءة .. فقال مبتسما : « بل هو ثقل فى السـمع يعترينى من حين الى حـين ، فلا تؤاخذنى اذا عتبت عليك ..! »

ولكن الحـدة التى فاتتنى من صاحب الدار لم تفتنى

من عامل المخزن حين خرجت بالكتاب لتسليمه ورقه الاذن ببيعه ـ وأظنه كان متمصرا طال مقامه بالقاهرة ـ لانه نظر فى عنوان « الكائنات » وقال مازحا : « جاك كائنة ! » .. وهى دعوة لايعرفها غير المصريين أو المتمصرين، وانما قالها ليقول اننى افلحت فى تهدئة غضب الدكتور واعفيته من الجزاء الذى كان مستحقا له لو لم اقنع الدكتور ببراءة موظفيه من التقصير ، لاننى قصدت ان القاه ابتداء ، ولم يكن دخولى الى مكتبه لخطأ من اولئك الموظفين



ولا يحضرنى تفصيل الحديث الموجز الذى سمعته من الدكتور صروف فى تلك المقابلة الاولى ، ولكنه دار على الاجمال حول فلسفة « ما وراء الطبيعة » وعلقت بذهنى كلمة منه لغرابتها أو لغرابة صدورها من « الفيلسوف يعقوب صروف » . وتلك هى قوله انه لا يتقبل تلك الفلسفة ، أو لا يهضم تلك الفلسفة ، أو عبارة دارجة بمعنى هاتين العبارتين ، على حد قول القائلين فى التعبيرات الاوربية الشائعة : « اننى لا ابتلع هذه الفلسفة »

وفوجئت ، ولا غرابة ، بذلك التصريح من رجل لم يشتهر فى عالم الثقافة العربية يومئذ بما هو اشهر من صفة الفيلسوف ، ولم نعلم أن أحدا غيره وغير زميله « فارس نمر » حصل على لقب « الدكتور فى الفلسفة » من جامعة غربية ، وانما كنت أفهم فى بداءة عهدى بالاطلاع على فلسفة « ما وراء الطبيعة » انها هى الفلسفة كلها أو هى الفلسفة فى أهم مسائلها وقضاياها ، فان لم تكن هى كذلك فهى ـ على الاقل ـ شيء لا يصعب هضمه على «الفيلسوف» ـ بألف التعريف !

الا ان الدكتور عرفنى بتلك الكلمة العابرة بحقيقة

رسالته في نهضة الثقافة العربية بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فكان من الخطأ ان نفهم من تلقيبه بالدكتور في الفلسفة أنه فيلسوف كفلاسفة البحوث المنطقية النظرية ، في قضايا الغيب المجهول ومشكلات «ماهية الوجود» على منهج ارسطو وابن سينا وابن رشد والغزالي ومحيي الدين ، وانما هو فيلسوف في نطاق العلوم التجريبية التي يقوم برهانها على الوقائع والمشاهدات وان تناولت مباحث التاريخ والاخلاق ، ولا تقيم براهينها على الفروض والأقيسة من قبيل براهين الكائنات لاثبات الفضاء المحدود وغير المحدود

وبعد أكثر من عشر سنوات ، سمعت منه مثل هذا الرأي في فلسفة « ما وراء الطبيعة » خلال حديث اذكر مناسبته ولا اذكر زمنه على التحديد ، وقد كانت هذه المناسبة تعقيبا على مقال للآنسة « مي زيادة » حول فلسفة « برجسون » لم أقرها على كثير مما فيه ، وكان الدكتور صروف يقرأ تعقيبي وهو يبتسم ، ويقول بين آونة واخرى : « يا رجل ا.. اتتمرجل على بنت ؟.. » فاستعدت منه المقال ، وعلمت بعد ذلك انه أطلع الآنسة على ملخص ذلك التعقيب !

وفي خلال المناقشة حول كلام الآنسة ، وتعقيبي عليه، علمت منه مرة اخرى انه ينظر الى الفلسفات التي على غرار فلسفة برجسون من ناحيتها العلمية التي تنطبق على قضايا الحياة الانسانية ، ولا تخوض وراء ذلك في احاديث «الغيبيات» وفروض ماوراء الطبيعة ، وان فكرة التطور في كتابة برجسون تعنيه لانها على اتصال بمذهب داروين ، ولا اذكر انني سمعت منه ــ يومئذ ــ كلاما يدل على التوسع في الاطلاع على مذهب الفيلسوف الفرنسي، ولا على مذاهب زملائه الاوربيين في تلك الفترة

وبعد سنوات أخرى قرأت خلاصة المناقشة التي دارت بين الدكتور صروف وبين الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مجلس علي مبارك باشا ، فأكدت لي أصالة هذه النظرة الى الفلسفة في رأى الدكتور صروف منذ زمن بعيد ، وخلاصة هذه المناقشة انهم تحدثوا في المجلس عن كاتب وصفته الصحف بالفيلسوف فقال الدكتور : « ان الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها » ثم تساءل الحاضرون : « من يكون الفيلسوف اذن على المعنى الصحيح ؟ » . قال الدكتور في رواية السيد رشيد رضا : « هو الذى يتقن جميع العلوم ».. فقال الشيخ محمد عبده : « اذن لا يوجد على الارض فيلسوف » فعاد الدكتور يقول ما معناه : « انه لا بد أن يتقن علما من العلوم ويلم بسائرها » فقال الشيخ محمد عبده : « ان الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وقبلها الثانوية ، على الم بالعلوم ويتقنون بعضها .. فما أكثر الفلاسفة بين الاطباء والمهندسين وسائر الطلاب بهذا المعنى ! » ولما سئل الشيخ محمد عبده : « من يكون الفيلسوف اذن ؟ » قال : « ان الفيلسوف — كما يفهمه — هو الذى له رأى في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه »

ولم أزل القى الدكتور صروف بين آونة وأخرى الى ما قبل وفاته بقليل ، فأعرف منه في كل مقابلة صورة واحدة لم تتغير منذ رأيته للمرة الاولى : صورة فيلسوف له عقل عالم مشغول بالواقع من الخبرة العملية ، وله مع هذا العقل العلمي قلب انسان ودود يحب الخير للناس ويغتبط بتوفيقهم للنجاح ..

واذكر اغتباطه بتوفيق الناشئين الى النجاح لأن كتابه المترجم عن صمويل سمايلز باسم « سر النجاح » كان

اول كتاب قرأته له واخبرته باعجابى به حين سألنى عن مؤلفاته ، ولم ازل كلما زرته اسمع منه سؤالا واحدا قبل كل سؤال : « ماذا صنعت لنفسك ولمستقبلك ؟ » فوقر فى نفسى ان كتاب « سر النجاح » لم يكن مجرد كتاب ترجمه وأضاف اليه ودل به على طريقته العلمية فى تحقيق السير والاخلاق ، ولكنه كان قبل ذلك ترجمانا لسجية الخير والمودة فيه ، وعنوانا لرغبته فى الحياة الناجحة ورغبته فى تعليم الناشئين جميعا كيف ينجحون ويسعدون بالحياة

كان يقول لى مازحا : « اياك أن تكون من شعراء شكوى الزمان ومعاتبة الاخوان ؟ .. وحذار ان تحسب « البؤس » زينة للاديب وقسمة مقدورة للاذكياء ؟ » !..

وسألنى مرة : « الا تصدق قول القائل : ان الناس فى طلب الدين حتى يصلوا الى العلم ، وفى طلب العلم حتى يصلوا الى المال ؟ »

وقبل أن أجيب سؤاله ، ولعله سأله وهو لا ينتظر جوابى عليه ، قال : « انك ان صدقته او لم تصدقه تستطيع ان تكون على يقين من حقيقة حسابية لا خلاف عليها وهى : اجمع الدراهم والدنانير تجمع نفسها ! »

ولا اعرف أحدا من كبار الادباء الذين عرفتهم فى ايام نشأتى قد عناه امر عملى الذى اعول عليه فى معيشتى غير اثنين : احدهما الدكتور صروف ، والآخر محمد المويلحى الذى رشحنى للعمل بديوان الاوقاف »

فلما علم الدكتور صروف أننى استقلت من العمل بالمدرسة الاعدادية ، فكر مليا ثم قال : « اننى اعلم أن القيادة العسكرية تبحث عن مندوبين صحفيين وتفضل ان يكونوا من المسلمين ، لانها تنوى أن تندبهم من حين الى حين

للسفر الى خطوط القتال وراء القناة وفى حدود سيناء ، ولا تريد أن يكونوا متهمين فى رواياتهم عن مناعة تلك الخطوط ان كانوا على غير دين الترك المغيرين على البلاد

فلما تبين منى النفور من القيام بهذه المهمة الصحفية مع وفرة العائدة منها ، قال : « أرى ان شعورك غير مستريح اليها .. وقالها بالانجليزية : «You don't sympathize with the mission».

فأجبته : « نعم .. فان المسألة ان كانت من احدى جهتيها غارة تركية على حدود مصر ، فهى من الجهة الاخرى حرب بين الجيش التركى وجيش الاحتلال ! »

قال : « فليكن لك رأيك وشعورك » .. ثم سألنى أن أعود اليه بعد يوم لامر لا علاقة له بهذه البعثة ، فاذا به قد اتصل بمدير مدرسة وادى النيل ليبلغه انه يرشح لمدرسته معلمين يعرف كفايتهما الادبية وصلاحهما للتدريس ويسأله أن يزوره غدا ليلقاهما عنده اذا شاء

اما اختياره لهذه المدرسة بذاتها ، فقد كان سببه — كما علمنا بعد ذلك — ان له (اطيانا) باقليم الفيوم ، وانه عرف عبد الله وهبى باشا لهذا السبب معرفة وثيقة يوم كان عبدالله باشا كبيرا للمهندسين المشرفين على الرى فى ذلك الاقليم ، وقد ذكر لنا أن الباشا كان حسن العناية بأطيانه ، ولم يذكر لنا أنه هو — اى الدكتور صروف — كانت له يد فى تزكية الباشا عند كبار الرؤساء الانجليز ، ودفع الوشاية التى عرضته للمحاكمة وانتهت باستقالته دون تقديمه الى مجلس التأديب .

وقد كان من جراء ذلك ، ان عبدالله وهبى باشا لم يأمل خيرا فى وظائف الحكومة لابنائه ، فأنشأ المدرسة الثانوية باسم « وادى النيل » لابنه الاكبر ، واتجه أبناؤه الآخرون اسماعيل ويوسف وعباس للعمل المستقل فى المحاماة وفن

التمثيل وشركات الهندسة والمعمار

وانني لأذكر كلمة «الاطيان» هنا كما كان يرددها الدكتور في طيبة وديعة لا ننساها ، لاننا كنا نحس منه ارتياحا لتكرارها وهو يقول : « ذهبت الى اطياني » و « شكرت لعبدالله باشا عنايته بأطياني » ، و « فكرت في قضاء الصيف بأطياني » ، .. وكنا نحس مع هذا التكرار بغبطة بريئة كغبطة الطفل بكسوته الجديدة في غير عتو ولا خيلاء ونحس مرة اخرى اننا مع الفيلسوف العليم بحكمة الحياة وحب النجاح

وتعددت الزيارات لدار المقتطف بعد اشتغالي بمدرسة وادي النيل لان الدارين كانتا متقاربتين يومئذ بحي باب اللوق ، وكانت مكتبتي الخاصة لاتكفي للمراجعة في مباحث التاريخ والادب التي كنت أتطلب مراجعتها بدار الكتب وفي غيرها ، وقد رخص لي الدكتور في الانتفاع بمكتبة المقتطف ومجلداته القديمة كلما وجدت فيها منتفعا لبحوثي التي كان يسميها بالبحوث «السبنسرية» نسبة الى هربرت سبنسر امام مذهب الفلسفة والتقدم في الفلسفة الانجليزية ، اذ كان يقول كلما ناقشته في رأي مخالف لرأيه انها حجة سبنسرية : Spencerian argument

وان طريقتي في الاستدلال تشبه طريقة سبنسر في تحقيقاته ، وما كنت لأعيد هذا « التقريظ الشفوي » اليوم في كتابتي عنه لولا انه سجله في المقتطف حين قرظ ديوان صديقنا المازني ، فقال عن مقدمتي له انها اشتملت على تحقيقات تشبه طريقة سبنسر في الاستدلال

***

وعلى تعدد الزيارات لم يكن ينسى كلما زرته أن يسألني عما أصنعه لنفسي ولمستقبلي ، وعما أجده في المدرسة وفي شواغلي الادبية ، وكان يحثني كل مرة على اتمام دراستي لابي العلاء المعري التي نشرت منها مقالين في المقتطف ثم اقتضبتها

للعودة اليها مع زيادة الشرح والتحليل .. فاذا انتقل الحديث الى موضوعات المقتطف أو موضوعات الدكتور التي يفكر فيها ، فقلما كان الحديث يستطرد بنا الى غير اللغة ومسائل الاجتماع مما له علاقة بالدين والاخلاق ، وقلما عرض للسياسة الا ان تتفق الزيارة على اثر حادث من الحوادث البارزة التي لا يتخطاها المتحدثون في ابانها، وكذلك رأيته يوما وعلى وجهه مسحة الامتعاض الظاهر بعد أن تعاقب القاء القذائف على طائفة من الوزراء ورؤساء الدولة ، فقال بشيء من المرارة : « اننا تقدمنا جدا وأفرطنا غاية الافراط في التقدم .. ولم لا؟ .. هذه مبادىء التطرف في الوطنية تنتهي الى الطرف الاقصى من مبادىء الفوضويين ! »

وزرته يوما وهو يقرأ كلاما في الصحف عن نهضة الاسلام وعودة السلطان الى الامم الاسلامية يستشهد فيه الكاتب بالآية القرآنية من سورة القصص : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »

فسألني بلهجته اللبنانية متبسطا : « وليش ما عمل؟ »

قلت : « أن الخالق يريد ، وعلى الخلق أن يعملوا بما أراد »

فعاد يقول في جد ووقار : « نعم يعود الاسلام اذا عاد اهله الى صدق العقيدة .. » ثم يستطرد فيقول : « أن الاعرابي والمعزة لا يبقيان على شيء أخضر حيث ذهبا .. ولكن غيرة الاسلام هي التي ابتعثت من الاعرابي صانعا للدول والسلطنات » وأحسبه قال : « ان عالم الاسلام — محمد عبده — قد عرف طريق العودة ودل المسلمين عليه ، وما من طريق لتلك العودة غير العلم والاخلاق »

وربما جشمه البحث عن تحقيق كلمة لغوية أن يصعد السلم ليلتقط هذا الكتاب من هنا وذاك الكتاب من هناك، فلا يستريح او يحقق الصواب فى الكلمة قبل استعمالها فيما يكتب أو يترجم ..

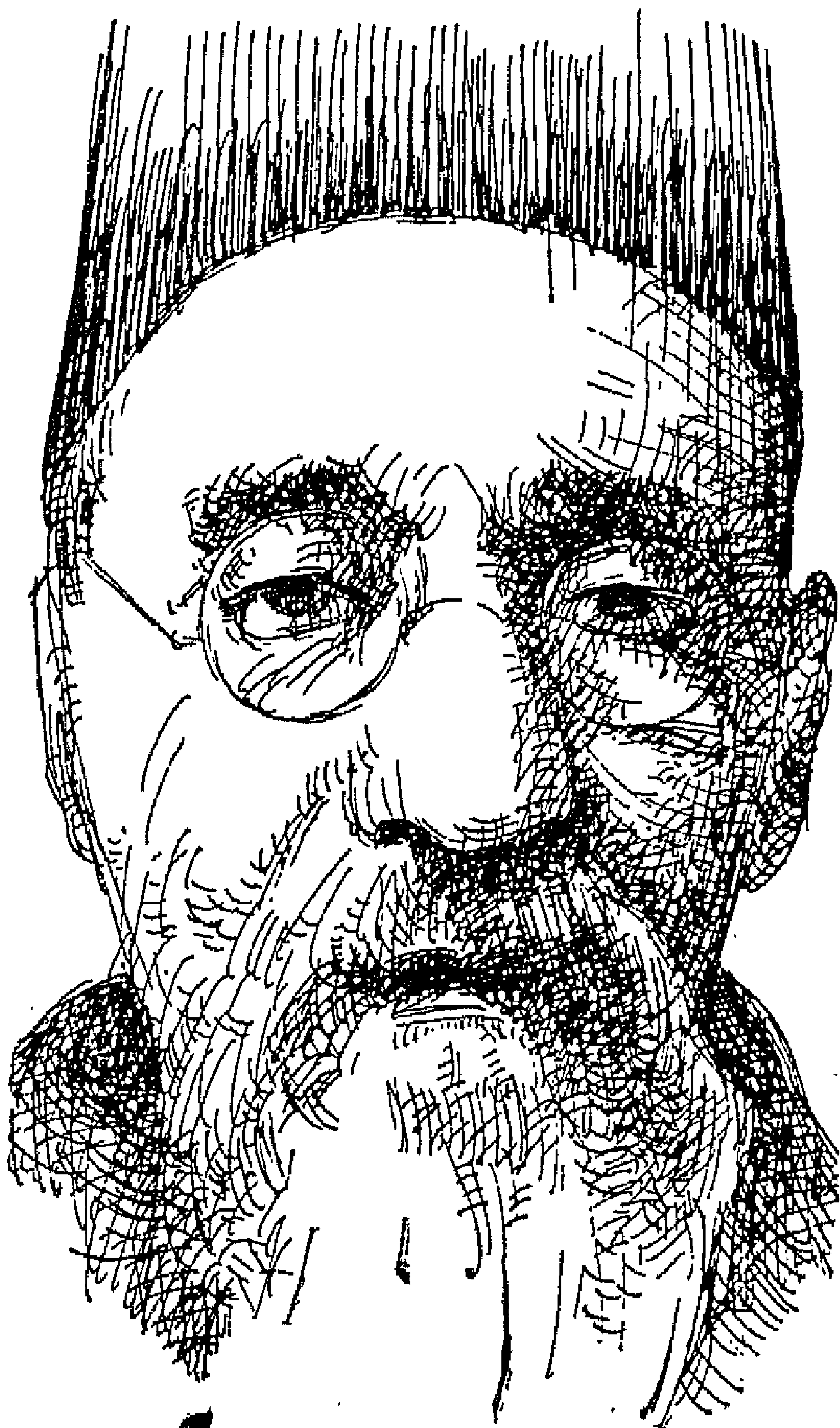
رأيته يوما على السلم يبحث عن كلمة «الشهية» هل وردت فى الكلام الفصيح بمعنى القدرة على اشتهاء الطعام؟ وهل من الجائز ان يقال على بعض التوابل والابازير انها تفتح « الشهية » ؟ .. فانتهى على أن كلمة المشهيات أصح ما يقال فى هذا المعنى، وأن القابلية خير من «الشهية» للدلالة على المقصود من تهيئة الجسم لطلب الطعام

ووجدته يوما يردد كلمات « نفق ونبق ونبك » بتفخيم الباء والكاف ، لانه كان يشك فى أصل كلمة « النفاق » ويحسب أن اجتماع الفاء والقاف فى هذا الوزن قليل فى اللغة العربية مطروق فى اللغات السامية والتركية

قلت له : « لقد اجتمعتا فى كلمتى الفقر والفراق وهما عربيتان بلا خلاف » . قال ضاحكا : «يا سوء ما اجتمعتا : فقر وفراق ! .. »

وتطرقت الاحاديث كثيرا الى مسائل الدين ، ولم يكن يكتم رأيه أن الخلاف قائم بين بعض العقائد وبعض المشاهدات العلمية ، ولكننى لم أسمعه قط يتكلم عن الدين فى اجماله بغير الاحترام ، ولم يكن له موقف من الديانات ورجالها غير موقف « سيد المجتمع » من العلية المسئولة ، وهو كما رأيت منه فى شتى المناسبات شبيه بموقف الرجل المهذب أمام الشيخ المطاع ، بما له من حق السن والخبرة فى كل ما خالفته فيه

وكذلك كان الفيلسوف الوديع فى عادات تفكيره وسلوكه: انسانا اجتماعيا يعطى العلم والعمل حقهما ، ولا ينسى حقا من حقوق العرف والتقاليد



جميل صدقي الزهاوي

- ١ -

من اللمحة الاولى تمثل لى كل ما فى طوية هذه «الشخصية» القلقة من نقائض التفكير :

حماسة تختلج لها كل اعصاب جسده ويتهدج معها صوته وتتلاحق فيه كلماته ونبراته ..

وفيم هذه الحماسة ؟..

فى النداء بالعقل وحده ، دون أن تخامره سورة من حماسة العاطفة والخيال ..

ذلك هو الزهاوى فى حديثه ، وذلك هو الزهاوى فى صفحات كتبه ودواوينه ..

دعوة الى برهان الواقع والمنطق، وصرخة من صرخات الشعور .. كأنها فقدت كل برهان وكل وسيلة من وسائل الاقناع ..

وكان لقائى الاول له فى مجلس الآنسة «مى» بمسكنها الاول عند ضريح الشيخ « المغربى » وهو من مزارات القاهرة فى حى من احيائها التى تسمى بالافرنجية ..

وقد ساقنا الحديث عن الضريح المعترض فى غير مكانه الى الحديث عن الخرافات التى تروى عن كرامات الاولياء، واستطرد به هذا الحديث الى ذكرياته عن مجلس الاعيان بالعاصمة التركية يوم كان عضوا من اعضائه العرب فى عهد السلطان عبدالحميد

قال : « ان قطعة من قطع الاسطول العثماني احترقت، فقام احد زملائه فى المجلس يقترح على الوزارة ان تشترى من كتاب « البخارى » نسخا بعدد قطع الاسطول تودعها فيها ، امانا من الحريق وضمانا للسلامة »

فوثب الزهاوى ليرد على الزميل ، وليقول له : « ان السفن الحربية لا تسير فى هذا الزمن بالبخارى .. وانما تسير بالبخار ! »

وقد وثب الزهاوى وهو يعيد هذه القصة ما استطاع الوثوب ..

وداعبته قائلا : « وهل سلمت من عاقبة هذا التجديف ؟ »

قال فى غير تمهل : « ان لم اسلم فاننى لم أندم !.. »

وأعجبت الآنسة « مى » بحديثه ، فأولعت به تستثيره لمناقشتى فى مسألتين لم يكن بيننا قط وفاق على واحدة منهما : مسألة الالم ، ومسألة المرأة

فقد كانت تدين بأن الالم طبيعة الحياة ، وكنت اعود بقضية الالم الى قضية المرأة كلما سمعتها تردد هذه العقيدة ، فما هى الا طبيعة الشكوى التى تحلو لبنات حواء ، وطبيعة الحنان الذى يسرها أن تعطيه كما يسرها ان تتلقاه ..

أما الخلاف على قضية المرأة ، فقد كنت فيها مع السيدة والدة الآنسة طرفا واحدا تنفرد أمامه الآنسة وحدها كلما اختلفنا على كفاية المرأة للنيابة وللانتخاب ، فى ابان معركة الدستور ..

وأذكر أننى استحلفتها يوما اذا تنافس امامها مرشح يمشى على قدميه الى صندوق الانتخاب ومرشح آخر

يصل اليه فى سيارته « الرولز رويس » فمن منهما يظفر بصوتها ؟

فأسرعت والدتها تجيب عنها : « انا اقول لك ولاحاجة بك الى كلامها : صاحب السيارة ولا خلاف ! »

فلما حمل الراية فى هذا الخلاف رجل « من جنسى » كانت شماتتها اكبر من شماتة الغلبة فى الرأى ، وظفقت تستعيده الى قضية المرأةتارة والىقضية الالم تارةاخرى كلما اوشكنا ان نفرغ منهما ، فلما اردت أن احسم هـــذا « النزاع » المدبر اخيرا وقلت للاستاذ : « اننى قد أرى معك أن الآلام اكثر من الافراح فى الحيـــاة .. » صفقت بيديها وضحك الزهاوى ، ولم امهله حتى حسبت عليه هذا الضحك حجة تفند دعواه، فسألته : « ألملك لاتنتصر كثيرا مثل هذا الانتصار ؟ »

ولسنا بصدد الافاضة فىهذه المسألة لبيان ما اعتقد فى نصيب الحياة من اللذة والالم ، ولــكننى اوجز ما عنيت بكثرة الالم مع انكار طبيعة الالم فى الحيـــاة .. عنيت أن الحـوائل دون الفرح قد لتكاثر وتتكرر ، ولكنها لا تمنع أن طبيعة الحياة بغير حائل هى الفرح والرجاء ..

***

ورأيت بقيـــة النقائض فى هذه « الشخصية » ـــ التى لا تعرف التوافق بينها وبين نفسها ـــ يوم زرته بمسكنه فى حجرته المفروشة الى جوار صحيفة الاهرام ، فقد كان نصير السفور الاكبر يخاطب زوجته من وراء ستار كثيف يحجبها عن النظر ويكاد يحجب صـــوتها الخفيض لو لم نجتهد فى الاصغاء اليه !

ولم اكد افرغ من التحدث اليه فى جملة عقـائده حتى تحققت أنها وثبـــات كوثبـــات اللاعب الرياضى فى ســـاحة واحدة : صعود وهبوط ثمهبوط وصعود ، ثم عود الى

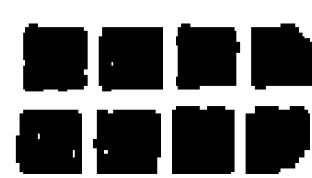
الصعود وعود الى الهبوط .. كأنمـــا كان كل وقت من اوقاته نموذجا مختصرا لادوار التطور فى العمر كله ، لولا انها ادوار لا تتسلسل على اطراد ..

وعلمت بسفره فى اللحظة الاخيرة ، فأسرعت الى محطة العاصمة اودعه وتمنيت ان اراه مرة اخـرى فى القـاهرة فقال : « ذلك ما ارجوه ، واحب الى ان اراك فى بغداد »

ثم تمت النقائض جميعا بعد سفره ببضعة أشهر .. اذ سألنى أحد قرائه فى تونس عن رأيى فى أدبه ، فأبديت ذلك الرأى كما اعتقـدته ، وقلت انه فى بحـوثه الفكرية ارجح منه فى معانيه الشعرية

وكان من الحق ان يغتبط نصير العقل على العاطفة بهذا الثناء الذى لا غنى فيه من وجهة نظره ، لو استقام على السواء فى ايمانه بالعقل دون الشعور والخيال ، ولكنـه غضب مما كان خليقـا ان يرضيه ، وجـاءنى البريد من بغـداد بخطاب عليه توقيع مسـتعار ، يقول كاتبه : ان مجلة « لغة العرب » للاب الكرملى تنوى ان تتناول ديوانك بالنقد اللاذع فى لفظه ومعنـاه ، وان الزهاوى صـديق للكرملى فى وسعه ان يثنيه عما ينتويه !

ان فى هذه المناورة « البريئة » دلالة على طيبة فى غضب الرجل أظرف وأطرف من طيبته فى رضاه ، وانها ــ ولا ريب ــ لن تصدر من قلب يضمر الكيد ، او يكون له من الكيد حظ أوفر من حظ الطفل البرىء !



— ٢ —

اطلعت في مجلة « المكتبة البغدادية على مقال للسيد اكرم زعيتر اعن (ذكرياته لشاعر العراق الزهاوى) قال فيه من حديث جرى بينه وبين الشاعر فى آخر لقاء له قبل سفره من بغداد :

« قال — أى الزهاوى — هل اطلعت على الاوشال ؟ قد كنت أظن وقد رق عظمى أن زمنى لن يمتد بى كثيرا ، فسميت مجموعة قصائدى الاخيرة « الاوشال » ثم نظمت بعد ذلك قصائد أخرى ، أعتقد أنها آخر ما انظم فى حياتى التى أرانى مفادرها قريبا ، وقد جمعتها فى ديوان سميته الثمالة ليكون آخر ما يطبع لى ... »

قلت : « وهل للاستاذ شعر لم يطبع غير الثمالة ؟ »
قال : « أجل .. انه ديوان لاينشر فى القرن العشرين »

وكنت قد علمت من الزهاوى نفسه أن له شعرا كثيرا لاينشره ، وانه سيوصى بنشره بعد وفاته . وفارق القاهرة وهو يكرر لى حديثه عن الشعر المطوى الذى يعتقد أنه اذا نشر فى يوم من الايام فلن يتسع لنشره بلد غير القاهرة بين البلدان الشرقية

وقد سمعت أخيرا ان كتابا ظهر فى القاهرة باسم « الزهاوى وديوانه المفقود » فاعتقدت لاول وهلة انه هو مجموعة الشعر التى تحدث عنها الزهاوى الى الاستاذ أكرم زعيتر ببغداد وأومأ بنبأها الى فى القاهرة ،

واطلعت على الكتاب لمؤلفه الاديب « هلال ناجى » فصدق ظنى فى موضوعه ، وان كان المؤلف الاديب قد توسع فى أبوابه فتناول فيه مباحث شتى عن الزهاوى وما كتبه وما كتب عنه ، غير ديوان « النزغات » وهو اسم الديوان المفقود

وحرص المؤلف على تحقيق نسبة « النزغات » الى الزهاوى ، فاستقصى الشواهد والقرائن التى تدل على صحة هذه النسبة .. وكلها مقنعة ، بل قاطعة ، فى اثبات نظم الشاعر لجملة القصائد والمقطوعات التى احتواها ديوان « النزغات » ، كما تركه الزهاوى عند تسليمه الى الاستاذ سلامة موسى ، وعند انتقاله منه الى الدكتور زكى أبى شادى بغير زيادة فيه ، وهو مرقوم على الآلة الكاتبة غير مصحوب بالاصل المخطوط

على أننا نستطيع أن نصحح نسبة النظم فى هذا الديوان الى الزهاوى من الدليل « الداخلى » فى أسلوب الشاعر « النظمى » كما يقول النقاد ، واظهر مافى هذا الدليل « الداخلى » أن أبيات القصائد والمقطوعات تشتمل على كثير من ذلك الشد والفتل الذى يطوع به الشاعر كلماته لأوزان العروض

فالشاعر الذى يقول :

عاش فى الغاب القرد دهرا طويلا
قبل أن يلقى للرقى سبيلا

هو الشاعر الذى يقول فى ديوان النزغات :

ــ هذه الدنيا دار كل جزاء ــ

وهو الذى يقول فيه :

عسى الذى عاف أرضه أن
يضـــــمه عالم جـــديد

وغير ذلك كثير من « الاسلوب النظمى » فى ســـائر منظومات الديوان ..

أما الاسلوب « الفكرى » فهو كذلك مطابق لاسلوب الزهاوى فى كل مانظم من الشـــعر منذ عالج نظمه فى أوائل حياته ، ومما لاشك فيه أن أفكار الديوان المفقود ليست غورا جديدا فى تكوين آراء الشاعر مع الزمن كما قد يتوهم القارىء من قول الزهاوى أنه آخر مانظم ، وانه يحتوى أفكارا لم ينشرها قبل ذلك فى حياته

اذ المحقق من معارضة دلائل الشك والتردد ودلائل الايمان واليقين ، أن هذه الدلائل جميعا قد وجدت فى مؤلفاته الباكرة كما وجدت فى مؤلفـاته الاخيرة ، على درجة واحدة من القوة والوضوح

واغلب الظن أن العـالم الدينى المفـكر محمد فريد وجدى قد أصاب الحقيقة حين قال فى مجلة الازهر مما نقله الاديب هلال ناجى فى الصـــفحة الـ « ٣٠٠ » من كتابه .. فانه لاحظ أن الزهاوى : « يكتب الشىء ثم ينقضه بقول آخر كما فعل فى كتابه الكائنات .. فقد جرى فيه على أسلوب الماديين .. ثم ختمه بكلمـة تحت عنوان « ابتهال » حقر فيها كل الآراء التى قررهـــا فى الكتاب ، وذكر أنه انما جرى فيها على اسـلوب الماديين لبيان مذهبهم .. اما هو فيبرأ الى الله منهم ومن آرائهم ، ويرجو من يقرأ الكتاب الا يعتد بما قرره فيه »

ثم عقب الاستاذ وجدى على هـذا الاسلوب قائلا :

« انه أسلوب فى الكتابة كل مايمكن ان يعتذر عنه انه يلجأ اليه هربا مما قرره »

وكل ما نزيده على تعقيب الاستاذ وجدى ان الزهاوى قد يبادر فى مفتتح كتابه الى تحقير آراء المتهجمين على الحقائق الكبرى كحقائق عالم الغيب وما يسميه الباحثون بحقائق ما وراء المادة ، فانه افتتح كتابه «الكائنات» الذى الفه فى مقتبل صباه بهذين البيتين :

وما الارض بين الكائنات التى ترى
بعينيك الا ذرة صغرت حجما

وانت على الأرض الحقيرة ذرة
تحاول جهلا أن تحيط بها علما

وهذا غاية ما يقوله المفكر المتواضع أمام عظمة الكون لكبح الغلاة من الباحثين فى حقائقه عن الشطط الاهوج والغرور الكاذب بقدرة العقل البشرى على ادراك هذه الاسرار المطبقة حول حقائق الوجود

والذى نلاحظه فى مواقف الزهاوى العقلية بين الشك واليقين سهولة شكوكه وسهولة ردوده عليها فى وقت واحد :

فكل شكوك الزهاوى بلا استثناء مما يقبل الرد والاستخفاف من النظرة الاولى ، لانها مبنية على تصور العامة الجهلاء للخرافات والاساطير التى يلصقونها بالدين وهو برىء منها بعيد عنها ، وليس من هذه الشكوك شك واحد يقوم على فهم الدين كما ينبغى أن يفهمه المؤمنون به على صحته ، وقد كان خطأ الزهاوى الاكبر انه يتلقى حجة العقائد من الاوهام الشائعة بين المقلدين دون الثقات المجتهدين . وانما تقوم قضية الدين على الضمير الانسانى الذى يناط به التمييز بين كل دعوة تشيع فى العالم ، ولم

تقم حجـــة الدين قط على ما يفهمه المقلدون أو يفهمـــه المغرورون من الادعياء . .وانما تقوم حجته على البصيرة الصادقة والوحى الأمين

لا جرم كان تقريره لقواعد الايمان بعد ذلك سهلا غنيا عن جهد التردد والبحث فيأمثال تلك الشكوك ، ومن حق من يبتلى بأمثال تلك الشكوك أن يشـوب يقينـــه الى يقين الزهاوى الذى عبر عنه بهذه الابيات فى موقف الحساب :

قال ما دينك الذى كنت فى الد
نيـــا عليه ، وأنت شـــيخ كبير

قلت : كان الاسلام دينى وهـــ
ـــو دين بالاحتـــرام جـــــدير

قال : من ذا الذى عبدت فقلت
الله ربى وهو الســـميع البصير

وقبل ذلك يقول من كلمة منثورة : لم آت فى حيـــاتى أمرا ادا ولا ارتكبت منكرا .. انظم الشعر وأودعه عصارة شعورى وتفكيرى ، واجعله منبرا ادافع منه عما يتراءى لى انه الحق ، غير حاسب لمخالفة الناس اياى حسابا ... وهذا ما كان يثيرهم علي ويجعلهم يعملون على معاكستى حتى هموا مرة ان يقتلونى مع انى معتقـــد بالوحى مؤمن بالانبياء وبالمرسلين وملائكة الله وكتبه ، وقمت بشـــعائر الدين كلهـــا فصمت وصليت وزكيت وجاهدت وحججت الى بيت الله وزرت قبر رسوله الكريم »

وهو الذى ردد هذه الشهادة فى مواطن كثيرة من شعره، كما قال فى هذا المعنى غير مرة :

أنا ما كفرت كل عمـــر ى بالكتـــــاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنعـــ ـــت للنبى المرســـــل

وانه بمثل هـــذا اليقين لخليق أن يكذب كل هاتيـك الشـكوك التى تثيرها أوهام الجهـلاء وخرافات أصحاب الخرافات من المقلدين

وجملة القول فى الديوان المفقود وفى الدواوين المنشورة انها طور واحد من الفكر لم يتغير فى مدى خمسين سنة ، ويوشـك أن ينقل كل بيت فى ديوان من هـذه الدواوين المتتابعة الى ديوان آخر صدر قبله او بعده ، بغير اختلاف فى المعنى أو فى النسق أو فى الاسلوب ، الا ما تقتضيه المرانة الطويلة من تيسير النظم فى نهاية الشوط بعد تعسر فيـه عند الابتداء

والسرعة الى التفكير ، مع السرعة الى العدول عن الفكرة فى وقت واحد ، هما آفة العجلة فى مواجهة الزهاوى لمسائل العلم والادب او مسائل الاجتماع والاخلاق ، فليس أسرع منه الى اختطاف الرأى الشائع أو اختطاف الرد عليه ، ونحسب أن بنية الرجل « مسئولة » كما يقولون عن هذا الولع بالسرعة والقلق من الاستقرار .. فان مصابه بالداء الذى أقعده عن الحركة قد بدأ معه اضطرابا مقلقا قبل أن يثقل على أعصابه ويثقله عن حركته ، وما اكثر ما نظم فى «الصراط» وصعوبة العبور عليه من شعره الاول ومن شعره الاخير

ولا ريب عندنا ، ولا عند قراء الزهاوى شعرا ونثرا ، فى قدرته الفكرية ولا فى ملكته الرياضية ولكنك تراجعه من بواكيره الى خواتيمه فيبدو عليه انه يثب الى الآراء وثبة بعد وثبة ولا يتطور معها على امد مديد يتصل فيه الانتقال من مكان الى مكان، فهو فى وثباته المتلاحقة على مكان واحد يصعد منه وينزل اليه، ويثبت عليه صاعدا ونازلا ومترددا ومستقرا، وهكذا كان فى آخر ديوان كما كان فى اول ديوان وللقارىء بعده أن يبقيه حيث شاء ، بما هو اهل للبقاء .

جاءني الخطاب الآتي من أحد القراء بتونس .. قال كاتبه الاديب بعد ديباجة التعارف :

« أما الآن فبقيامكم ضد الثرثارين ، وتقويضكم لبناء ما كانوا يحسبونه آثارا أدبية ، واماطتكم اللثام عن كل من كنا نعدهم من الشعراء الفحول والكتاب المبرزين .. قد أسفرت النتيجة عن تجدد حقيقي في اللغة والادب ، اذ أدركوا ما ترمون اليه في انتقاداتكم فهبوا يتبارون فيه جاهدين قرائحهم وصارفين مهجهم نحو « الحياة » .. نحو « الجمال » .. نحو « المثل العليا » .. تلكم الكلمات الحية التي ما وجهت طرفي نحو أي سطر من فصولكم ومطالعاتكم ومراجعاتكم ونحو أية صفحة مما تكتبون الا عثرت عليها .. ولصرف مهجتكم الى هذه المطالب ونقدكم الصحيح الخالص من الاغراض ، وسعيكم وراء الحقيقة — رضي القوم أم غضبوا — أتيت اعرض عليكم كلمة في رفيق صباي ومربي روحي راجيا منكم التفضل بابداء رأيكم فيه ولكم الشكر الجزيل سلفا .. لأن كل هاتيكم الخلال جعلتني كما جعلت غيري يعتبرون قولكم الفصل فيمن تكتبون له أو عليه

ذلكم الرفيق يا سيدي هو فخر العراق كما تقولون جميل صدقي الزهاوي ، فقد عرفته منذ دخلت المدرسة وولعت بديوانه حتى أنني كدت أن احفظه نثرا ونظما ، فمن نزعته في الشعر الى قوله في القبر :

ولست بمسئول اذا ما سكنته
آكنت عبدت الله قبلا أم اللاتا

الى قوله فى مهاجميه :

يا قوم مهلا مسلم أنا مثلكم
الله ثم الله فى تكفيرى

وعندما أسأم استمرار قراءتى فيه ، أعمد بعد تحضير واجباتى المدرسية الى مطالعة أحد الدواوين فأرى نفسى كأننى انتقلت من روضة حافلة بازهار من كل صنف زاهية بالماء الزلال الجارى و « الهزار » على أغصان اشجارها يشدو بنغماته العذبة الشجية الى أرض قاحلة لا ماء فيها ولا شجر ولا هزار .. فلا البث ان اعود الى ديوانى الأول ، وشغفى به يزداد كلما رأيته سابقا وغيره لاحقا .. وهكذا ..

وما أقوله لكم فى ديوانه ، أقوله لكم فى مباحثه التى تنشر فى « الهلال » ، حتى اننى لم أجد فيه فصلا من فصول جميل انقبضت نفسى لذلكم كثيرا .. واذا رأيت فيه مبحثا له قدمته على سائر الموضوعات ، فقرأته وأعدته المرار العديدة حتى تعلق بذهنى جمل منه .. ومن الجمل أفكار ، ومن الافكار مناقشة ، تنتهى بى الى قضاء جزء كبير من أوقاتى معه . وحمادى القول ان السيد جميل لهو أحق بالنقد من سواه ، وبمن يظهر آثاره الأدبية والفلسفية . وهذا لا يتصدى للبحث فيه الا أمثالكم الذين يقدرون الأدب حق قدره ، اذ من العار أن نبقى كما قال فيلسوف العراق لا نعرف قيمة للاديب فى قطرنا الا بعد مماته :

من بعد ما فى قبره   أوصاله تتبعثر
ماذا من التكريم ير   جو ميت لا يشعر

هذا واننى اعتذر الى سيدى الأستاذ من تجرئى على مكاتبته ، اذ لست ممن يراسلون أمثاله .. ولولا اعجابى ب « جميل صدقى الزهاوى » وحبى لناقد خبير ينشر للقراء آراءه ، ويبين لهم فجها من ناضجها ، ما تسرعت فى المراسلة . أترجى ما يقال فى فخر العراق وعنه »

جاءنى هذا الخطاب من شهر مضى ، وفيه غير ما نشرت هنا كلام مسهب فى مثل هذا المعنى ولواحقه .. فتوسمت من لهجته وخلوص اعجابه أدبا جما ونفسا مستشرقة الى الحقيقة ، وهممت أن أجيبه الى رغبته ولكننى ترددت لاننى أعلم اننى استطيع ان اتبسط فى شرح كل رأى أراه فى الأدب والشعر ، دون ان اعرض للأستاذ الزهاوى نقدا أو تحبيذا وخلافا أو وفاقا ، ولأننى أوقر هذا البـاحث الفاضل وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته فى جهاده وغبنه بين قومه ، فلا أحب أن أقول فيه ـ لغير ضرورة من ضرورات البحث ـ مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ما له عندى من القدر والرعاية .. ثم عن لى أن فى الكلام عليه مجالا لكلمة أخرى تقال عن التفريق بين الملكة العلمية والملكة الشعرية وبين بديهة الفيلسـوف وبديهة العالم ، لا ضير منها على أحد عامة ولا على الأستاذ الزهاوى ومن يعجبون به خاصة .. اذ هو ممن يقال فيهم قول حق لا يغضب الطبيعة القوية والنفس المروضة والضمير الواثق من قصده وعمله ، فكتبت هذا الفصل الموجز آملا أن أجيء فيه بحقيقة تسوغ المساس برجل لا أحب أن امسه بغير ما يرضيه

أول كتاب قرأت للزهاوى كان كتاب « الكائنات » أو

رسالة الكائنات ، لأنها عجـــالة مختصرة من القطع الصغير .. وكان ذلك قبل عدة سنوات ، وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة ومباحث الدين والفلسفة .. فراقنى من الرسالة سداد النظـــر وقرب المأخذ ووضوح التفكير والجـــرأة على العقائد الموروثة مع ما فى ختام الرسالة من اعتذار لا يخفى ما وراءه ولا يغير رأى القارىء فيما تقدمه . وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء باشارات ابن سينا ونجاته ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب .. ثم قـــرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار ، وكان آخر ما قرأت له رسالة « المجمل مما أرى » ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين الى حين

هل الزهاوى شاعر ، أو عالم ، أو فيلسوف ؟.. ان آثاره فى الشعر والنثر تدعوك الى هذا السؤال ، فمباحثه مما يتناوله الفيلسوف والعالم ، ونظمه يسلكه بـــين طلاب المقاصد الشعرية .. وقد يختلف جواب النـــاس على السؤال الذى سألناه فيمده بعضهم من الفلاســفة وبعضهم من الشعراء ، ويميل به بعضهم الى فريق العلماء .. أما انا فرأيى فيه أنه صاحب ملكة علمية تطـــرق الفلسفة وتنظم الشعر بأداة العلم ووسائل العلماء

الشاعر صاحب خيال وعاطفة ، والفيلسوف صـــاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صـــاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الاشياء التى يحســها ويدركها او يمكن أن تحس وتدرك بالعيان ومـــا يشبه العيان ، فاذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكتـه المنطقية لا حجاب عليها .. ولمست فى آرائه مواطـــن

التحليل والتعليل ، ولكنك تضل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا ، وتلتفت الى البديهة فاذا هى محدودة فى أعماقها واعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الأغوار ، فهو يريد أن يعيش ابدا فى دنيـــا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ، ولاتنطبق فيها الاجفان ولا تتناجى فيها الاحلام .. وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا او شمسا ، ولكنها كذلك ليل وغياهب لا تجدى فيها الكهرباء ! وقد خلق الخيال والبداهة للانسان قبل ان يخلق العقل ، ثم جاء العقل ليتممهما ويأخذ منهمـــا لا ليلغيهما ويصم دونهما اذنيه .. فأما الزهـــاوى فهو يحاول ان يلغى الخيال والبداهة ، ويظن أن الانســـان لايتصل بالكون الا بعقله ولا يهتدى الى الطريق المفطـور الا بعقله ، وليس هذا بصحيح فى حكم العقل نفســـه اذا أنصف العقل ووفى لمنشأه الاول وقصارى مطمحه الاخير

ان كل منطق لا يكون صحيحا الا اذا دخل فى حسابه امران محيطان بنا متغلغلان فينا لا مهرب منهما ولا روغان .. نعنى بهذين الأمرين « المجهول » أولا و « العاطفة » ثانيا ، فهما راصدان لكل قضية منطقية يهدمانها هدما ما لم يكن لهما فى زواياها مكان مقدور ، فالعالم لا شـــأن له بالمجهول وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسبها الشعراء ، وهو ، اذا أراد ، حصر نفسه فى معمله وخرج منه بنتيجة عملية لاغبار عليها من ناحية النقد والاستقراء .. ولكن الفيلسوف اذا خرج الى دنيا لا مجهول فيها ولا عاطفة توحى اليها انما يخرج الى دنيا غير دنيانا هـــذه .. وانما يأتى لنا بفلسفة خليقة بعالم آخر غير عالمنا الذى يحيط به مجهوله وتعمل فيه عواطفه ، وقد يصيب بمنطقه هذا فى حقائق الأرقام والاحصاءات ولكنه لا يصيب به فى معانى الشعور وأسرار الحياة ، اذ كيف يحسب حسابا

لهذه المعانى والاسرار وهو لايحسنها ولاينقاد لدوافعها ؟ .. وكيف يصيب فى المباحث النفسية وهو لايحسب حسابا لتلك المعانى والأسرار ؟

من منا يكون محبا معقولا مطابقا للمنطق اذا هو نظر الى حبيبه بالعين التى يراه بها جميع الناس ؟ ان نظرك اليه قد يكون معقولا مطابقا للمنطق اذا نظرت اليه بتلك العين التى يراه بها من لا يحبونه ولا يؤثرونه على سواه ، ولكنك انت نفسك — انت الناظر — لا تكون « محبا منطقيا » موافقا للمعقول والمعلوم من شئون المحبين حين تتساوى انت وسائر الناس فى الاعجاب بحبيبتك ، لأن المحب المعقول هو الذى يرى حبيبته بعين لا يراها بها الآخرون .. وكذلك الحياة قد تكون انت منطقيا اذا عرفتها بالعقل وحده كما يعرفها غير الأحياء لو كان غير الاحياء يعرفون الحياة .. ولكنك لا تكون « حيا منطقيا » اذا أنت لم تعرفها كما يعرفها كل حى مخدوع بها غارق فى غمرة عواطفها وأشجانها .. فكن لنا « حيا منطقيا » أو انت اذن انسان لا يعنينا رأيه فى الحياة لأنه ليس منها بمكان قريب أو على اتصال وثيق

والزهاوى تخونه الحقيقة حيث يسعى اليها على جناح من العقل ، لا يعضده جناح من الشعور .. فلم أغتبط بتعرض الشعور لتفكيره مثلما اغتبطت به وهو يحاول — بالمنطق — أن يثبت الرجعة الى هذه الأرض بعد الممات أو الى عالم آخر ينتقل اليه الانسان ، فهو يقول فى «المجمل مما أرى » أن « مظاهر الحياة من مظاهر المادة التى ليست فى أصلها الا قوة . وان هذا الفضاء الذى صرحت بأنه لايتناهى ، يحتوى على عدد غير متناه من العوالم النجمية ، وان فى كثير من هذه العوالم نظاما مثل نظامنا الشمسى ،

وان فى ذلك النظام ارضا مثل ارضنا ، وفى بعضها أرض نشبه ارضنا الى زمن محدود ثم تختلف عنها ، وان فى كل أرض مشابهة لارضنا انسانا مثلى وآخر مثلك واخرين مثل غيرنا من الناس ، قد ولدوا من آبائهم كما فى أرضنا ، وقد جرى لآبائهم فيها ما جرى لهم فى هذه تماما ..

« وبعض هذه الأرضين اليوم مثل أرضنا فى حالتها الحاضرة ، وبعضها أخذت تهدم ، وبعضها فى بداءة تألفها .. فاذا مات الانسان فى أرضنا ، فهو يولد فى غيرها من نفس آبائه الذين ولد فى أرضه هذه منهم ، واذ أن هذه الارضين لا تتناهى فكل فرد من الناس غير متناهى العدد .. غير أنه فى كل أرض واحد يجهل أن له أمثالا فى هذا الكون اللامتناهى ، وان الذى يشقى فى هذه قد يسعد فى التى تشبهها الى زمن محدود ثم نخالفها فان عدد هذه المخالفات أيضا غير متناه ، والذى يسعد فى هذه قد يشقى فى تلك فالطبيعة عادلة قد قسمت السعادة والشقاء على السواء .. فان زيدا اذا كان هنا شقيا فهو فى أخرى سعيد ، واذا كان سعيدا فهو فى تلك شقى . وأرضنا هذه بعد أن تصير الى الأثير تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من السنين ، فيجرى عليها تطوراتها طبق ما جرت فى دورها هذا ، ويتولد آباؤنا كما تولدوا ، ونتولد منهم كما تولدنا ، ونموت كما فى هذه المرة وقد تكررنا من الأزل وسوف نتكرر الى الابد ..

« ورب قائل : ما الفائدة من هذا التكرار وهو لا يتذكر ما مر به فى أدواره الأولى ؟ فأجيب : ان فائدة التذكر هى العلم ، فاذا حصل الينا العلم بطريقة أخرى فهو مثل العلم بالذكر وكفى به نفعا انه يطامن الانسان أن موته مؤقت ليس ابديا . وهذه النظرية مبنية على أسس ثلاثة .

الاول ان العالم بما فيه من الاجرام غير متناه . والثانى أن لا شيء يذهب الى العدم بل ينحل تركيبه وينحل الى الاثير بعد تطورات متعددة .. وهذا الاثير يتركب من جديد فيكون مادة بعد تطورات متعددة ، ثم ينحل ثم يتركب الى ما لا يتناهى . والثالث أن جواهر كل جرم من الاجرام متناهية العدد مهما كثر هذا العدد ، وأقدارها كذلك متناهية .. ولا يمكن أن يوجد جرم واحد غير متناهى السعة . والأرض هذه تتألف فى أزمنة غير متناهية على أشكال متناهية لان جواهرها متناهية ، وشكلها الحاضر أحد تلك الأشكال غير المتناهية التى تتألف عليها وتدور من أحدها الى الآخر .. فهو كغيره من الاشكال يتكرر الى مالا نهاية له ، والانسان جزء متمم لشكلها الحاضر .. فهو أيضا يعود بشكله وعقله والا لم يكن الدور تاما ، والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدورى الاعظم »

هذه هى نظرية الدور كما أجملها الاستاذ الزهاوى فى رسالته « المجمل مما أرى » .. فالمنطق هنا يتكلم ، ولكن حب الحياة هو الذى يحركه الى الكلام !.. على أنه بعد منطق لم يمتزج بالحياة فى الصميم لانه يتعزى بالعلم ، والحياة لا يعزيها أن تعلم بأنها خالدة وانما يعزيها أن تشعر بالخلود ، وهو بعد هذا وذاك منطق خاطىء لانه يستلزم الدور ولا شيء يدعو الى استلزامه .. فما دامت الجواهر لا تتناهى ، والحركات لا تتناهى ، والفضاء لا يتناهى فالنتيجة أن تكوين الاجرام بأشكالها لا يتناهى .. ولا حاجة الى تكرارها وعودتها هى بعينها مرة بعد مرة الى غير نهاية ، ويجب الآن أن نضرب صفحا عن لا نهاية الزمان التى تخدعنا باحتمال هذا التكرار فيما يلى أو فيما سبق قبل الآن ، يجب ان نضرب صفحا

عن لا نهاية الزمان لأن لا نهاية الفضاء موجودة فى هذه اللحظة ، فأى شيء فيها يستلزم ان الارض مكررة فى مكان غير مكانها الذى هى فيه ؟.. لا شيء !. واذا لم يكن انسانا مكررا على هذه الأرض بعينها ، فلماذا نفرض أن كل انسان مكرر فى أرض تشبهها تمام الشبه فى هذا الفضاء السحيق ؟

***

ثم الى أين ننتهى من كل ذاك ؟.. ننتهى الى أن الأستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع ، وأنه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجتزأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعور ، فمن ينشده فلينشد عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه واقبال عليه فى هذا المجال وان خير مكان له هو بين رجال العلوم ورادة القضايا المنطقية .. فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان



— ٤ —

قرأت فى زميلتنا « السـياسة الاسـبوعية » ردا للاستاذ الزهاوى على مقال كتبته عنه مجيبا به الاديب التونسى الذى سألنى ابداء رأيى فيه ، وكان فحوى ذلك المقال ان نصيب الاستاذ الزهاوى من الملكة العلمية اكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية .. ولم يرض الاستاذ عن هذا الرأى فكتب رده فى السياسة الاسبوعية يناقشه ويناقض الاسباب التى بنيته عليها .. فهو يحب أن يقول انه فيلسوف وانه شاعر لايقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية . وليس يضيرنى أنا أن يزيد عدد الفلاسفة والشعراء فى الارض واحدا أو أكثر ، فاننى لم أتكفل بهم ولا تحسب على أخطاؤهم أو يختلس منى صوابهم . ولست ممن يحبون الجـدل فى غير حقيقة تجلى او رأى يستوضح : فان الجدل الذى يطول فيه الاخذ والرد لغير شىء من هـذا هو لغو كلام وفضول بطالة .. فاذا رجعت اليوم الى الموضوع فليست رجعتى اليه لحرص على تقليل حظ الزهاوى من الفلسفة والشعر ، ولا لمطاولة فى الجدل ، وانما هى لاستخراج الحقيقة التى أردتها من رد الاستاذ نفسه ، وبيان المعنى الذى ذهبت اليه من طريقة الاستاذ فى ملاحظة الاشياء وفهم اعمال الناس

ليس للمجهول ولا للعاطفة حسـاب كبير فى أدراك

الاستاذ الزهاوى لاعمال الانسان ، ولهذا فانه يخطىء فى تصورها والحكم عليها ومتابعتها الى أسبابها وغاياتها ، وفى رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف ـ فضلا عن الشاعر ـ الى حسبان ذلك الحساب ، وفهم الانسان ومكانه فى هذا الكون كما هو انسان فى حقيقته لا كما يتصوره الذين يستهدون بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى الشعور .. واليك بعض هذه الادلة مأخوذة من ذلك المقال :

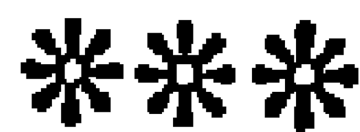
(ا) يقول الاستاذ الزهاوى : « من طار بجناح العقل أخيرا لندبرغ وصل الى باريس من نيويورك فى ٣٤ ساعة فليخبرنى الاستاذ الى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة ؟ » .

وأنا مخبره الى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة أخبره أنهم وصلوا من نيويورك الى باريس فى ٣٤ ساعة ولعلهم يصلون غدا فى أقل من هذه الساعات ، لأن لندبرغ لم يطر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل بل بجناح العاطفة وحدها طار ، وعلى جناح العاطفة وحدها تلقته الجماهير التى هتفت له هتاف الحمد والاعجاب . ولم يسبق لندبرغ طائر فى الفضاء ، ولن يلحق به طائر مثله ، إلا كانت العاطفة هى محركه وهى جناحه وهى جزاؤه اذا نجح وعزاؤه اذا خاب ! وليس الطيران كله الا حلما من أحلام العواطف أجج الرغبة وألهب الخيال فجاء العقل كالخادم الاجير يحقق ما تعلقت به الاخيلة واتجهت اليه الرغبات

وأى عقل يزين للندبرغ أن يخاطر بحياته بعد كارثة المفقودين فى هذا المضمار القاتل ؟ وأى عقل يزين له أن يرفض المال الذى انثال عليه من شركات الصور وطلاب

المحاضرات والمســـاجلات ؟ ليس العقل هو الذى اعطانا الطيارين وآلات الطيران ، وانما هى دوافع الاحســـاس وبواعث الخيال ، وهى « العواطف » التي تحمل الانسان على كل جناح اذا قعد به التفكير وحده فى قرارة العجـز والجمود.

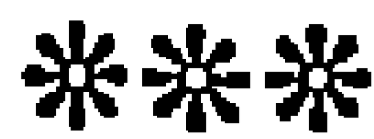
ونتجاوز نحن هذا الحد الى ما بعده ، فنقول ان الغربيين فى هذا الزمان يسبقوننا فى ميدان الكشف والاختـراع لانهم يطلبون من الحياة فوق ما نطلب.. لا لأنهم يحسنون ما لا نحسنه من الفهم والتفكير ، فكل مصـــنوع يصنعه الغربيون نســـتطيع نحن الشرقيين أن نفهمه ونصنع على مثاله. ولكننا لا نستطيع البداية لانها وليدة البواعث وهى قاعدة عندنا ناهضة عندهم .. فالتفـــاوت بيننا وبينهم تفاوت في البواعث أى فى الخلق والاحساس وليس تفاوتا فى العقل والتفكير ، وطريقتنا نحن فى الاحساس بالامور هى التى ينبغى أن يتناولها الاصلاح وليست طريقتنا في فهم ما يحتاج الى الفهم والتحصيل.



(٢) ويقول الاستاذ الزهاوى : « أنا مادى لا أرى لغير الحواس أبوابا للمعرفة مستثنيا من ذلك معـــرفة ذاتى ، ولا آذن للخيال أو العاطفة أن يلجا باب الشعر الا اذا اطمأننت الى أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التى ما زلت أتغنى بها فى شعرى »

أما الذى أقوله أنا فهو أن الحياة هى خلقت الحواس ، وهى صقلتها وهذبتها وألهمتها أن تعى ما يتصل بها ، وان الحياة لم تعلن افلاسها بعد خلق الحواس والا قبله فهى شىء أكبر من الحواس وهى على اتصال وثيق لا انفصام له بهذا الوجود قبل أن تفتح بينها وبينه نوافذ الآناف

والاذواق والاسماع والابصار .. وأن الحواس تتفاضل بقدر ما فيها من الشعور والاستمداد من باطن النفس لا من ظواهر الاشياء .. فالدنيا لا تتغير . ولكن نظر الشاب اليها غير نظر الشيخ واحساسه بها على الجملة غير احساسه .. لماذا ؟ لان الحواس تستمد شعورها من القوة الحية التى خلقتها ونوعتها وهى قادرة على تغيير الخلق والتنويع . وليس بالمنطق الصحيح ذلك المنطق الذى يجهل أن الوظيفة تسبق العضو ، وأن القوة الحية تنشىء الحاسة وتزيدها وتهذبها .. فهذه القوة الحية تدرك ما هى فيه وان اختلف اسلوب ادراكها عن أسلوب الحواس فى الادراك ، بل لولا هذه القوة الحية الخالقة لما عملت حاسة فى الجسم شيئا ، فلتكن للحواس اذن معرفتها المحدودة التى نعهدها فى العلوم والصناعات ، ولكن لا يعزب عنا ابدا ان وراء هذه الحواس ينبوعا لا ينفذ من وسائل الادراك ، وان كان ادراكا لا حد له من الصيغ والتعريفات



(٣) ويقول الاستاذ الزهاوى : « لو جعلنا الخيال والبداهة فى المنزلة التى يضعهما فيها الاستاذ الفيلسوف لوجب أن يكون الانسان الابتدائى ، بل الحيوان ، أكبر فلاسفة الارض .. لولا ما ينقصهما من البصيرة والحساب، إما الذى اعرفه انا فى الفيلسوف فهو تحريه للحقائق المستورة عن الاكثرين بنظره النافذ ليكشف أسرار الطبيعة ويستفيد من نواميسها ويفيد غيره ، وما الفيلسوف ذاك الذى يرضى عواطفه والا كانت الحيوانات كلها فلاسفة كما سبق . وكم جرح دارون الشهير عواطف الناس بنظريته فى نشوء الانسان من الحيوان ، وكم خالفه أهلها وكم

مقتوه وعادوه وسبوه لانه خالف عواطفهم ، ولكن فى النهاية كان هو الفيلسوف ومعارضوه بقوا ذوى عواطف لا غير »

هذا الذى يقوله الاستاذ الزهاوى ٠٠ ! ويدهشنى منه أنه يتكلم عن العاطفة كما يتكلم عنها المغنون و « أولاد البلد » حين يتشاكون جرح العواطف ويتناشدون رعاية الاحساس ! فهم اذا قالوا : « فلان صاحب عواطف » قصدوا بهذه الصفة أنه لا يجرح عواطف الآخرين وأنه « حسيس » بالمعنى الذى يفهمونه ! وليس هذا ما نريد ، لان العواطف قد تجرح العواطف كما تبقى عليها ٠٠ فالحب عاطفة ولكنه يجرح نفوسا كثيرة ، والغضب والاعجاب والحماسة والغيرة عواطف كلها ولكنها قد تجرح من النفوس أكثر مما تواسيه ، وليس تقسيمنا الناس الى أصحاب عقول وأصحاب عواطف تقسيما لهم الى من يجرحون نفوس الآخرين ومن لا يجرحونها ، فان اصحاب العقول ربما عرفوا كيف يسوسون الناس فلا يغضبونهم فكانوا بذلك أقمن ألا « يجرحوا العواطف » بلغة المغنين و « أولاد البلد » المتظرفين

وأدعى من هذا الى الدهشة أن يقول الاستاذ آن نصيب الحيوان والانسان الاول من الخيال والبديهة أكبر من نصيب الانسان الاخير ، فالحقيقة أن الحيوان لا خيال له ولا بديهة ٠٠ وأن الانسان الاول أقل نصيبا من الانسان الاخير فى هاتين الملكتين ٠ وليس نصيبنا نحن من الفهم ما نعلم أننا نفهمه ، بل نحن نفهم أشياء شتى بالبديهة وبالخيال ولا نعلم بها وهى تعمل عملها فى الاحساس والتفكير

ولقد ذكر الاستاذ اسم دارون صاحب النشوء والارتقاء

•• فهل له أن يذكر أيضا ان الخيال كان أصدق من العقل ألوفا من السنين حين كان العقل يجزم بقيام كل نوع على انفراده ، وكان الخيال يقص علينا قصصه ويجزم لنا بتقارب الانواع وتلاقح الانسان والحيوان ؟ •• نعم ان الخيال لم يفصل لنا « النظرية » العلمية لان له شأنا غير هذا الشأن • ولكن ألم يعم العقل عن تلك النظرية كل أعمى يوم أن كان الخيال يرسمها محرفة بعض التحريف من وراء الظلال والرموز ؟ وهل للاستاذ أن يذكر أيضا أن داروين ما كان لينفذ بفطنته الى تقارب الانواع لولا روح العطف الذى كان يحس به خوالج الحيوان وتعبيراتها على الوجوه والاعضاء ؟ أيمكن أن يؤلف كتاب التعبيرات الحيوانية ودلالاتها رجل لا يخالطه العطف العميق ، ولا يسرى بينه وبين الاحياء سيال من الاحساس الدقيق ؟ •• وما هو نصيب العقل بعد كل هذا فى مذهب النشوء والارتقاء ؟ ما كان له من نصيب الا أن يصحح أخطاءه هو لا أخطاء الخيال ولا أخطاء الاحساس •• فالحقائق التي استند اليها النشوئيون قائمة منذ الابد ، والعقل هو الذى كان يداريها أو يضلل فيها الخيال والاحساس

ويسألنى الاستاذ : « لا أدرى أى مناسبة للعاطفة بالمنطق » وهذا الذى أقوله أنا •• وأقول معه ان مناسبة العاطفة أنها هى شيء موجود لا يصح المنطق الا اذا حسب له حسابه ، فأى منطق يحق له أن يقول عن عمل من أعمال الناس ينبغى أن يكون هكذا ، أو لا ينبغى أن يكون كذلك ان لم يكن يحس العاطفة الانسانية ويستكنه مضامينها ويقيم لها وزنها ؟ •• انه الاستاذ ينبئنا أن العقل أسعد الانسان بالعلم ، فما هى السعادة •• ؟ ان لم تكن عاطفة فهى لا شيء ؛ وان لم يكن العلم علم انسان « عاطف » فلا حاجة به لانسان

نود أن يتأكد هذا في العقول لاننا على مرحلة يجهل فيها الشرقيون ما ينقصهم ، فيجب أن يعلموا أن الذى ينقصهم هو « الاحساس القويم » وأن سبيل خلاصهم هو سبيل العاطفة الحية والشعور الصادق الجميل • أما نظرية الدور والتسلسل فهى لا تعنينا فى هذا الصدد ، ولكنى أرجو الاستاذ الزهاوى أن يسأل نفسه هذه الاسئلة وهى :

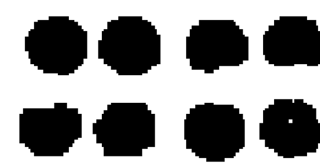
(١) ألا يمكن أن نقول ان عدد « الاشكال » لا نهاية له بنفس المعنى الذى نريده حين نقول ان عدد الاجرام والجواهر لا نهاية له فى هذا الفضاء الذى لا يتناهى ؟

(٢) لماذا نشترط البعد فى الزمان والمكان لظهور الشخصين المتماثلين كل التماثل ! لماذا يتحتم أن يكون أحدهما فى هذا الزمن والاخر على مسافة ملايين السنين أو ملايين الاميال ؟ ان المقتضى للتماثل هو أن الاشكال تتناهى والجواهر لا تتناهى فى قول أصحاب الدور والتسلسل • حسن ، فلا داعى اذن لاشتراط التباعد بين الشخصين المتماثلين فى الزمان والمكان ، بل يجب أن نرى أناسا كثيرين يتماثلون على سطح هذه الارض فى المدينة الواحدة وفى الوقت الواحد ، والا كان رأى أصحاب الدور والتسلسل باطلا يستند الى دليل مشكوك فيه •• أم تراهم يشترطون التباعد ليقولوا لنا اذا أنكرنا عليهم دعواهم : اذهبوا فطوفوا الفضاء الذى لا حد له ، وجوسوا فى جوانب الزمان الذى لا بداية له ولا نهاية فان لم تجدوا أناسا يتماثلون واجزاءا تتماثل فنحن اذن المخطئون وأنتم المصيبون ، وان وجدتم فعودوا الينا بالنبأ اليقين ؟ !

• ان اللحظة الحاضرة من الزمان تشمل أشياء مختلفة مضت عليها أزمنة مختلفة وأوضاع مختلفة ، فهى بهذه المثابة ككل لحظة من الماضى أو المستقبل ، وان هذا الموضع

من المكان هو ككل موضع غيره فى اقتضاء التماثل ان كان له اقتضاء .. فاذا وجب ان نرى شخصين أو اكثر من شخصين يتماثلون كل التمـاثل على كوكبين بعيدين فى زمنين بعيدين ، فيجب ــ لهذا السبب عينه ــ ألا يمتنع ظهور مثل هذين الشخصين فى هذا المكان فى الزمن الحاضر .. والا فما هو المانع آن كان أصحاب الدور والتسلسل يمنعونه فيما يزعمون ؟

نرجو الاستاذ آن يسأل نفسه هذه الاسـئلة ، ونحن نرجح أنه لا يجيب عنها أجوبة يسهل التوفيق بينها وبين القول بالدور والتسلسل ، وليعلم حفظه الله أننى لاأجد عزاء لنفسى في تكرار « العقاد » الى غير نهاية بين أجواز الفضاء وأبديات الزمان .. فاذا ثبت له ثبوت اليقين أن فى هذه اللحظة عقادين لا عداد لهم ، يكتبون مقالاتهم فى بلاغاتهم الاسبوعية التى تصدر فى قواهرهم وأفريقاتهم للرد على الزهاويين الذين لا آول لهم يعرف ولا آخر لهم يوصف ، فرجائى اليه ان يكتم عنى هـذه الحقيقة فما فى علمها ألا الشقاء بتضاعف الاشغال وتراكم الاحمال ، وما فى ذلك ترفيه ولا عزاء .. !





محمد فريد وجدي

هو فريد عصره غير مدافع !..

وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتهـا حتى رثت وبليت وأصبحت حروفا بغير معنى ..

ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الاقلام فى عصر واحد: كلهم فريد عصره ، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات .. فلا معنى لها فى باب العدد ولا فى باب الصفات ، ولا سيما صفات الرجحان والامتياز ..

الا اننا نقولها اليوم عن « محمد فريد وجدى » لنعيد اليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفا حرفا ، ولا ينحرف عنها كثيرا ولا قليلا حتى فى لغة المجاز .

فقد عرفنا فى عصره طائفة غير قليلة من حملة الاقلام ورجال الحياة العامة ، فلم نعرف احدا منهم يماثله فى طابعه الذى تفرد به فى حياته الخاصة او العامة ، وفى خلقه أو تفكيره ، وفى معيشته اليومية أو معيشته الزوجية وأوجز مايقال عنه فى هذه الحالات جميعا انه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الاعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل « الفريد »

نعم : الفريد حتى فى لغة الجناس ، لان اسمه فريد ..

والفريد حتى فى عزلته ، لانه كان فى عزلة النساك والرهبان ، عليما غاية العلم بالتحليل والتحريم .

بدأ حياته الفكرية على مبدأ لم يخالفه قط فى أيام رخاء ولا فى أيام عسرة ، فقصر طعامه على النبات وانفرد بهذا

الطعام بين أهل بيته ، واجتنب الولائم التى يدعى فيها الى طعام غير طعامه

وأخذ نفسه بسمت الاولين من عباد الله الصالحين ، فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها الدين ، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصياحون من الناطقين

ذكرنا فى حديث الخديوى والبكرى ـ في غير هذا الفصل ـ قصة الطرق الصوفية يوم توديع المحمل بميدان المنشية وخلاصتها أن السيد محمد توفيق البكري كان محنقا على الخديو فى بعض السنين فمنع أصحاب الطرق من الخروج لموكب المحمل تحية للامير فى ميدان الاحتفال ، فخلا الميدان الا من الموظفين المدعوين .. وغضب الامير لانه فهم من ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعود أن يشهده العام بعد العام ، فانتهر السيد « توفيق » وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة : أنت قليل الادب . .! وغضب السيد توفيق فانصرف من الاحتفال وهو يقول للامير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل الادب .. اننى وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على ابائك وأجدادك .. »

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد البكرى فى هذا الموقف ، لان الصحف الاسلامية لاتغضب الامير من أجل شيخ الصوفية ، ولان الصحف غير الاسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين

الا صحيفة «الدستور» التى كان يصدرها فريد ، فانها اخذت بناصر البكرى وهو من غير المقبولين عند صاحبها لاختلافهما فى المسلك والسيرة ، ولكن صاحب الدستور نظر الى شيء واحد فى هذا الخلاف ، وهو ان مظاهر

الطرق الصوفية بدعة لايستحسنها ، وان الامير لم يكن على حق فى غضبه على شيخ الطرق لمنع حضورها

وتتم هذه الخصلة الفريدة فى صاحب الدستور صباح اليوم التالى ليوم خروج المحمل . فقد أطلع البكرى على الصحيفة فأرسل الى صاحبها بمبلغ من المال كانت فى أشد الحاجة اليه ، فلم يقبل منه « فريد وجدى » غير قيمة الاشتراك لعام واحد ، ثم رد اليه البقية قبل ان ينتصف النهار

ولقد كانت أزمة الصحيفة أثرا من اثار « المبدأ » الذى لاينحرف عنه الرجل قيد شعرة ، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة وخالف احب الناس اليه ، وقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى ان يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عاما غير مقصور على الدولة البريطانية ، فلم يقبل مصطفى كامل مقترحه ولم يسكت فريد وجدى عن تأييد رأيه ، فانصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الاخرى ، فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ولم يقبل صاحبها ان يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لايوافقها

ومن المعونات التى عرضت عليه فى أحرج أيام الازمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يبذلونها للدستور مشاهرة ليكون لسانا عربيا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة واحدة : وهى أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » .. فرفض الرجل هذه المعونة ، ورفض ان يجعل صحيفته لسانا للحزب الا بشروطه التى يرتضيها ، ولو وافق الحزب على بقائها لسانا للجامعة الاسلامية ..

وفى الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليه من

شتى الجوانب ــ ومنها جانب الحاشية الخديوية ــ كان الرجل يتحامل على نفسه وعلى القليل من موارد مؤلفاته لينفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها ، فلما استنفد كل ماقدر علي انفاقه فى هذا السبيل أعلن تمطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والادارة بمقدار غير يسير .. فأبت عليه نزاهة النفس ان يؤخر مليما واحدا لصاحب دين ، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانا عن عشر ثمنها فى المكتبات ومنها على مانذكر معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة وثمنه مائة وعشرون قرشا ، فاتفق على حسبانه بثلاثة عشر قرشا ، واشترط على التاجر ان يشترى النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الاجور والمرتبات، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الاثمان

هذا هو الرجل الفريد فى نزاهة نفسه واستقامة خلقه وحفاظه على مبدئه ورأيه ..

وهو كذلك ــ أو اكثر من ذلك آنفرادا بين كتــــاب عصره بجهوده فى مؤلفاته ، فلا نعرف أحدا منهم توفــر وحده على تآليف «دائرة معارف» كاملة ، ولا على التآليف فى تفسير القرآن وفى معجمات اللغة والعلم ، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخياليـــة ، ولا على الاستقلال وحده باصدار صحيفة يومية ، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور ، ولو استطاع وحده ان يؤدى اعمال التحرير خارج المكتب ، ومنها الاحاديث واخبار الدواوين ، لاستقل وحده بالادارة والتحرير

واشرف مايكون صاحب المبدأ اذا كان استقلاله برأيه لا يأبى عليه ان يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتبا ناشئا ، خامل الذكر ، ليس لى بحق الشهرة ان يكون لى راى

مستقل مسموع ، ولكنى كنت أخالفه فى بعض اراثه بل فى بعض مبادئه السياسية وبعض معتقداته عما وراءالمادة وتحضير الارواح ، وأشهر ماكان من ذلك حول موقف الحزب الوطنى من سعد زغلول ، فلم يمنعنى ذلك أنأنشر فى الدستور مايخالف هذا الموقف ، وان احادث سعد زغلول حديثا ينفى كل مايعزوه اليه كتاب اللواء .. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقدهمن تحضيرالأرواح وصارحتنى غاية الصراحة فى امر المتشابهات من العقائد والاحكام فلا أذكر اننى لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرته حيث تفترب الافكار والاراء

***

ومما انفرد به فى صناعة الكتابة أنه كان يكتب منفردا كما يكتب بين جمع من الزوار والعمال ، وان سرعة قلمه بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام ، وانه كان سريع النظم للشعر كما كان سريع النسج للنثر البليغ ، وان لم يكن يشتغل بنظم الشعر فى غير موضعه من قصص الخيال

ومن شعره فى هذه القصص الخيالية قوله :

رمت المخاوف والمخاطر … فرويت ما لم يرو شاعر
وجمعت ما بين البدا … وة والحضارة والمظاهر
وشهدت ما لو قلته … عدوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كله … بحقيقة تفنى المكابر
هى أن هذا الناس قد … سحرتهم فتن سواحر
ظنوا السعادة فى التأ … نق والتظرف والتفاخر
واقامة الدور الشوا … هق والعلالى والمقاصر
والجرى أعقاب اللذ … ائذ والتورط فى الكبائر
بين افتتان بالقشـ … ـور ووقفة حول الظواهر
أما السعادة فهى فى … ان تفتق الحجب السواتر
وتحصل السر الذى … شقت لطلبه المرائر
وتنال من معناك ما … حرمته همات فواصر
أن ترتقى بالروح حيـ … ـث الحق عالى القدر سافر
هذى السعادة كلها … فاظفر بها ان كنت ظافر

وله شعر فى هذه القصص يقول فيه عن المدنية :

ضل اهل الالمعيه فى علاج المدنيه
هى من اقدم مهد عضلة العلم القويه
هى للجثمان غنم وهى للروح بليه
والذى قر عليه الرا ى من اهل الرويه
انها شر ضرور ى لخير البشريه

ولو كانت طواعية النظم للناظم آية الملكة الشعرية لكان فريد وجدى فى طليعة الشعراء المطبوعين ، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره كلتاهما دليل على بساطة فى الطبع سلمت من العقد المركبة وتقابلت فيها الاعماق والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الاهواء .. فلاتشق عليه سلاسة التعبير ولا سلاسة التفكير

ومن صراحة خلقه وايمانه باستقلال الرأى عنده وعند غيره ، انه كان يستمع الى رأيى فى شعره فلا يغضبه ولا يهمه ان يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه ، وقد قلت له مرة : حسبك من الشعر ما يقنع قلب المتصوف ولسانه، فقال : والله انه لخير كثير ، ومن لنا ببعض هذا النصيب؟

***

روى العالم اللغوى الشيخ عبد القادر المغربى ، وهو من تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، أن السيد عرض عليه الزواج فقال : ان جمال الدين وهو متزوج رب أسرة وصاحب بيت يأوى اليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال أغرب من صورة الشيخ عليش وهو يسعى الى الازبكية ليجلس الى حانة من حاناتها ويصفق بيديه يستدعى « الجرسون » ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات

أقول انى قد رأيت بعينى فى الواقع ماهو أغرب من هاتين الصورتين . وهو منظر « محمد فريد وجدى »

يتمشي فى قلب الازبكية بين المتاجر والحانات وهي لاتدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام ، ولعله هو أيضا لا يدرى ان هذه هي الازبكية الا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشـــــاهد الافلام

فقد كان السير على الاقدام من رياضات الرجل قبيـــل الاصيل كل نهار ، وكان يمضى فى رياضته حيث ساقته قدماه ، تارة الى مفازة الخلاء وتارة أخرى الى حى السكة الجديدة ، وحينا الى قصر النيل وحينا اخر الى شارع جلال أو عماد الدين ، ولا يحس من يراه فى مكان من هذه الامكنة ، وهو ينظر الى ملامح وجهه ، أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه ، كأنه ـ لانطوائه على نفسه ـ يتمشى فى عالم السريرة ولا يتمشى فى عالم العيان

وكنت أراه احيانا فى طريقى ولا أعرف من هو بين غمار الناس ، على علمى ببعض آثاره وسماعى ببعض اخباره ، ومنها فى قفشات الادباء « أولاد البلد » انه يعيش فيما وراء المادة .. فى عطفة من عطفات عالم الروح ..

فلما رأيته لاول مرة بعد اعلانه عن انشاء صحيفـــة الدستور أسفت لما فاتنى من الشعور بتلك الاعجوبة التي كنت أشهدها كما يشهدها غيرى من عابرى الطريق ، ولا يشعرون بها ..!

« ما وراء المادة » كله ينتقل الى حى الازبكية فى ضوء النهار ؟ ! ..

اننى لاشعر اليوم انه منظر عجب غاية العجب : منظر اعجب من جمال الدين رب الاسرة والدار ، أو منظر الشيخ عليش جليس القهوة والبار ..

وقد صحبته فى رياضة من هذه الرياضات أول يوم لقيته فيه ، فعلمت حقا انه كان يغشى تلك الاماكن وكأنه لايغشاها ، لانه يستطيع ان يمضى فى عزلة عما حوله كما يستطيع ان يجلس آلى مكتبه ليكتب ويفكر ويناجى سريرته ولا يدرى من يخاطبهم ويخاطبونه .. انه بعيد عنهم وانهم بعيدون عنه ، فى عالم آخر من وراء المادة .. اذا شاء أولاد البلد الظرفاء

وكنت قد عرفته من كتاباته زمنا قبل ان اعرفه راى العين ، ولكننى بعد ان صاحبته فى مكتب الدستور من يوم انشائه الى يوم تعطيله ـ الا فترات من الزمن لا تحسب ـ ارانى أستطيع أن أقول اننى كنت أعرفه من كتاباته كذلك وانا معه فى دار واحدة ، لانه كان يعمل فى مسكنه بالدار ولا ينتقل الى مكتبه الا للقاء طارىء من الزوار ، او للاجتماع بلجنة من لجان الصحيفة لمراجعة احوال الادارة والتحرير والتوزيع ، وكان يعفينى من اطلاعه على ما اكتب قبل ارساله الى المطبعة ، فربما مضى الأسبوع ولم ألقه الا اذا طرأ من شئون الصحيفة ما يدعو الى مشورته او تبليغه عنه ليتصرف فيه بما يراه

قرأت اعلانه عن طلب محرر للصحيفة ، فكتبت اليه اخبره بأننى أرشح نفسى للعمل فى الصحافة لاول مرة .. فجاءنى الرد منه بعد يوم او يومين يسألنى ان القاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها الكاتب المعروف ـ يومئذ ـ محمود سلامة ، وكنت أقرأ مقالاته النقدية ويعجبنى منه ما يعجبنى من مدرسته كلها : وهى مدرسة عبدالله نديم واحمد سمير ، وكنت أعرف مكان مطبعة الواعظ لاننى فكرت زمنا فى اصدار صحيفة على مثالها وفى مثل حجمها، قبل أن أستقيل من وظيفتى الحكومية

فلما ذهبت الى الموعد ـ بالدقيقة ـ اخرج الساعة من جيبه ونظر فيها ، وسكت هنيهة ثم سألنى عما اطلعت عليه من مؤلفاته التى أشرت اليها فى الخطاب ، ثم اختار صحيفةمن الصحف التى كانت على مكتب صاحبالواعظ وقال لى : هل قرأت هذا ؟ فنظرت فى الصحيفة فعلمت انه يشير الى مقال عن رحلة لكاتب المقال فى العاصمة الفرنسية ، كنت قد أطلعت عليه قبل ذلك . فرددت الصحيفة اليه وأنا اقول : اننى لم أذهب الى باريس ، ولكن موضع العجب عندى أن الكاتب لم يطرق منها غير الحى اللاتينى ولم يعرف فى الحى اللاتينى غير معارض الخلاعة والمجون ، فهلهذه هى باريس ؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم على كل ما فى طوية نفسه من براءة طيبة كبراءة الطفولة ، وقال : هذه هى باريس كلها اذا كانت القاهرة كلها هى ماتراه الساعة.. هل لك فى رحلة قصيرة نقضى بها رياضة اليوم ؟..

وسرت معه حيث سار ، فلاح لى أنه كان كأنما يسير معى ولا يوجهنى الى مكان مقصود بعينه ، أو كأننى كنت اوجهه كما كان يوجهنى على السواء ..

وقال لى فى صراحة لا تكلف فيها ، أنه عرض علىمقال الصحيفة عن رحلة باريس امتحانا لرأيى بعد أن أغناه اسلوب خطابى عن امتحانى فى الكتابة ، وبعد أن أغناه حضورى الى الموعد ـ بالدقيقة ـ عن امتحان نظامى فى العمل .. فلى أن أعتبر نفسى محررا بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة ، ولى أن أسأله عما اشاء عن نظام العمل المطلوب

ولم أسأله عن شىء من ذلك ، ولكنه هو قد مضى يسهب فى بيان مقصده من انشاء الصحيفة وبيان خطتها

فى السياسة والوطنية .. ثم مضت الايام بعد الايام فى هذا العمل المشترك بينى وبينه لا يعاوننا فيه أحد غير أخيه ـ احمد ـ الطالب بكلية الحقوق ، وغير آحاد من زملائه الطلبة ومن وكلاء الصحيفة فى الاقاليم ، ولم ينقطع عملى فى الدستور غير بضعة أسابيع تركت الصحيفة فيها لخلاف وقع بينى وبين أخيه ، لاعتراضه على بعض آرائى فى السياسة الحزبية ، والحق انه اعتراض لم يكن فيه ما يسوء لولا اننى استكثرته من الاخ الاصغر وهو يعلم ان اخاه الاكبر لايبدى على ما اكتب مثل هذا الاعتراض فيما يخالفه أو يناقضه من الآراء السياسية

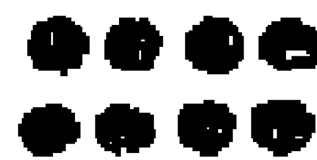
ولم ألق محمد فريد وجدى بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات ، وكنت قد برحت القاهرة الى اسوان ثم عدت الى القاهرة للعلاج من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر

وفى حديث من احاديث الرياضة على الأقدام كان لقائى الاول له بعد عودتى الى القاهرة ، فاننى عرفت مسكنه بعد انتقاله اليه من مسكنه بدار الصحيفة ، فقصدت اليه على أثر رياضة فى الخلاء وبيدى كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية ، فقال لى وقد نظر فى الكتاب ولمح على وجهى أعراض السقم : وفى مثل هذا الكتاب تقرأ وانت ترتاض للاستشفاء ؟..

وأذكر اننى فاتحته باعتقادى قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء ، فابتسم ابتسامته الأبوية ، وفتح الصفحة الأولى من الكتاب وهو يقول لى : اكتب هنا .. ثم أملى على كلاما فحواه اننى ساعود الى هذه الأسطر وانا شيخ معمر ، لكى أعرف اننى كنت على خطأ كبير حين قدرت لنفسى نهاية العمر القصير ..

رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الخلق الفريد ..

ان يكن اليوم لا يذكر حق ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن حق الخلود ، ولكنه يعيش فى عزلة من دنيا التاريخ كما عاش ايامه فى عزلة من دنيا الحياة





الشيخ رشيد رضا

يقول محمود رشاد بك فى رحلته الروسية : « سألنى التتار عن الشيخ محمد عبده والشيخ على يوسف والشيخ رشيد رضا ومصطفى باشا كامل وفريد بك وجدى وشكروا لهم صدق غيرتهم على الدين »

وقد لقيت أنا فى بلدتى أناسا من أبناء أفريقية الغربية الذين يعبرون باسوان فى طريقهم الى الحج ذاهبين او عائدين ، فوجدت بينهم من يقرأ مجلة « المنار » ويعول اعليها فى فهم شعائر الاسلام واحكامه ..

وقد تكفى نظرة فى باب الاسئلة والفتاوى التى كانت تنشر بتلك المجلة لتقدير مدى انتشارها فى الاقطار الاسلامية ، لانها كانت تتلقى الاسئلة والفتاوى من جميع الاقطار ..

وقد كنت أطلع على بعض اعدادها حرصا منى على متابعة آثار الشيخ محمدا عبده فى كل مظنة ، فكنت أحمد لها الدعوة الى التحرر من ربقة القديم ، ولكنى أسأل نفسى دائما بعد قراءتها : « من أين يلم بالنفس هذا الشعور بشىء « غير مستساغ » فى كثير مما يكتبه الشيخ رشيد ؟ »

ولم يكن هذا شأنى وحدى فيما كنت اقرأ من كتاباته،

ولكنه كان شعورا يشاركنى فيه عدد غير قليل من القراء ، وما زلت أسائل نفسى حتى تبين لى بعد تجربة الحيـاة والأدب ، وبعد لقاء الشيخ رشيد ، انه ضرب من الحاجة الى الصقل ، ولا سيما الصقل من ناحية الكياسـة والفكاهة . فما احسب أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يلتفت الى شيء من طرائف الحياة التى تتجلى فى نقائص الدنيا وأعاجيبها ، ولا غنى عنها لتمام التعاطف والتفاهم بين الناس .. لقيته مرات لا تحصى .. ولكنى لم أتحدث اليه غير ثلاث مرات أو أربع فى مناسبات قليلة ..

أولها فى دار المنار بدرب الجمـاميز .. كانت دارا صغيرة ، لها سلم ضيق تصعد عليه الى حجرة لا تزيد فى مساحتها على أربعة أمتار مربعة ، وفيها ديوان مفروش ، وعلى أرضها حصيرة فوقها فروة يجلس عليها الاستـاذ وقد اثنى قدمه ، وفى يده ورقة ، يكتب عليها للمنار

وكنت اعبر بتلك الدار كثيرا فى طريقى الى دار الكتب، فلم يخطر لى أن أزورها أو اعرج عليها ، حتى اعلن الشيخ رشيد عن كتابه فى ترجمة الاستاذ الامام ، وصدر منـه جزءان ، هما الجزء الثانى والثالث ، وارجىء صدور الجزء الاول الى حين

كان الجزء الثانى يشتمل على طائفة من مقالات الأستاذ الامام ورسائله التى نشرت بتوقيعه أو بغير توقيعه

وكان الجزء الثـالث يشتمل على المراثى الشعرية والنثرية التى قيلت فيه الى ما بعـد حفلة الاربعين ، ومعها بعض كلمات المقدرين والمؤبنين من أبناء البـلاد الشرقية والغربية

ولم تكن « ميزانية » الكتب يومئذ تسمح لى بشراء جزءين كبيرين فى وقت واحد ! فاخترت أن أبدأ بالجزء الثانى ، وارجىء شراء الجزء الثالث بضعة أسابيع

ولقيت عاملا على السلم فأخبرته بما أطلب ، فلم يبد مانعا .. وذهب ليجيئنى بالجزء الذى طلبته ، وعاد به وانا فى حضرة الشيخ رشيد . وتناولت الجزء واخرجت الثمن ـ فسأل الشيخ رشيد : « ما هذا ؟ »

ثم قال : « ان الجزءين لا يباعان على انفراد .. »

ولا أخفى على القـــارىء اننى حين سمعته يســأل : « ما هذا ؟ » خطر لى انه سيعفينى من الثمن ، بعد أن تناول الحديث بينى وبينه سيرة الأســتاذ الامام ، ولمحت منه الرضا عن رأيى فى خصومه وناقديه ..

فلما فهمت مرمى سؤاله شعرت بخيبة أمل ، وازداد شعورى هذا حين أصر على بيع الجزءين ، مع توكيدى له بأننى سأعود بعد فترة لشراء الجزء الأخير ..

ثم تأخر صدور الجزء الاول أكثر من عشرين سنة ، وهو الجزء الذى يحتــاج من المؤلف الى عنــــاء ومراجعة وتحضير ، فهيأت تلك المساومة نفسى لاعتقاد خاطىء فى حق الرجل ، ووقع عندى انه بادر الى اصدار الجزءين لما فى هذه المبادرة من كسب لا يجشمه شيئا من الكلفة والمشقة ، وانه أخر الجزء الاول لما يتجشمه فيه من التعب ، وما يلقاه فى سبيله من الخصومات ..

ولكن الجزء الأول صدر بعد طول التأخير ، وظهر من وقائعه واخباره أن « الشيخ رشيد » كان موفور العذر فى أرجاء صدوره ، لانه لم يكن يستطيع نشره فى عهـــد عباس الثانى ولا فى أبان الحرب العالمية ، فانتظر حتى زالت المحظورات التى حالت دون أصداره طوال تلك السنين

ولقيت الرجل مرة أخرى مع اللجنـــــة التى تألفت للاحتفال بعيد المقتطف الذهبى ، وكان الدكتور فارس نمر باشا قد دعانا الى حفلة شاى فى داره للاعراب عن شكره للجنة الاحتفال وشكر زميله العلامة يعقوب صروف

وجلست مع سعيد شقير باشا والشيخ رشيد ..

وطاف فارس باشا بضيوفه يحييهم فقال للشيخ : « انك يا سيد تسمن كثيرا ، الا تتعود رياضة المشى ؟ امش بقدر ما تستطيع »

ثم استطرد الحديث الى الصحة ، فقال سعيد باشـا : « انه يحس اعياء وخواء يشبه « الدوخة » »

فسألته : « هل كشفت عن الكبد ؟ »

فقال : « ان المصيبة كلها من هذه الكبد ! »

ولاح على الشيخ رشيد كأنه قد سمع منى نبوءة ، فسألنى : « وهل درست الطب ؟ »

قلت : « ان علاقة الكبد بهذه الحالة لا تحتاج الى علم طبيب »

ثم تبين لنا من جملة الحديث ان عناية الشيخ بالاطلاع على المعارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالاطلاع على مسائل الفقه والدين

وتحققنا من هذا حين صدر الجـــزء الاول من تاريخ الأستاذ الامام ووجدت فيه اشارة استفهام بعـــد اسم « عبد الله منو ؟ »

فاستغربت ان يكون الشيخ على غير علم بتاريخ هـذا القائد الفرنسى وقد دان بالاسلام وكانت له علاقة فى مصر ببيت من أكبر البيوتات الاسلامية ، ولكن الاطلاع على

هذه المسائل التاريخية لم يكن على ما يظهر من هم الشيخ

***

ولقيته مرة أخرى فى قطار « المترو » ليلة من ليالى شهر رمضان ومعه قريب له يسمى على ما اذكر «عاصما» فجرى الحديث على المعجزات ..

وقال الشيخ : « ان المحقق من سيرة النبى عليه السلام كاف للدلالة على وحى القرآن ، لأنه عليه السلام لم يأت بمثل هذه البلاغة قبل الأربعين ، وكان يشكو انقطاع الوحى فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه »

فقلت : « انه دليل حسن ولكنه غير ملزم ، فقد اشتهر مثلا عن النابغة الذبيانى انه لم ينظم الشعر قبل الاربعين أو نحوها ، وذلك تعليل لقب « النابغة » فى بعض الروايات . واشتهر كذلك عنه وعن غيره انه « أجبل » ، اى انقطع عن النظم فترة ثم عاد اليه ، فنحرت قبيلته الذبائح فرحا بانطلاق لسانه ، لأنه أنفع لها من غزوة تنتصر فيها على أعدائها ..

« انما المعجزة الكبرى هى الرسالة المحمدية التى لا ينهض بها فرد ولا أمة بغير معونة الهية ..

« وانما المعجزة الكبرى هى أثر القرآن فى الضمائر وأثره فى تواريخ الأمم الاسلامية وغيرها »

ومن حق الشيخ أن أذكر له فى هذا السياق انه لم يغضب ولم ينكر وجاهة التعقيب على كلامه .. ودعانى ملحا الى زيارته فى دار المنار ...

ولكننى لم ألقه بعد ذلك ، وان كنت ألقاه حينا بعد حين فى صفحات مجلته المنار ، لأنها من المجلات العربية التى حرصت على اقتنائها من اول اعدادها الى آخرها


عبد العزيز جاويش

كلما ذكرت الشيخ عبد العزيز جاويش ذكرت زيه على الخصوص .. لأنه كان أول ما لفتني اليه ، ولم يزل موضع التفاتي بعد ذلك كلما رأيته أو سمعت بخبر من أخباره في بعض المناسبات ..

كان لنا زميل في مدرسة أسوان الاميرية ، لا تقل شهرته بيننا بالجهل عن شهرته بالعبث وقلة المبالاة ..

وتخرج بعدنا من المدرسة ، فعينته وزارة المعارف مدرسا بها للترجمة ، لشدة الحاجة يومئذ الى المدرسين

وكنا نعجب لكتابته العربية أكثر من عجبنا لكلامه باللغة الانجليزية ، فهو يعرف الانجليزية كما يعرف العربية ، ومعرفته للعربية بعد ذلك هي موضع الشك الكبير ..

وانه ليلقى درسه في الترجمة ذات يوم اذا بمفتش معمم يدخل عليه ، فظنه مفتشا للغة العربية قد ضل طريقه الى هذه الحصة ، فاطمأن على جهله وعلمه .. ومضى في درسه بغير اكتراث ، ولم يكن من دأبه كما اسلفنا ان يكترث لشيء من الاشياء

وفوجيء باعتراض من المفتش المعمم ، فقال له بغير تردد : « ان هذه القطعة منقولة من كتاب مقرر »

وسأله المفتش : « ما هو ؟ »

فقال : « كتاب مرشد المترجم »

وطلب منه المفتش أن يريه القطعة فى الكتاب ، فقلب الصفحات كأنما يبحث عن واحدة معينة منها ، ثم أشار الى جملة فى الصفحة .. وقال للمفتش بكل ثقة واطمئنان : « هى هذه القطعة ! »

وهنا المباغتة التى كان أهون منها على صاحبنا أن ينفتح أمامه قمقم مغلق ويخرج منه مارد من الجن ، لأن الشيخ المعمم قد أخذ يقرأ القطعة الانجليزية ويسأله عن العلاقة بينها وبين العبارة العربية ..

ان المفتش المعمم هو الشيخ عبد العزيز جاويش مؤلف كتاب مرشد المترجم ، مع زميل من المعلمين !

وضجت المدينة ليلتها من الضحك ، ولم يزل شاهدو القصة يذكرونها الى الآن .. لا عجب اذن ان يظل زى الشيخ عالقا بذهنى على تعاقب الايام

***

وذهبت سنة وجاءت سنة ، وتتابعت سنوات بعد سنوات ، وانفت فى القاهرة منظر الشيخ فى جبته الغراء .. وهى فى اشد شتائها قلما احوجتنا يومئذ — نحن أبناء الصعيد — الى معطف ثقيل ..

ثم استقال الشيخ من وظيفته بوزارة المعارف ، بعد انشاء مدرسة القضاء الشرعى واسناد نظارتها الى المربى الكبير عاطف بركات بك ، وأخذ فى حملته على وزارة المعارف على النحو الذى يذكره قراء اللواء فى تلك الأيام

وحضرنا يوما الى مكتب الصحافة بوزارة الداخلية ،

فسألنا موظف فيه : « هل صحيح ان الشيخ جاويش اعتزل عمله فى تحرير اللواء ؟ »

فقال زميل صحفى : « ان صحيفة «الوطن» قد نشرت الخبر » وقال زميل آخر : « انى اشك فى صحة الخبر » وقلنا جميعا : « أن دار اللواء قريبة ، والسؤال هناك أيسر من الشك بغير دليل »

ودخلنا مكتب الشيخ فوجدناه فيه ، وتبين من الكلمة الأولى ان الخبر غير صحيح .. ثم مضى الشيخ فى كلامه من التعليق على صحيفة الوطن الى تعليق على الصحف عامة ، وعلى السياسة والأحزاب ، ثم الى الكلام عن حرية الصحافة وحرية الزعماء السياسيين

وجلست اسمع وأنا أعجب لرجل يفهم الوطنية المصرية فى نهضة المطالبة بالاستقلال . ثم ازداد عجبى حين قدم للمحاكمة ، فكان دفاعه الاول انه « غير مصرى » لانه ينتمى الى اسرة تونسية ، وتونس خاضعة للحماية الفرنسية ..

ثم ازداد العجب حين سافر الى الآستانة ، وانشأ فيها صحيفة «الهلال العثمانى» لينشر بها دعوته السياسية على الوجه الذى كان يفهمه ولم يعدل عنه بقية حياته ، وبلغ غايته حين علمنا انه انشأ فى الآستانة حزب « الوطن العثمانى » ليعارض به حزب محمد فريد الذى جعل شعاره « مصر للمصريين »

وكانت صحيفة « الهلال العثمانى » تصل الينا سرا فى فترات متقطعة ، فكنت اسأل نفسى : هل بلغ من يقين الشيخ بمذهبه فى الوطنية أن يفترض قبوله على كل مصرى يسمع باسمه من بعيد ؟

وعدنا الى زى الشيخ حين سمعنا نبأ الحملة التركية

على هذه البلاد ، فقد قيل يومئذ ان كسوة المشيخة الاسلامية كانت فى حقيبة الشيخ ، وانه قد حيل بينه وبين مصاحبته الحملة فى اللحظة الأخيرة لامتعاض شيخ الاسلام هناك من حركاته حول مصر والحجاز

***

وانتهت الحرب ، ولقيت الشيخ اتفاقا قبل تعيينه مرة اخرى بوزارة المعارف ، فاذا هو هو فى تفكيره وتقديره عن السياسة الوطنية .. انقرة هى صاحبة القول الفصل فى السيادة المصرية ، انقرة هى المرجع الاخير فى الامتيازات الاجنبية ، معاهدة سنة ١٨٤٠ هى اساس ما نطالب به من حقوق !

قلت : « الحمد لله .. لقد تغيرت مصر كثيرا فى عشر سنوات ، وان لم يتغير الشيخ عبد العزيز جاويش ومن جرى على مجراه »

***

لقد ذكرنا الشيخ رشيد رضا فى الفصل السابق ، وبين الشيخ رشيد والشيخ جاويش جامعة بعيدة لا غنى عن الاشارة اليها لتقدير كل منهما معا ، وكل من دخل معهما فى هذه الجامعة .. فبعد جمال الدين ، ومحمد عبده ، أصبح من هم كل شيخ ناشىء ان يصبح استاذا اماما او نمطا آخر من جمال الدين ..

ومن هنا نشأت مدرسة رشيد رضا ، ومصطفى المراغى ، وطنطاوى جوهرى ، وعبد الحميد الزهراوى ، ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى ، والنجار ، وغيرهم

ولكن الشيخ عبد العزيز كان يتشبه ب «جمال الدين» حيث يتشبه أقرانه على الاكثر بالأستاذ الامام ..

وفارق آخر بينه وبين الشيخ رشيد ، ان « الشـــيخ رشيد » كما قلنا كانت به جفوة عن الفكاهة والكياسة ..

اما الشيخ عبد العزيز ، فقد كانت فيه من ابناء البــلد الظرفاء مشابهة كثيرة ..

ذهبت يوما لزيارة الأستاذ محمد صادق عنبر بمكتب صحيفة العلم على ما أذكر ، فوجدت الشيخ عبد العزيز يصيح صيحة المحنق الذى يغالب ضحكا مكظوما : « انه خبر ادهش البقر .. انه خبر ادهش البقر ! »

فسألت الأستاذ صادق عنبر : « ما هذا الخبر ؟ »

فجعل يغمغم بين الضحك والخجل وهو يقول : « انه مصحح عندنا من أهل الشرقية جاءه من بلده خبر عن بقرة قتلها قطار السكة الحديد ، فأختار للخبر عنوانا يليق بهذه الفاجعة العالمية .. وكتبه بهذا العنـــــوان : « خبر أدهش العالم ! » ... وفى رأى الأستاذ كما سمعت ان الدهشة من حق البقر فى هذا المقام !..

قلت : « صدق أبو العيناء .. رأوه يأكل فى الطريق امام الغادين والرائحين فلاموه ..

فقال : « أمن البقر حياء ؟ .. »

« وأراد أن يثبت لمن لاموه ان القوم بقر فوقف ونادى : أيها الناس ! قال « هى بن بى » عمن لا يوثق له برأى : من بلغ طرف لسانه أرنبة انفه دخل الجنة فلم يبق من حوله احد الا أخرج لسانه يحاول ان يبلغ أرنبة انفه ! »

« ومضى أبو العيناء وهو يقول لمن لاموه : الم اقل لكم ؟»

وقد أبى الأستاذ صادق الآن ينقل الحديث المروى لصاحب الخبر ليرى أين هو من قول الشيخ عبد العزيز ومن قول أبى العيناء



ابراهيم الهلباوي

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان : احدهما حزب محمد شريف باشا والآخر حزب مصطفى رياض باشا ..

وقد يخطر للقارىء العصرى أن تعريف الاحزاب بالاشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية .. ولكن الواقع أن تعريف الاحزاب بالأشخاص كان سنة معروفة فى ذلك العصر حتى فى أعرق الامم البرلمانية ، فكان الحزبان المتناظران فى انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا الوزير أو ذاك الوزير

كان حزب « شريف » أقرب الى التجديد السريع ..

وكان حزب « رياض » أقرب الى المحافظة مع التقدم فى رفق وأناة ..

وكان الهلباوى بك ناقما على رياض باشا لسبب من الأسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه ..

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب الشيخ « ابراهيم الهلباوى » تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشىء ، واستطرد قائلا : « ان ناظر النظار سيخرب بيتك ان لم تكف عن الحملة عليه »

فضحك الشيخ ابراهيم وأجابه ساخرا :

ـ انه لا يستطيع

فعجب العالم المحقق وقال : « كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها فى يديه ؟ »

قال الشيخ ابراهيم : « وليكن ناظر النظار ، أو أكبر من ناظر النظار .. ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله ، فانه لا يستطيع ان يخرب لى بيتا » ففزع العالم المحقق ، وخيل اليه ان المسألة تنتقل من التمرد والعصيان الى الكفر بالله ، والعياذ بالله !

فصاح بالشيخ الناشىء حنقا : « أهذا الذى تعلمتموه من جمال الدين ؟ »

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام التلميذ برهانا على زندقة الاستاذ ..

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين ، فلم يكن أسرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال لصاحبنا : « بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل ان نتعلمه من جمال الدين ! »

قال الرجل « أعلمنا كم نحن الكفر ؟ »

قال الفتى المتحذلق : « بل علمتمونا ان قــدرة الله لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ، وهو انه ليس لى بيت ! »

على أن تلمذة الهلباوى لجمال الدين لم تكن تمنعه ان يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة اذا « حكمت القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترىء على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس أو مجــالس الحديث ..

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الاحــاديث ـ أو تلك الدروس ـ وكانت كل احاديث جمال الدين من قبيل الدروس : ان السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التى تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة ..

فقاطعه الهلباوى قائلا : « يا خبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟ »

فانتفض السيد مغضبا وصاح به : « اغرب عنى أيها الخبيث .. لعنة الله عليك ! »

والهلباوى الذى تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوى الذى عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك أن تلخصه فى عبارة واحدة ، وهى انه رحمه الله كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها »

ومن هذه الذلاقة المتعجلة ، كان يؤخذ على الهلباوى كل ما هو مأخوذ عليه



سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه ..

كان اشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته أنها دخلت فى « النكتة المصرية » .. فكان الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون اذا اشتط عليهم القصـــــاب فى الثمن : « والله ولا لسان الهلباوى ! »

وسمعنا بشهرته كاتبا كما سمعنا بشهرته محاميا ، فكان عنوان مقالاته « الى أى طريق نحن مسوقون »يتردد على كلّ لسان ، وكنا نســـــــمع به وان لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول فى الوطنية الى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعنى بها « قضية دنشواى» التى وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته ..

وعن قضية دنشواى قلت فى كتابى سعد زغلول : « لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى اسوان ، فأغمى على واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج تخنقه العبرات »

ويستطيع القارىء اذن أن يتخيل مبلغ السخط الذى أثارته فى نفوسنا رؤية الهلباوى أمامنا وجها لوجه فى دار الجريدة ، يوم القى الاستاذ « لطفى السيد بك » خطابه الذى أشرنا اليه فى الكلام عن صاحب « المؤيد » ..

لقد كان اغتباطى شديدا بما اصابه من الأذى فى ذلك اليوم ، ولكنى أقول انصافا له اننا رأينا فى الرجـــــل شجاعة لم نرها فى غيره من المقصودين بالهتاف العدائى ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى

اطمأن الى انصراف الجمهور الغاضب ، وابى الهلباوى الا ان يقتحم الجمع خارجا من الدار فى ابان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم والايذاء

وغاب الهلباوى زمنا عن ميدان السياسة ، ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لـ « سعد زغلول » .. وكانت المساجلات بين الاحزاب يومئذ على أعنفها ، ولكنى أشهد القارىء أننى ما وجدت القلم ينبعث فى يدى انبعاثا الى القول القارص العنيف كما كان ينبعث فى الرد على خطب الهلباوى وأحاديثه ، فردودى عليه فيما اعتقد كانت أعنف ما كتبت على الاطلاق ..

ثم مضت الايام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوى شأن فى موقف من أهم المواقف فى حياتى السياسية ، لأنه الموقف الذى اعتزمت فيه جديا أن أترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع الاحزاب ..

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة الصدقية التى عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، فعقد الاحرار الدستوريون اجتماعا فى دار حزبهم ، وذهبنا اليه تأييدا لمظهر الائتلاف ..

واذا بالهلباوى هو خطيب الاجتماع ..

واذا بى جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، واذا به يحتال فى كلامه ليهملنى عند مناسبة ذكرى ، ويتجاوز الاهمال الى التعريض ..

وعلقت على الخطبة فى اليوم التالى ، ورآها فرصة سانحة لارغامى باسم الائتلاف ..

وجاءتنى دعوة الى بيت الامة حيث تجتمع طـائفة من اعضاء الوفد على رأسهم مصطفى النحاس باشا ..

ما الخبر ؟..

الخبر ـ كما قالوا ـ ان مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : « وما شأنى فى هذا البيان ؟ »

قالوا : « بل الشأن شأنك .. لأن فحوى البيان ان الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوى بك »

قلت : « انكم أحرار فيما تكتبون ، ولـكننى سـأرد لا محالة على هذا البيان ، وأقول لكم سلفا اننى أنا المسئول عما أكتب ، ولم يعلم النـاس قط اننى اكتب باشارة من احد »

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد من اجل زياراته للاقاليم ، وثار اللورد ثورته التى أوشكت أن تعصف بالبرلمان ، وأرسل الى سعد من يقول له أن اللورد يعتقد انه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « انها تهمة لا أدفعها او شرف لا أدعيه » .. ولم يفاتحنى فى الامر حتى انقضت الازمة ، لكى لا أفهم انه يقترح على الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع ! .

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا ان صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : « لن اسمعه ، ولن اسكت عن الرد عليه .. »

فى ذلك المساء زارنى مكرم عبيد باشا ، والمرحوم صبري

أبو علم باشا ، وسألاني : « ماذا صنعت ؟ »

قلت : « كتبت ردا على البيان سينشر فى عدد الغد من جريدة «مصر» ـ وكانت من الصحف الصباحية ـ وفيها كنت أكتب مقالاتى كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : « اذا كنت لم استطع ان اقنعكم بوقف بيانكم ، فلن تستطيعوا اقناعى بوقف المقال .. »

ثم قلت لهما : « انني املك ان انشره فى غير الصحيفة الوفدية اذا حيل بينى وبين نشره فيها »

وكان قد جاءنى فعلا من يعرض على العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة قال مكرم باشا : « اننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وأنت مصر على نشره فاقبل منا رجاء آخر »

قلت : « ما هو ؟ »

قالا : « ان يخلو المقال من الملام الشديد »

قلت : « انني اذا ذكرت الحقائق كما حصلت ، فلا حاجة بى الى ملام شديد »

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلباوى بك لا يقع لى فى طريق

وحدثت فى خلال ذلك جفوة بينى وبين المرحـــــوم عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بينى وبينه حين كنت اكتب فى صحيفة « الجهاد »

ثم زارنى يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لى : « لقد مررت بدارك وأنا فى مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة

وقلت لنفسى : « فلنزره ان كان هو لا يزورنا .. فما رأيك ؟ »

قلت : « انه فضل لك سبقتنى به ، وعلى أن اشاركك فيه »

وزرته فى دار البلاغ ـ بعد يوم أو يومين ـ فاذا بالهلباوى بك هناك ..

فكدت أهم بالرجوع ..

بيد أن الهلباوى بك كعادته هجام لا يتردد ، فجذب يدى وبدأنى بالحديث

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة ان واقعتى معه آخر ما يذكره فى تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره واسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل احب أن يكتب الله لى ثواب اخراجك من تلك الجمساعة .. ولكنه فاتنى ، وأراك خارجا منها على التسعين ... ! »

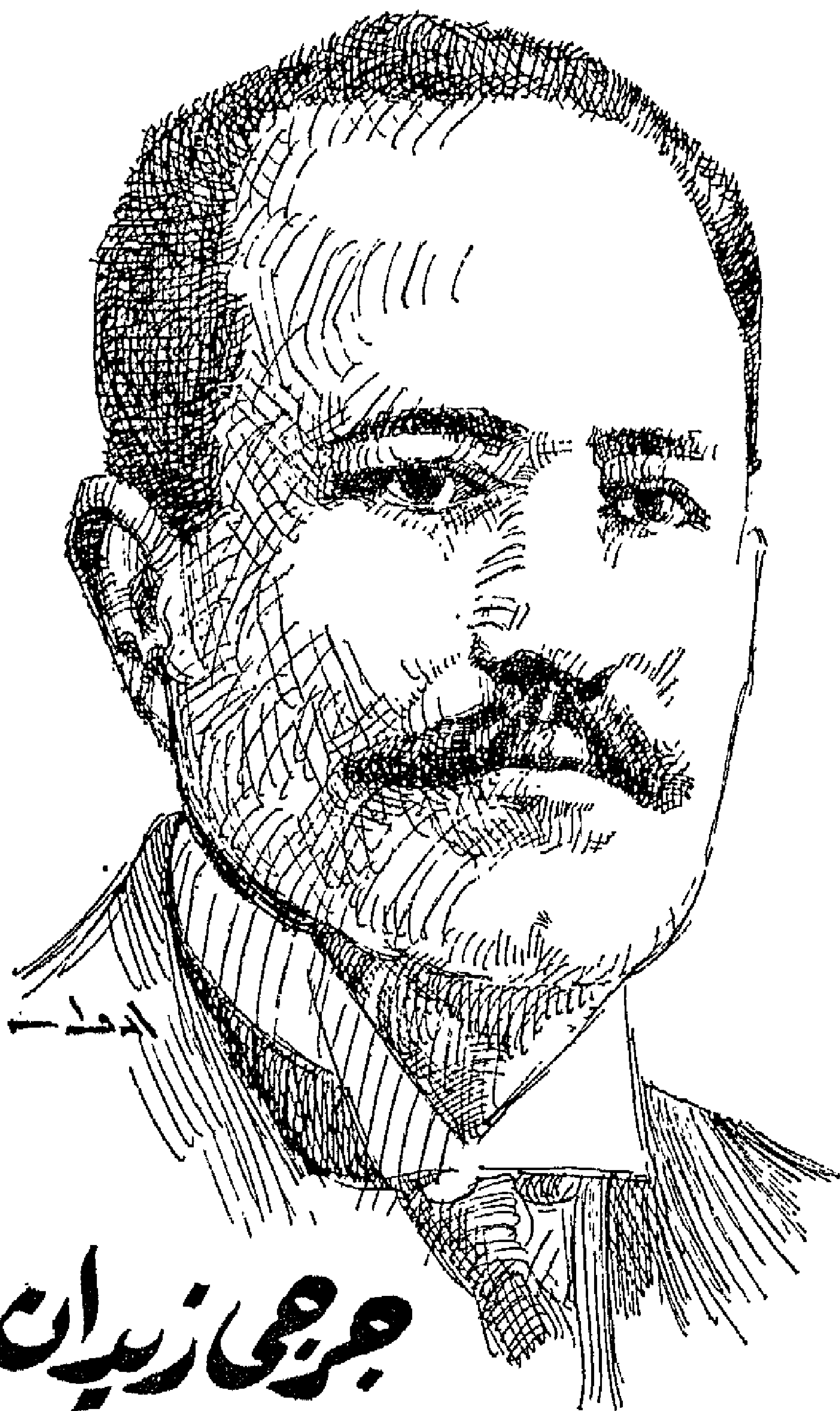
وبعد حديث متشعب ، دعانى والاستاذ عبد القادر الى قضاء سهرة فى منزله .. فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود باشا رحمه الله

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة روز اليوسف اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا اليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمى ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لأن الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع اليه

ولقد كانت أحاديثه فى تلك الليلة أكثر من أن تذكر ، الا اننى اذكر من طرائف السهرة ان السيدة روز اليوسف كانت تخاطب قرينته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها الى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام ..

نابغة من نوابغ عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التى أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار




جرجي زيدان

كنت حوالى سنة ١٩٠٥ اعمـــل فى دواوين الاقاليم : قنا ثم الزقازيق ..

وكنت أزور القاهرة مرة كل اسبوعين ، أو كل شهر ، عندما كنت أعمل فى الزقازيق ..

ازورها لفرضين فى وقت واحد : ان اشـــهد التمثيل بفرقة سلامة حجازى ، وان ابحث عن الكتب التى لاتصل مع الباعة المتجولين الى الاقاليم ..

وفى مرة من هذه المرات ، قصـــدت الى حى الفجالة لأسأل عن كتاب ما ــ أى كتاب ــ فى فلسفة الجمال ..

ولم اكن اعرف اسم الكتاب الذى ابحث عنه لأنه ــ كما ظهر لى بعد ذلك ــ لم يوجد من قبل باللغة العربية ، ولم يوجد الى اليوم . وانما كنت اتصفح فصـــول الاديب الخطيب الانجليزى ادمون بيرك عن الجليل والجميـــل ، فخطر لى أن مثل هذا المبحث لابد ان يكون مطروقا باللغة العربية ، وكان اعتقادى فى كتابنا المحدثين منذ اواسـط القرن التاسع عشر كاعتقاد اجـــدادنا في الاوائل اذ يقولون : ما ترك الاول شيئا للاخر .. فاذا كانت اللغة الانجليزية قد اشتملت على بحث فى فلســفة الجليل والجميل ، فاكبر الظن أن كتابنا المترجمين لم تفتهم ترجمة بحث من هذه البحوث ..

ودخلت المكتبة فوجدت على شمال المنضدة المعدة لعرض الكتب رجلين يجلسان على كرسيين متجاورين : أحدهما مطربش والآخر معمم ، وطرق مسمعي أسم السيد توفيق وصهاريج اللؤلؤ ، فسمعت الرجل المطربش يقول لمحادثه المعمم : أن السيد توفيق قد عاد بالنثر العربى خمسمائة سنة الى الوراء

وسألت البائع : هل يوجد عندكم كتاب فى فلسفة الجمال ؟

قال مستغربا : فلسفة ماذا ؟

فأعدت قولى بلهجة التوكيد : فلسفة الجمال !

والتفت الرجل المطربش الى هذا الحوار ، فنظر نظرة استفهام الى البائع ، فاجابه هذا :

ـ ان الافندى يسأل عن كتاب فى فلسفة الجمال !

فتمهل الرجل المطربش ، ثم قال : ما اظن كتابا فى هذا الموضوع قد الف باللغة العربية ، ثم سألنى هل رأيت الكتاب المطلوب وعرفت اسمه ، أو اسم مؤلفه

قلت : كلا .. ولكنى رأيت شيئا فى بحث الجليل والجميل بالانجليزية فخطر لى ان البحث مطروق بلغتنا ..

قال فى تؤدة وهو يبتسم : ينبغى حقا ، ولكنه لم يطرق فى كتب مستقلة ، ولا يزيد ما كتب عنه على بعض الاشارات المتفرقة فى المجلات

علمت من البائع ان الرجلين المتحادثين هما : جرجى زيدان صاحب الهلال ، وابو بكر لطفى المنفلوطى أخو مصطفى لطفى المنفلوطي الكاتب المعروف .. وابوبكر نفسه كاتب لم يشتهر شهرة اخيه ، وهو الذى كان يكتب بعد ذلك بسنوات فى جمعية « مصر الفتاة » مقالات يحكى بها

مقالات أخيه فى المؤيد باسلوب كاسلوب «صهاريج اللؤلؤ» فى التفخيم والاغراب

ولا ازال اذكر صورة جرجى زيدان كما رايته فى ذلك اليوم : رجلا بسيط المظهر بعيدا من كل تكلف فى زيه وجلسته وحديثه : يتكلم فى الادب والبلاغة والاحاديث العامة بأناة العالم المحقق ، ولكن بسهولة المتحدث المفيد .. كأنه يقول ما يقوله للتعليم دون أن يبدو عليه مظهر المدرس فى حصة التدريس ، ولا اذكر اننى رأيت من ابناء عصره كاتبا بمثل شهرته ومكانته وبمثل هذه البساطةفى المظهر والحركة والحديث ، وقد رأيته بعد سنوات فى داره وفى ساعات فراغه فلم أجد بين مظهره وهو بعيد من الناس ومظهره وهو فى المكتبة العامة أقل خلاف .



وقد طبعت اول ما طبعت من كتبى بمطبعة الهلال ، وهما كتاب خلاصة اليومية ، ثم رسالة الانسان الثانى عن المرأة وتاريخ طبعهما كما هو مكتوب عليهما (سنة ١٩١٢)

ولهذه المناسبة كنت ارى « جرجى زيدان » احيانا فى مكتبة الهلال واحيانا اخرى فى مطبعة الهلال ، فان لم يكن فى المطبعة ووجب سؤاله عن شأن من شئون الطبع فالدار التى كان يسكنها غير بعيدة من دار المطبعة ، والاستئذان بالتليفون قبل الزيارة لم يكن من مألوفات ذلك الزمن ، ولم يكن شيوع التليفون بين المكاتب والمنازل كشيوعه فى هذه الايام ، وانما كان طالب الزيارة يطرق الباب ويسأل عن صاحب الدار : أهو حاضر ؟ وهل يمكن لقاؤه ؟.. وغالبا ما يجاب بغير حاجة الى موعد آخر محدود

وكان العمل مقسما بين الاخوة الثلاثة : جرجى للمجلة

ومترى للمطبعة ، وابراهيم للمكتبة ، وليس بين المطبعة ومسكن صاحب الهلال غير خطوات قلائل .. أما المكتبة فقد كانت بينها وبين المطبعة مسيرة دقائق معدودات ..

واحسب ان الامر لم يدع الى مقابلتى اياه بداره اكثر من مرة واحدة سألته فيها عن رايه فى فلسفة التفاؤل والتشاؤم ، وعلمت فيما عدا هذه المقابلة ـ عرضا ـ مبلغ عناية الرجل بالاطلاع على موضوعات العلوم من شتى المباحث والمطالب ، وان لم تكن لزاما من موضوعات النشر بمجلة الهلال

سألته : ايهما اصح واصوب ، نظرة المتفائل أو نظرة المتشائم ؟

وربما كان السؤال : اى الفلسفتين اصدق ، فلسفة التشاؤم أو فلسفة التفاؤل ؟

لست اذكر نص السؤال بكلماته ، ولكننى اذكر موضوعه العام لاننى كنت مشغولا به فى كل مطالعة وكل نظرة الى مسائل الادب والحياة ، وفى كلا الكتابين اللذين طبعتهما بمطبعة الهلال اشارة الى الامامين المتشائمين : ابى العلاء ، وشوبنهور ، وهما متلازمان فى ذهن كل قارىء عربى يسمع بالتشاؤم فى الثقافة الاوربية ..

ففى خلاصة اليومية اقول بعنوان القول والقائل : .. « انظر الى ما قيل لا الى من قال ـ قاعدة لا يصح اطلاقها فى كل حالة ـ فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها ، فان كلمة مثل قول المعرى :

تعب كلها الحياة فما اعـ
جب الا من راغب فى ازدياد

يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه فى كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها .. فاننا نثق بأن المعرى مارس الامور الجوهرية فى الحياة ودرس

الشئون التى تكون منها عذبة أو مرة ، نكدا أو رغدا ، ولم يسبر منها اولئك العامة الا مايقع لهم من الامــور التى لا تكفى للحكم على ماهية الحياة »

وفى رسالة الانسان الثانى بعنوان عصر المرأة أقول :

« وقفت على آراء فى المرأة للفيلســـوف الالمانى ارثر شوبنهور ، فأعجبنى حذق الرجل وجراته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها فى اوربا خلوا من التهذيب وســلامة الذوق . وان كنت اراه قد غلا فى مذهبه الى حد ربماكان الدافع به اليه غلو المدنية العصرية فى نظرها الى المـرأة ورعايتها اياها »

وقد سألت صاحب الهلال فى هــذا الموضـــوع لاننى انتظرت ان اعرف الرأى الراجح من تجاربه كما اعرفه من اطلاعه ودرسه .. فسمعت منه الجواب المفيد عن الامرين

قال لى فى بســاطة الرجل الذى يتحدث عن الجو أو أحاديث السمر العارض :

« اننا نعرف من التشاؤم مزاج صاحبه كما نعرفذلك من التفاؤل ، وقد يكون رأيهما واحدا فى حقيقة من الحقائق العملية ، أو الفكرية ، ولكن هذا يجعله سببا للرضــا والآخر يجعله ســببا للسخط على حسب مزاجه .. فليست المسألة معهما مســألة صحة أو بطلان ، ولكنها مسألة التأثر على حسب المزاج

واحسب انه قال ايضا : اننا نترك البحث عن الاصـــح ونبحث عن الاصلح ، فنرى ان التفاؤل أصلح للعمل فى الحياة والنجاح فيها .. لانه اصلح لاحتمال الشدة واصلح للأمل فى النتيجة

وأحسن ما حسن عندى من ســمت الرجل ، ومن

بساطته فى حديثه ، وبساطته فى كتابته ـ انه لم يتخذ من قواعد العلم كتافا لعقله يحجر عليه ويحرجه احراج الموسوس الذى يكرر الواقعة مرة بعد مرة ليستوثق من صحتها وضبطها من جميع نواحيها واطرافها ، ثم يرى انها هى العلم وكل ما عداها فليس من العلم فى شىء

وكذلك لم يتخذ من قواعد العلم كساء مزركشا يخشى عليه اللابس ان تنكسر قصبة فيه اذا طاوع عقله فى الحركة بعض المطاوعة ، ولم يتخشب مع الكساء المزركش ، على سنة الوقار أو على سنة الجمود . .

فقد كان على اطلاع واسع فى العلوم التجريبية كاطلاعه على بحوث التاريخ والاجتماع ، ولكنه كان فى سماحة الفكر وسهولة النظر بحيث يحس كما يفهم ان العقل قد يكون «علميا» وهو يخوض فى كلام لم يقرره العلم ولم يقرر نقيضه كذلك

ولهذا كان جرجى زيدان يبيح لفكره ان ينظر فى « علم الفراسة الحديث » وليس هو من العلوم التى فرغت التجربة من قوانينها كما فرغت ـ مثلا ـ من قوانين الحركة

وكان يبيح لفكره ان ينظر فى أصول اللغات واصول الكلمات واصول القواعد اللغوية دون ان يكون للعلم حكم قاطع فى كل اصل من تلك الأصول

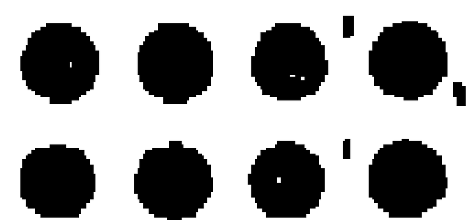
فان لم يكن ما يقوله علما مصبوبا فى قالبه الأخير ، فهو ـ بلا شك ـ مادة علمية يجب ان تتهيأ لقالبها على شكل من الأشكال ، ويمتنع علما ان تترك بغير التفات اليها . فان عمل العلم فى تشكيل المادة قبل ثباتها على شكل من الاشكال أوجب من صب القوالب على الشكل

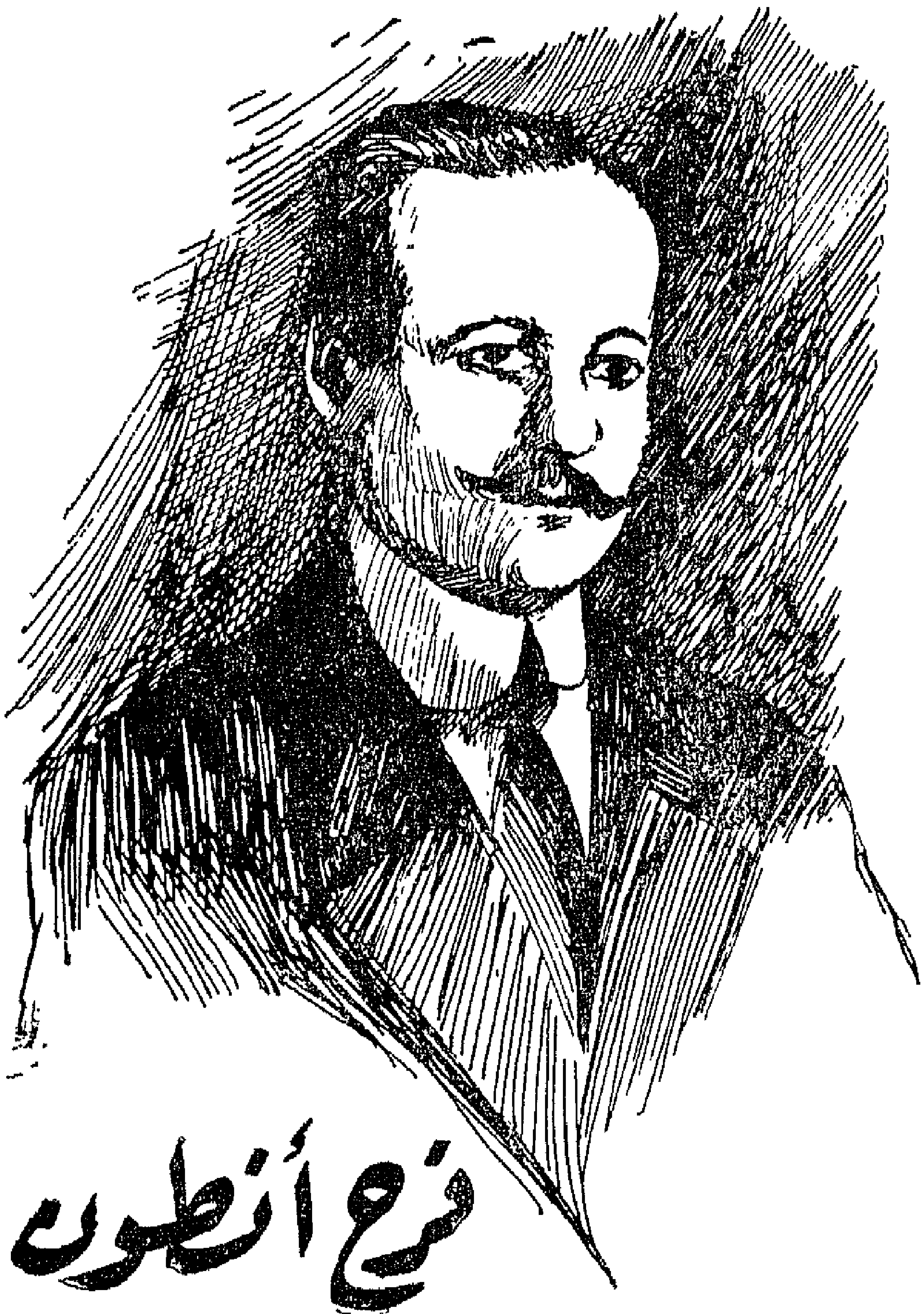
الاخير .. وأوجب من ذلك الا يكون « الشكل الاخير » هذا هو كلمة الختام ، وهو الحكم الذى لا يقبل النقض والتنقيح

وقد كتب جرجي زيدان فى كل مسألة من مسائل عصره الاجتماعية والفلسفية والادبية ، فكان فى كل منها بسيطا تلك البساطة التى عهدناها منه وهو يتكلم عن اسلوب البكرى أو عن كتاب فلسفة الجمال ، أو عن فلسفة التفاؤل والتشاؤم ، ولكنه قال فيها جميعا رايه الذى لم يناقضه العلم ولم يأت بما هو اثبت منه على اختلاف النظر فى الأمور

ولسنا نحسب ان تناول الدراسات المختلفة بمثل هذه البساطة مسموح به لكل صاحب قلم مشتغل بالبحث والتفكير ..

انما يسمح به ـ فى غير حاجة الى الرخصة من احد ـ للعقل الذى يستمد بساطته من مصدر واحد : وهو مصدر القوة التى هى اكبر من قيود البحث ومراسم الدراسة ، وهى فى طمأنينتها الى قدرتها على سبك القوالب وصهر المادة التى تملأها تعالج المادة فى دور التشكيل كما تعالجها فى قالبها الأخير




فرح أنطون

مضت عدة سنوات على احتجاب ذلك الطيف الذي كان كثيرا ما يرى فى هذه العاصمة غاديا أو رائحا فى خطوة وئيدة وعزلة بعيدة ، كأنما يسرى من حيث لا يعلم الناس الى حيث لا يعلمون ، ذاهب الطرف أنى سـار كالعابر من عالم لا يذكره الى عالم لا يرجوه غير مشغول بأمر الطريق .. على وجهه سماحة تظللها سحابة من اسف شجى ولوعة مخامرة ، وفى عينيه حيرة قرت من فرط القلق فعادت فى رأى العين طمأنينة راضية ، وعلى شفتيه صمت مصر كظيم يصف لك من صاحبه هاتفـا دعاثم الحف داعيا مناديا حتى مل وفتر ، فلم يستمع اليه مصيخ ولم يجب الى صوته صدى ، فأطبق شفتيه اطباقة من لا ينوى افترارا ولا يهم بصيحة ولو علقت النار بردائه .. مضت سـنوات على احتجاب ذلك الطيف واحتباس حركته ، فكان مغيبه فى نفوس المحبين والعارفين رزءا فادحا وألما بارحا ونزعة شديدة وشقة بعيدة ، وكان فى تصور الخيال خطوة واحدة كخطوة الطيف الهائم جفلته لواغط الاصوات فأوى الى ظلمته الساكنة ..

مضت سنوات على وفاة « فرح أنطون » ..

ولقد رأيت « فرحا » مرارا ، ولكننى لم أكلمه الا مرتين

أو ثلاثا . وكانت مرة منها فى مكتب « الأهالى » اذ كان يعمل فى تحريرها ، فتلاقينا فى غرفة الأستاذ صاحبها وتعارفنا على يديه ، فسمعت من نبرة صـــــوته وفاق ما رأيت من خشوع نظرته ، وأحسست موضع دائه فقلت له مؤاسيا ــ وكان كلامنا على النهضة السياسية ــ انك يا « فرح افندى » طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة ، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر ، وستكون حين تفترق الطريقان خيرا مما كانت فى هذا الملتقى المضطرب . فأومأ برأسه ايماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال : « انه يا أخى تيار جارف .. فماذا يحفل المستقبل بالحاضر ، وماذا يبالى السائر المغذ بمن كان قبله فى مفترق الطرق ؟! » فبدا لى أن الرجل يئس من الحياة ، وأنه جرب كل سهامه حتى ساء ظنه بالسهام والهدف . على أنه كان الى يوم وفاته ممسكا بالقوس لا يحول بصره عن الهدف الذى خدعه ، وذلك ديدن غالب فى النفوس الراجية ، وهو كهامة الأمل تتردد حتى تفيض روحه ..

ما يئس ذلك الفاضل الأبى هذا اليأس الا لأنه أبعد منزع الرجاء ، فلم يكن غريبا ان يمنى بحسرة المضيع المنبت عن غايته .. لم يكن ذلك غريبا ولو أنه كان فى بلاد الغرب الناشط منشؤة ، وفى ذلك الميدان الممهد جهاده . فكيف به وقد نشأ فى هذا الشرق المسرف الذى يمشى بين الأمم فى أطمار الفاقة ، ويمزق ما يضفى عليه من نسج العقول تمزيق البذخ والغنى !! الا اننا نقول : من أين الشرق المسكين أن يفعل غير ما فعله ؟ ومن أين لعظمائه المغبونين ان يفعلوا غير ما يفعلون ؟!.. كفاهم عزاء انهم أضخم من عظماء الغـــــرب واجبا واجل منهم قربانـا ، فان يكن امدهم بعد الأين والنصب قريبا واثراهم بعد

الجهاد ضئيلا قليلا فلتكن سلواهم — لابل فخرهم — أن واجبهم ثقيل وان سفرهم على قرب الامد سفر طويل ..

وفرح أنطون : كسائر الكتاب الذين يستوحون قلوبهم ويقطرون على القرطاس من دمائهم ، مفكر تؤثر فى تفكيره عوامل الحياة وتنبث فى نفسه ألوان الجو الأدبى الذى يحيط به . ولقد فاتنى ان احيط بكل ما كتب ذلك الأديب الفقيد ، ولكن الذى قرأته من كتبه ناطق بحياة صاحبه ، يدل على انه من وحى ذهن لا تمر به مذاهب الفكر الشائعة فى زمانه عبثا ولا تتعارض حوله تيارات الحياة بغير جدوى ، ولعل أصوب ما يقال فى كتاباته انها خير دليل على اتجاه تيار الفكر فى أيامه وخاصة فى نشأته الاولى ، اى فى عهد الصبا المتفتح للدنيا ، المقبل على كل جديد ، الذى قل ان يوصد بابه فى وجه طارق من طوارق الأفكار الجميلة ، أو يضن بموضع فى نفسه على ضيوف الأحلام اللاعبة والخواطر الوسيمة .

نشأ « فرح أنطون » فى سورية ، وكانت نشأته فى أواسط النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فبقى فى حياته الفكرية أثر واضح من وطنه المكانى ووطنه الزمانى . فأما وطنه المكانى فظاهر الأثر فى حملته على رجال الدين وشغفه بالمؤلفات التى تنحى عليهم أو تخفض من دعواهم وتقوض من دعائم سلطانهم .. فمن ذلك اكثاره من الكتابة عن تلستوى وتلخيصه لكتاب رينان فى « تاريخ المسيح » واشتغاله بالمقارنة بين « الدين والعلم والمال » وبين ما يتنازعه سدنة هذه الأرباب الثلاثة من سيادة على الضمائر والأجسام . ومن ذلك دعوته الى الفصل بين الكنيسة والحكومة ، ورأيه الذى ارتآه فى كلامه على ابن رشد ذاهبا فيه الى انتقاد الجمع بين السلطتين الدينية

والدنيوية فى الخلافة الاسلامية ، وهو الرأى الذى كان من اسباب فشله وكساد مجلته « الجامعة ».

ولعل سائلا يسأل : ولماذا يكون التحدى البين للنفوذ الدينى خاصة من خواص النشأة السورية ؟ .. فأقول لهذا السائل : اننى كنت كذلك أعجب لهذا الامر وأستغرب الغيظ الشديد الذى تتوهج به كتابة السوريين الاحرار حين يحملون على النفوذ الدينى فى بلادهم ويصفون تغلغله فى شئون قومهم .. وكنت لا أعرف لذلك علة حتى تذكرت القوة التى يقبض على زمامها رجال الدين فى سورية ، فخطر لى أنه لا عجب ! لان رجال الدين هناك ربما كانوا أقوى الطوائف الدينية فى العالم ، وأوسع رعاة الكنائس اشرافا على حياة اتباعهم .. فقد جمعوا بين الزعامة فى الدين والزعامة فى السياسة والزعامة فى العلم

وناهيك بها من سطوة هائلة تغرى بالتحدى وتغرى بالمناجزة ! أما سبب اجتماع هذه السطوة لهم ، فللحوادث التاريخية التي حدثت عقب غارات الصليبيين وعقب الاتفاق على الامتيازات الاجنبية دخل عظيم فيه . وخلاصته القريبة أن طائفة رجال الدين كانت فى البلاد السورية ــ ولا تزال ــ معقد آمال الشعب المسيحى فى الحرية السياسية ، لما بينها وبين الحكومة الفرنسية والحكومات الاوربية الاخري من صلة معروفة ، وأنها كانت ولا تزال قائدة الافكار وقدوة المسترشدين لانها منشئة المدارس وطابعة الكتب ومربية الصغار والكبار . واذا اجتمعت لفئة واحدة أزمة السطوة الروحية من كل جانب ــ كما اجتمعت لفئة القسيسين السوريين ــ فغير عجيب الا يرضى عنها ، وأن يتبرم بها ، فريق الشبان

المتعطشين الى المعرفة الحرة ، التواقين الى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الابية والعقول الطليقة والاخلاق المعتقة من أسر التقاليد والعادات .. وغير عجيب أن يجعلوا تحديها والاغراء بها هجيراهم وشغلهم الشاغل في كل ما يدرسون ويكتبون . وهذا ما تراه في كتابات « فرح أنطون » مع شيء من الرفق والاعتدال ، وتراه على تفاوت في الجرأة وغلو في اللهجة ـ في كتابات الادباء السوريين المهاجرين الى الاقطار الامريكية

اما وطنه الزماني ، فأثره ظاهر في الطريقة الكتابية التي تبعها منذ عهده الاول ولم يغيرها الا قليلا في عهده الاخير .. ونعني طريقة الكتاب القائلين « بالعودة الى الطبيعة » .. وهي كما لا يخفى الطريقة التي كانت كتبها وآراؤها ميسورة للقارىء الشرقي في ذلك العصر حين يأخذ في مطالعة الآداب الفرنسية ، ولاسيما الخفيف القريب المتناول منها . فلما ترعرع « فرح » واشتاقت نفسه الى ما عند الغربيين من زاد الفكر ولذة النفس ، ألفى بين يديه كتب روسو وبرناردين وغيرهما تدعوه الى موائدها السهلة الهنيئة .. فأقبل عليها ولهج بها وتملكت لبه وأصابت من فطرته الوادعة الكريمة موقعا حسنا .. وحق لها ان تصيب ذلك الموقع لانها كانت في عصرها اصدق ما يعبر به عن سآمة النفوس من آفات المدنية وأدرانها وجور الطغاة من ساسة القرن الثامن عشر ، ويخيل اليك ان اديبنا كان يكتب بقلم من اقلام أولئك الفلاسفة والادباء الذين تعشقهم وأغرم بآرائهم لقرب مأخذه من مأخذهم ومشاكلته اياهم في اسلوبهم وطلاوة عبارتهم . ولا اقول انه كان يقلدهم أو يترسم خطاهم ، فاني أجله عن ذلك ولا اضعه دون برناردين مثلا في منزلة او صفة ، ولكني اقول انه توافق في الفطرة

وتطابق فى النظرة يسلكه فى مضمارهم ويتقدم به الى صف الكثيرين منهم ..

على اننى لا احسبه استمر طويلا على الايمان بعقيدة العود الى الطبيعة وابتغاء السلام فى حظيرتها ، اذ هى عقيدة لا تثبت على تجارب الايام واختبار حقائقها ولا تبهر النظر فى ضوء المذاهب المستحدثة بعد روسو وتلاميذه . ولا اشك فى انه اجتواها واعرض عنها بعدما زاول من حقائق الدنيا ونظر فى دارون ونيتشه .. فان الاطلاع على دارون ونيتشه ومن حذا حذوهما ينشىء للنفس احساسا جديدا « بمسئوليات » الحياة ، يغض من قداسة الرجعة الى الطبيعة ، ويجعل النكوص من المعترك وصمة وعارا . هذا فضلا عن ان الطبيعة التى يصورانها ليست بالملاذ الانيس ولا بالملجأ الامين من شرور المدنية واوضار المجتمع .. انما هى والمدنية سواء فى حكم تنازع البقاء وبطش الاقوياء بالضعفاء والاشرار بالاتقياء

وفى مناجاة الكاتب لشلال « نياجرا » وقفة تريك العابد يمسح صنمه ويؤنبه ويسبح باسمه ويذكر له قلة غنائه عنه .. تريك « فرحا » يحب الطبيعة وينكرها ويلومها ويعذرها ويقول فيها ما يقوله الكافر الذى يود لو يؤمن والمؤمن الذى شق عليه ان يكفر .. ففى مزاجه حنين الى عقيدته القديمة فيها ، وفى عقله نبو عنها وسوء ظن بها . ومن هذا النزاع بين مزاجه وعقله استملى مقالا من غرر ما يقرأ على نمطه فى آدابنا الحديثة ، وبث زبدة حياته وصفوة تجاريبه فى بضع صفحات لا يمل تكرارها .. وعندى انها حسب كاتبها من اثر فى عالم الكتابة ان لم يكن له قط أثر سواها ..

كان « فرح انطون » كاتبـــا على استعداد للرواية والقصص ، وكانت ملكته القاصة تظهر أحيانا فى مقالاته الادبية والســـياسية كما تظهر فى رواياته وحكاياته .. فمال به هذا الاستعداد الى وضع الروايات فأحســـن وارتفع فى روايته « اورشليم الجديدة » ثم تقلبت بـــه صروف ، وألمت به محن ، وتجرع من مرارة الخيبة مرارا .. وطلب اليه وهو بين اليأس والرجاء ان يترجـم او يكتب للمسرح ، فلبى وبدا بداءة حســـنة ، ولكنــه لم يحقق بغيته ، ولم يصـــنع شيئا يليق به او يضـــاف الى محاسنه .. وقد حضرت احدى رواياته التلحينية ، فما أطقت الصبر اعلى اكثر من فصل منهـــا .. ولم ار فى موضوعها ، ولا فى فنها ، ولا فى غنائهـــا ، ولا فى ممثليها ، ولا فى الجمهـــور الذى يســـمعها ، اثرا لـ « فرح أنطون » الذى نعرفه ، ولا علامة على ملكتـــه السامية ومكانته الادبية ، وهى زلة نأسف لهـــا ونعتبر بها . ولكن هل هو أول من يلام على اضطراره الى هجر ملكته والخروج عن جـــادته ؟ الم يكن يربح فى الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعدل ربحه من جميـــع مؤلفاته ومترجماته الصالحة ؟ .. فمن المســـئول عن ذلك ؟ .. أهو أم الجمهور الاحمق المأفون ؟ ! وماذا كان يصنع « فرح أنطون » ان لم يؤلف تلك الروايات ؟ ! .. الا فلنعلم اننا اذا كنا لانختـــار للاديب النابغ المريض المنقطع الموارد الا أن يموت بيننا على «الكتمان» جوعا ، فقد يحق لذلك الاديب ان يختار لنفسه خاتمة أســـلم واكرم من تلك ..



رجال صول ”مٹی“

فى سجل الادب « الخاص » من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطوية الى اليوم ، وان كانت منها ما يهم ان يطلع الى عالم النور من طيات الخفاء ..

ونعنى بالادب الخاص ، ذلك الادب الذى لم يقصد للنشر وان كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير اصحابه فى حياتهم الخصوصية . وعلى راس هذه الصفحات صفحة « الندوة » التى كانت تعقدها نابغة جيلها « مارى زيادة » وقد اختارت لتوقيعها الادبى أسم « مى » من الحرفين الاول والاخير فى اسمها بدفتر الميلاد ، وتأتى هذه الصفحةعلى رأس أمثالها بين صفحات هذا الادب الخاص ، لمكان «مى» من نهضة الادب ونهضة المرأة فى آن

او جمعت الاحاديث التى دارت فى ندوة « مى » لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة « العقد الفريد » ومكتبة « الاغانى » فى الثقافتين الاندلسية والعباسية

واو جمعت الرسائل التى كتبتها « مى » أو كتبت اليها من نوع هذا الادب الخاص لتمت بها ذخيرة لا نظير لها فى آدابنا العربية ، وربما قل نظيرها عند الامم الاوربية

التى تصدرت فيها المرأة مجالس الازياء الادبية والازياء الاجتماعية ، الا ان يكون ذلك فى عصر « الصالونات » او عصر النهضة منذ القرن السابع عشر الى ما قبل القرن العشرين

أذكر هذا بعد قراءة الرسائل التى نشرتها مجلة «الهلال» للعلامة المفضال استاذ الجيل احمد لطفى السيد ، فان هذه الرسائل تعرفنا بصورة للطفى السيد لا نعرفها من كتابته فى الجريدة ولا فى كتابته فى تراجم ارسطو ، ولا فى كتابته بدواوين الوزارة ، وفيها من طابع الشخصية ، وطابع الندوة ، وطابع العصر ما تحسبه خاصا ان شئت ، وتحسبه ملكا عاما ، من ناحية الفن ، لقراء الادب الذى اقترن باسم لطفى السيد ، واسم مى ، واسماء كتاب الندوة وأدبائها الكثيرين

وعند مى ـ على ما نعلم ـ انماط عديدة من الرسائل التى تسللت فى عداد هذا الادب الخاص ولا ندرى أين موضعها الآن ، وان كنا نخشى ان تكون قد احرقتها أو ردتها الى كتابها لتسترد منهم كتبها اليهم ، كما صنعت فى غمرة من غمرات الحزن ، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها ..

ولكن الذى بقى منها فى موضعه أو عند اصحابه ، يساوى الجهد الجميل الذى يبذل فى جمعه ، وانقاذه ، وتسليمه لاصحاب الحق الاخير فيه ، وهم قراء الآداب ومحبو الفنون ..

كم كان زوار تلك الندوة العالية ؟ وكم كان كتاب الرسائل منها واليها ؟

اننى اعد ممن رأيتهم غير مرة نحو الثلاثين ، أذكرهم كما ترد اسماؤهم على القلم فى هذه الساعة : لطفى

السيد ، عبد العزيز فهمى ، شبلى شميل ، سليمان البستانى ، احمد شوقى ، خليل مطران ، انطون الجميل ، داود بركات ، نجيب هواوينى ، توفيق حبيب ، توفيق اسكاروس ، أمين واصف ، مصطفى عبد الرازق ، مصطفى صادق الرافعى ، هدى شعراوى ، احسان القوصى ، ادجار جلاد ، سليم سركيس ، يعقوب صروف ، حافظ ابراهيم ، اسماعيل صبرى ، ادريس راغب ، فؤاد صروف ، عبد القادر حمزة ، منصور فهمى ، طه حسين ، ملكة حفنى ناصف ، مجد الدين حفنى ناصف ، عبدالستار الباسل ، ونخبة من هذا الطراز على اختلاف التشكيل ومع حفظ المقام ، كما يقال فى هذا المقام

وكل زائر من هذه النخبة كان حقا له ان يزور الندوة فى موعدها فى اصيل يوم الثلاثاء ، وكان يرى من حقه ، أو واجبه ، ان يعتذر لفوات موعده منها بعض الايام ، بل كان من حقه ان يكتب رسائل الاعتذار او رسائل السؤال والتحية وان لم يكن من مطمعه دائما ان يتلقى الجواب ..

أكل هؤلاء عشاق ؟ ..

وعلى كل من هؤلاء ينبغى ل «مى» ، اذا اجابت ، ان تجيب جواب المحبوبة التى تتقبل العشق ممن يدعيه ؟

هذا هو الخاطر العاجل الذى يسبق الى الوهم كلما ذكرت تحيات الرسائل ، أو القصائد احيانا ، من غير واحد فى هذه الزمرة المختارة

وهذا هو الخاطر الذى تصححه لمحة سريعة ايضا ، الى طبيعة الندوة وطبيعة التحية « العرفية » التى تناسبها ، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، ان لم نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية !

فتاة جميلة أديبة ، يزورها ادباء وشعراء وكتاب قصة واصحاب ذوق في جمال الكلمة وجمال الطلعة

ان فات احدا من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام ، فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة ، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجاة

وان فات «ميا» أن تتقبل هذه التحيات ، أو وجب عليها — كما قد يخطر على بال الاقدمين — ان تصدها بالعبوس والغضب ، فليست هي زيارة « ندوة » اذن .. ولكنها زيارة واحدة قد تنتهي كما تبتدىء عند باب الدار

وهذا هو تأويل الرسائل على اسلوب الفن العاطفي ، او العاطفة الفنية ، بين صاحبة الندوة وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار

ولكل منهم أسلوبه في تعبيره داخل هذا الاطار من التحية

لطفي السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف ..

وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت الخجل ، كأنه الصبي في مجلس الفتيات القريبات ..

وأنطون الجميل وأسلوب بائع الجواهر في معرض الهوانم ...

وشبلي شميل واسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور ..

وخليل مطران وأسلوب موليير على غير مسرح التمثيل ..

وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالون من أشهر صالونات البيوت

ومصطفى صادق الرافعى وأسلوب المفاجأةبالكتابةالتى يغنى الاطلاع عليها عن السماع ..

واسماعيل صبرى وأسلوب الشاعر الذى يعلم أنحق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكنايةوالتلميح،وهو الذى كان يكتب الابيات قبل يوم الزيارة مستئـذنا فى الحضور :

ان لم امتع بمى ناظرى غدا
لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء

وأحمد شوقي وأسلوب الايماء من بعيد ، وعليه تعليق الفيلسوف المعجب بالطرفين !

تتألف لجنة من لجان المحافل الثقافية ،فيخرج شوقى من صمته مرة واحدة ليشترط أن تكون «مى» سكرتيرة اللجنة ، والا فلا احتفال ..

ويدركه لطفى السيد ليسأل ، أهذا اقتراح شعرى أو اقتراح فى النظام ؟! ..

وغير ذلك من الاساليب كثير على كل لون ، ومن كل طراز ، ولكنها كلها أساليب التهذيب واللباقةالتىتناسب الزوار وصاحبة الدار ..

وبين الزائرين الذين كانت لهم زلفى الرعاية الطـويلة ادريس راغب رئيسالمحافل الماسونية الى عهد الملك احمد فؤاد ، ولم تكن «مى» من اعضاء المحافل الماسونية على ما أعلم ، ولكن ادريس راغب كان يملك مطبعة المحروسـة وينزل لوالد مى الياس زيادة عن حق ادارتها واصـدار الصحيفة منها ، وكانت ل « ادريس راغب » هواية صحفية تمكنت منه على الخصـوص بعد عزله عن وظائف الادارة على اثر القضيةالمعروفة بقضية ارض المطرية بينالخديو

عباس وحسن موسى العقاد ، فاقتنى المطابع لاصدار الصحف الفرنسية والعربية ، وخص والد مى بالاشراف على المطبعة العربية دون ان يقيده بسياسة يمليها اعليه ، وكانت زيارته لندوة مى أشبه بالزيارات العائلية كلما اصطحب معه احدى كريماته الفضليات ، وان ابت عليهم محافظة الاسرة أن يجلسن مع الزوار ، فاذا حضر منفردا عرفنا ذلك من سؤال مى عن آل بيته السيدات ، ومن جوابه بالاعتذار عنهن » أو دعوتها الى زيارتهن فى موعد قريب ..

وكانت الآنسة مى حريصة على تقاليد العرف فى الصالونات العائلية الى حد التكلف .. فهى تعقد ندوتها الاسبوعية للادب والادباء ، ولكنهالا تنسى برنامج الصالون المصطلح عليه فى البيوت ، ولا تحب ان يظن الزوار العائليون أن أدبها ينسيها تقاليد(ربة الصالون)فى مجتمع الاسرة ، وأن مادة الثرثرة الاجتماعية (نمرة) منتظرة فى كل صالون يحضره اناس من أصدقائها الادباء الذين تعرفهم معرفة عائلية وتقابل زوجاتهم واخواتهم فى بيوتهم وفى ندوتها ، وقد كان يلوح لى غير مرة انها كانت تنتظر من أولئك الزوار العائليين خبرا أو أخبارا عما يجرى فيه الحديث بينهم فى شئون الزواج والطلاق والخلاف والوفاق وتعقب عليه بملاحظة عابرة أو نكتة فكهة ، الا ان يكون فيه شيء من المساس الصريح بالاخلاق المرعية ، فهى فى هذه الحالة تتابعه بالصمت أو تصرفه بكلمة عابرة ..

قال أحد الحاضرين يوما : أسمعتم أن الاستاذ حافظ رمضان قد تقدم لطلب الزواج من السيدة هدى شعراوى ؟

فقالت : « انه خطيب كفؤ للزوجة المخطوبة ، والتفتت

الى كالمتسائلة عن رأيى فى رأيها هذا ، لان الخطيبين لهما شأن فى الحياة العامة ، فقلت بغير اكتراث كأننى أساق سوقا الي الحديث :

ــ ان الامر يعنيهما ، وبارك الله للعريس فى العروس وللعروس فى العريس .. !

وقد كانت « الحشمة الصعيدية » لا تفارقنى بحكم العرف الذى نشأت عليه ، وكنت اشــــهد مجلس والــــدى فى صباى فلا اسمع خبرا من هذه الاخبار التى تدور على الحريم وكل ما يتصل به من تبر او علانية ، فاذا عرض اتفاقا فانه يعرض ليصرف على الاثر ولا يعاد اليه .. وكانت رحمها الله مولعة بالالحاح على فى هذه الاحاديث خاصة ، وهى تنظر الى تحرجى من الخوض فيها نظر الحضرى الى الريفى (الخام) القادم من القرية صــباح يومه .. !

ســـألتنى مرة : هل صحيح ان الاســتاذ عبد القادر حمزة تزوج من السيدة منيرة ثابت صاحبة الامل ؟

قلت : لا اعلم .. ولم ينشر الخبر فى البلاغ على الاقل !

قالت متهافتة : أو لا تعلم من أخبار زملائك فى البلاغ الا ما ينشر فى الصحيفة ؟

قلت : أو ما يعنينى أن ينشر !

فعادت تقول فى شيء من التخابث المصطنع : لالاياا ستاذ .. لعل الخبر لا يرضيك لامر يعنيك ..

وكانت تتحدث قليلا جدا عمن يخطبونها كأنها تعتذر ارفض الخطبة بعد الخطبة ، لغير سبب وجيــه فى رأى الاصدقاء الذين قد يلومونها على اعراضــــها الدائم عن الزواج

قالت مرة لمن سألها عن خطبة شاب من أسرة غنية ذات لقب غير مقبول :

أتريد أن تناديني غدا باسم مدام « بعجور » ..ونحن نذكر اسم «بعجور» هنا بدلا من اسم الاسرة الصحيح، رعاية لشعور ابنائها الاحياء

وخطبها طبيب لبناني فعاتبها صديق له لانها ردته بشيء من الجفاء ، فقالت : انه لطيف .. لطيف لا خلاف، ولكن اللطف الذى قد يسميه من شاء (تأنثا) لا يعجبني

وخطبها صحفي ثرثار كانت تصفه بيبوسة المخ ، فلم تزد فى جواب السائلين على السماح للخطيب المرفوض يوما من أيام الندوة بالانطلاق فى الحديث على عادته من اللجاجة والعنت ، فكاد الحاضرون أن ينصرفوا جميعا.. وكان هذا هو جوابها الغنى عن البيان ! ..

وتحدث بعضهم عن فتيات لاهيات متطرفات فيالحرية الاجتماعية ، وأبدى اشفاقه من فوات حظهن فى الزواج بمن يناسبهن ، فقالت ساخرة :

— ولكن هؤلاء وأمثالهن ، يا استاذ ، هن اللواتى يسرع اليهن الازواج من الاكفاء ، وفوق الاكفاء ! ..

ولقد كان لكل من رواد ندوتها العائليين ، دور (عائلى أدبى) ملحوظ على منهجه المألوف ..

كان للدكتور شميل دور الاب العصرى الذى يحض فتاته على (التحرر) من قيود التربية العتيقة ، وكان رفع الكلفة مع الناس جميعا طبعا من طباع الدكتور شميل لا يتكلفه مع أحد . فاذا استقبلته يوما فى الندوة ، فلمح على محياها اثرا من آثار الوجوم والاحتجاز ، صاح

بها صيحته ــ الفضنفرية ــ : ما هذا يا صغيرتى ! ..
انا حاضر هنا الى صغيرة مثل بناتى .. فماذا ارى ؟شيخة اناديها يا أم شولى ؟

وكان شميل يملك حريته كلها فى الندوة ، كأنه صاحب الدار وصاحبته هى الضيفة الزائرة فيه .. فرفع عصاه ذات يوم على الخطاط المشهور نجيب هواوينى ولم يدعه حتى أخرجه من الباب ، وذنبه الذى استحق عليه هذا الطرد العنيف انه كتب قصيدة كان الدكتور يلقيها ويقول فيها على ماأذكر :

ماذا دهاك وكنت دين سياســـــة
ورئاســـــــــــــة يأيهـــا الاســــــلام

فكتب الخطاط (الكسلان) بدل الاســــلام ، وثارت ثورة الدكتور على الرجل الذى يبلغ من غبائه ان يكتب فى القصيدة الواحدة قافية بالنون بعد قافية بالميم ، وابى ان يكون لمثل هذا حق فى حضور ندوة يحضرها من يقرءون ويكتبون !

وكثيرا ما كان شميل يحمل على « الادباء » فى عصره حملاته المنكرة ، ويصيح بهم كأنهم حاضرون امامه يخاطبهم ويخاطبونه :

ــ فضونا من غلبتكم يا أدباتية يا اولاد الكلب .. !

وكانت الآنسة تجيبه ضاحكة كلما صاح هذه الصيحة :

ــ قلمك يقول اننا اولاد القرد ولسانك يقول اننـــا اولاد الكلب .. فمن من الوالدين الكريمين تستقر نسبتنا اليه !

وكان للاستاذ داود بركات مثل هـــذا الدور الابوى المتحرر من الفتاة الرصينة المتحرجة ، وقد يتجـــاوز

النصيحة الكلامية الى الاخذ بيدها فى محافل العائلات التى يسمح فيها بمراقصة الفتيان والفتيات ، ليجذبها جذبا الى مراقصة هذا أو ذاك من زوار الدار ، وكانت هى تتملص من يده بلطف ووداعة ، ولكن بعناد واصرار ..

والاستاذ الجميل كان كصديقيه شبلى وبركات فى هذه الابوة الادبية ، ولكنه كان يؤثر نصيحتها برعاية صحتها وراحتها على النصيحة بالتحرر والانطلاق من قيود التحرج والاحتجاز ، وقد كانت له شدة تبلغ منه غاية ما يستطيعه بمزاجه (الدبلوماسى) المطبوع ، كلما لحظ عليها نوبات العناد والاصرار فى أيام مرضها الاخير ، فربما قال لها وهو يظهر قلة المبالاة :

ـ ماذا تظنين وانت تهملين صحتك هذا الاهمال ؟ أتظنين ان العالم الادبى يحفل من احتجاجك الصامت هذا ويجلس للبكاء عليك أو للضراعة بين يديك .. التفتى الى نفسك .. التفتى لمصلحتك ، والا فأنت الباكية وحدك لما يصيبك من هذا الاهمال ، وهذا العناد ..

اما الاستاذ خليل مطران فقد كان دوره فى الابوة الادبية كهذا الدور بعينه ، ولكن من ناحيته الفنية الشعرية .. ولعله كان دور (الاب) المراح فى صورة من صور ابطال « موليير » تلقى القبول والاختيار ، حيث تكون الابوة هناك ابوة جد والزام ..

كانت طريقته معها طريقة الدعابة السمحة والنقد المباح ، وكان فى دعابته احيانا يضع تكلفها الاجتماعى او العاطفى موضع « الرياء » المتفق عليه ، ويغايظها بابراز هذا الرياء للعيان ، فلا تغضب منه ولا تأباه ، بل تضحك منه كما يضحك الزوار ..

خرجت يوما لتودع سيدة جليلة وكريماتها من

اصدقاء مطران فخرج معهن ، وطال بهن الموقف عند باب الندوة بين التوديع ، واعادة التوديع ، والحزن للفــراق والرجاء فى قرب اللقاء .. فلما انقضى هذا « الفصل » الذى لا حيلة فى تمثيله على البـــــداهة او على الرويــة ، سبقهم الشاعر الكبير عائدا الينا وهو يفرك يديه ويتباكى من الحسرة والاسى ، وراح يقول وهو ينظر الى الآنســة :

ـ يا سلام .. يا سلام .. « الجماعة دول وداعهــم مؤثر . مؤثر قوى .. ! »

فقلت له متشككا كأننى أقتص من دعابته التمثيلية !

ـ مش باين يا استاذ ..

قال : رحمتك يا أخ ... اتريد ان الطــم ؟ وحضر فى اثناء ذلك زائر كبير من زوار الندوة وهو يغالب الضحك على خلاف عادته من الوقار .. فقال مطران : الحمد لله .. ماذا يضحك يا استاذنا الجليل !

وكان الزائر الحاضر هو العالم الفيلســوف الامثــل الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، وقد مـــر ببار اللواء فى طريقه الى دار الآنســة فاستوقفه صديقه الادارى الاديب « أمين واصف » وحدثه عن رئيسها احمد شفيق (باشا) فى جماعة الرابطة الشرقية ، وراح يحكيه وهو يمشى الى محطة العاصمة بملابسه التى اخترعها لتوحيــد الازياء الشرقية ، وكان من حديثه عنه انه لم يسلم عليه حين رآه للوهلة الاولى ، لانه حسبه فى ذلك الزى مسجونا يسفرونه تحت الحراسة الى الليمان !

وأنقلب (التباكى) القريب الى « انفجارة » مندفعة من ضحك القوم جميعا ، لانهم كلهم يعرفون أضاحيك أمين واصف ومراسم الشيخ المتزمت الغالى فى التزمت احمد شفيق

وثاب الشيخ عبد الرازق الى وقاره بعد هنيهة ، فقال كالمعتذر من هذه الثورة الضاحكة الى الآنسة ربة الدار :

ـ ما هذا ٠٠ اننا نضحك هذا الضحك مرة واحدة ، فلا تؤاخذينا ، فالعتب على القافية ..

ولحقه مطران بغير أناة وهو يواصل ضحكه ويقول للشيخ : أضحك ، اضحك يامولاى .. من الذى يطول ضحكة من هذه الضحكات فى هذه الايام ؟!

***

ومن مطران مورد « مى » الاكبر من النوادر المسموعة والفكاهه المنقولة عن المصادر العربية ، منه سمعت نادرة « الاسطقسات » التى تعودت أن تعيدهافى بعض المناسبات كلما ذكرت الفلسفة ، وقيل ان غموضها داء يسكن العقل ولا يفارقه بفراق الروح للجسد :

مات « ابن سينا » فصدرت الاوامر السماوية الى الملكين الموكلين بأهل المقابر لسؤاله عن ربه ودينه قبل ان يستعد للحساب بفلسفته المعهودة ، وسأله منكر :

ـ ما ربك ؟

قال : انه اسطقس فوق الاسطقسات !

فنظر الملك الى صاحبه مستفسرا وأومأ اليه أن يعيد هو سؤاله لعله يسمع ما لم يسمعه ، فقال له نكير :

ـ من الهك ؟

قال الشيخ مرة اخرى : قلت لك انه اسطقس فوق الاسطقسات ٠٠ الا تسمع ؟

فلبث الملكان لحظة يتبادلان النظر ، وهما لا يفهمان شيئا ، ولا يدريان كيف يتممان الحساب ويخلصان من

هذه المهمة مع هذا الميت المتعب ، واتفقا أخيرا على الرجوع الى الله ليأمره بما يراه ..

فلما رويا القصة سألهما : ومن هو الرجل ؟

قالا : اسمه ابن سينا ولقبه « الشيخ الرئيس »

قال جل وعلا : ويحكما .. تريدان أن تفهما من هذا الرجل حسابا ؟ .. أنه قضى عمره يزعم انه يتكلم فى صفاتى الالهية ولا اسمع منه كلاما مفهوما وأنا صاحب الصفات .. أتفهمانه انتما فى سؤال وجواب .. دعاه ولا تعودا اليه ..

وكان مطران أخبر زوار الندوة باللغة التى يجيب بها عن اسئلتها كلما سألت عن أحد ، أو عن امر ، لا يسمح المقام بالصراحة « التامة » فى الحديث عنه . جرى ذكر شيخ من كبار المستهترين فى زمانه فضحكنا ، فسألت لماذا تضحكان من سيرة هذا الشيخ .. من هو ؟!

قلت : انه شيخ « متعبد » وشرب الخمر أخف معاصيه ..

قالت : ياحفيظ ..

والتفتت الى مطران ففهم انها تستزيد البيان ، فقال : هو رجل مستريح الضمير ..!

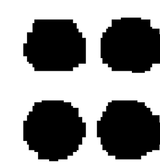
وربما كانت الالفة « العائلية » أقرب من الفة الادب فى ترجيح دور مطران فى الندوة ، لان والدة الآنسة مى — وهى سيدة ذكية حازمة — كانت تعرف أهله كما تعرفه وتستمع اليه وان لم يتحدث عن الادب والفلسفة ..

وانطلق ذات ليلة فى نوادره ومداعباته واخباره لا يكاد

يسكت أو يؤذن السامعين بالسكوت ، فهمست فى أذن الآنسة أقول : يحق للسيد خليل أن يعجبه كلامه كما يعجبنا ، فأنه محدث ظريف خبير بأفانين السمر

وسمعت والدتها هذه الملاحظة الهامسة فابتسمت وقالت بصوت مسموع : انه كأمه تماما .. أمه مثله كلمة كلمة !

وقد كنت ـ كلما ازددت معرفة ب «مى» وبحياتها فى ندوتها وفى بيتها ـ اشعر بحنان هؤلاء الافاضل الابويين نحوها ، فأنهم ـ ولا ريب ـ كانوا يقصدون التسرية عنها ، ويدركون من بواكير صباها ان فرط التزمت فى طويتها يجاوز حده المأمون ، وانما يوشك أن تعانى كثيرا من عادة العزلة النفسية التى جنت عليها فى اخريات أيامها ، وأنها تغالب شجنا كمينا لا نطوائها الشديد على ذاتها ، يخيل الى انه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق فى سليقتها الدينية





أحمد لطفي السيد

ـ ١ ـ

كان فى فكرته « افلاطونيا » بجميع معانى هذه الكلمة ، ومن معانيها « الافلاطونية » التى هى فكرة بغير منفعة أو بغير داع من دواعى الاثرة والانانية ، كالحب العذرى كما نفهم بالعربية ..

ومن معانيها ، وهو أقرب الى ما نعنيه في هذا المقال ،ان الرجل العام ينبغى أن يعيش للمصلحة العامة تطوعا وحسبة بغير جزاء ، والا يشتغل بخاصة أموره « الشخصية » لان الدولة التى يتجرد لخدمتها هى التى تتكفل له بكل وسائل التفرغ لتلك الخدمة ، وليس له بعد ذلك حق فى وقته الخاص لغير القيام بحقوقها ..

وهذا هو دستور الحكم الافلاطونى كما شرحه الفيلسوف اليونانى فى كتابه الموسوم باسم « الجمهورية » .. وقد اشتهر فى العالم القديم والعالم الحديث باسم جمهورية افلاطون

ولقد كان « لطفى السيد » يعيش فعلا على وفاق هذا الدستور ، وكان ـ من زمن بعيد ـ يعهد فى زراعة أرضه وتثميرها الى بعض أقربائه ، ولا يتعرض لتفصيلات حسابها ، مكتفيا بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل عن غلاتها ونفقاتها . وكانت طريقته فى تدبير نفقات البيت كطريقته فى تدبير حساب ضيعته ، وهى الضيعة التى أبى

أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بخمسمائة فدان ، لا تدخل فى تقسيم الميراث بينه وبين اخوته ، فأبى ذلك وأصر على الاباء ولم يقبل من الميراث غير حصته التى يستحقها مع سائر الورثة على سنة المساواة ..

يفكر للكون كله

طال حديث اللغة والمجمع يوما حتى وصلنا الى نادى « محمد على » ، وكان النادى على مقربة من المجمع اللغوى، اذ كان مقره بأول شارع قصر العينى ، فدعانى الى اتمام الحديث فى مجلسه المختار بالنادى حيث كان يقضى أوقات الفراغ ويتناول أحيانا طعام الغداء أو العشاء ..

وحضر الى النادى صديقه الدكتور بهى الدين بركات ، فعلم منه عرضا انه ينوى السفر الى عزبته لبعض أعمال زراعية تستدعى حضوره ، فسأله مصطنعا الجد كعادته فى توجيه بعض الاسئلة التى يريد أن يستطرد منها الى مناوشة من مناوشاته الفلسفية :

قال يخاطب الدكتور بهى الدين : وهل من حق «الرجل العام » أن يفرغ لخاصة شئونه ؟

ففهم الدكتور مقصده من هذه المقدمة التى تعودها منه ـ على ما يظهر ـ كما تعودها محدثوه ، وقال ما معناه :

ـ وهل العمل فى الارض محرم فى شريعة الحكمة ؟

قال : أنا لم أقل هذا

وأردت أن أشترك فى المناوشة فقلت : انما هو سؤال ليس الا ..

قال الدكتور بهى الدين : أهو سؤال برىء ؟

قال الاستاذ : اما انه سؤال برىء فلا .. !

ومضى الدكتور بهى الدين يتحدث عن العمل الذى

يسافر الى العزبة من أجله ، ومنه مشروعات للتعاون والخدمة الاجتماعية لمصلحة الفلاحين ..

فعاد الاستاذ يقول : أما هذا فمرخص به للرجل العام ..

وقد كان أقدم زملائه واصدقائه من أيام الدراسة الثانوية عبد العزيز فهمى « باشا » يداعبه كثيرا من هذه الناحية ، ويقول كلما خالفه فى رأى من آرائه الفلسفية أو اللغوية : انك يا لطفى تفكر للكون كله ولا يعنيك أمر الزمن القريب ولا أمر هذه الخلائق الفانية

وكان أمتع الوان الحديث بين الرجلين الكبيرين تلك الاحاديث التى كانت تجرى بينهما فى السيارة أثناء الطريق من دار المجمع الى مصر الجديدة ، حيث يقيمان وأقيم على مقربة منهما ، ويتفق كثيرا أن يدعوانى الى صرف سيارتى ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع ، ولاسيما الجلسات التى يطرأ فيها بعض الخلاف بينى وبين عبد العزيز « باشا » فى مسائل اللغة أو الادب .. وحدث ذلك كثيرا أيام المناقشة على كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبنا القانونى الكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه

فقال لى مرة ، وقد انس من الاستاذ لطفى شيئا من الميل الى ترجيح رأيى :

ـ أوع تطلع فيها يا عقاد على طريقة استاذنا « لطفى » .. ان « لطفى » ينظر الى هذه الامور التى نشتغل بها نظرة الارباب .. قل له : ما رأيك اذا كتبت العربية غدا بالحروف الصينية ؟ يقل لك على الأثر : ويجرى ايه ؟

فقال لطفى : « ويجرى ايه » ؟

وعاد عبد العزيز يكرر الحديث عن نظرة الارباب

وصديقه يكاد يهم بالتأفف من هذا التـــكرار ، حتى قال متأثرا :

ـ ألا ترى انك تسخر منى بهذا الحديث عن الارباب والنظرات الكونية ؟

فأسرع عبد العزيز يرد على صديقه بلهجة جافة ، كلهجة الدائن الذى يخاطب المدين المماطل :

ـ ما هذا التجنى يا أخى ؟ !

فصرف لطفى موضوع هذه المناقشة قائلا :

ـ ليكن حديث أرباب ·· دع الارباب هى التى تحتج عليك هذه المرة !

معركة ولى العهد

وأشهد أننى ما عرفت خليقة الحلم فى لطفى السيد ، ولا فضل هذا الحلم فى دوام الصداقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم عبد العزيز فهمى ، آلا من امثال هذه المساجلات التى تنتهى بالجفاء فى الخطاب ، وقد اشتد بعضها حتى بلغ من الشدة أن « يقفل » عبد العزيز فهمى التليفون فى وجه صديقه ، على أثر محادثة سريعة كان موضوعها أيضا ذلك الموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية

روت احدى الصحف عن الامير محمد على توفيق انـه يستنكر الدعوة الى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فثارت عليه ثائرة عبد العزيز فهمى وبسط لسانه فيـه بكلام حاد على مسمع من أعضاء نادى محمد على ، وقد كان الامير محمد على رئيسه يومذاك ، وكان من أيسر ما قال فى تلك الحملة خطابه لسامعيه وهم يجتهدون فى تهدئته :

ـ أتحسبون اننى لا أحترم الامير محمد على ؟ أتحسبون انه حين يتكلم عن الكتابة بألفاظه الفصيحة « كخذروف الوليد » يستحق منى غير الاحترام ؟ ·· كلا · اننى مطالب

باحترام ولى العهد بحكم الدستور !

ثم خرج من النادى توا الى قصر عابدين فكتب اسمه فى دفتر التشريفات وجعل مناسبة هذه الكتابة فى غير موعد من مواعيد التهنئة او المعايدة : انه يسـأل الله أن يرزق الملك ولى عهد رشيدا تقر به عيناه !

وسمع لطفى السيد بهذه الجملة ، فخـاطبه تليفونيا ليزجوه أن يترك الامير وشأنه على الاقل فى أحاديث النادى .. فوضع عبد العزيز سماعة التليفون بعنف شديد ، ولم يعتذر من هذا المسلك مع صديقه الا بعد أيام ، وإن كان على هذا فى سائر أحواله عظيم الاكبار له عظيم الثنـاء عليه



ولا شك ان كلام القاضى الكبير عن نظـرات صديقه الكونية لم يخل من أسـلوب الدعابة التى تبيح بعض المبالغة ، ولكنهما ـ بعد السماح للمبالغة بحصتها فى وصف هذه النظرات ـ لم تخل من العدل فى تقرير الواقع الى حد محدود

ف «لطفى السيد» كان ينظر الى المسائل الفكرية ولاجتماعية نظرة محيطة واسعة يوشك أن تتعادل فيها جميع الجوانب والاطراف ، ولكنه كان من أشد المفكرين اهتماما بما يعتقد فيه الخير والصلاح ، وكنا نلمس على محياه امارات الغم الصامت كلما خولف اعتقاده وجرت الامور على غير ذلك الاعتقاد فى الحياة العملية ..

الا أن الامر الذى كان يبيح لصـديقه أن يحسبه من الارباب فى تفكيره ، أنه على كل ايمانه بعقائده العقليـة والخلقية لا يرى من المستحيل أن يكون لغيره الحق فى ايمان كهذا الايمان ، على خلاف ما يراه بعقله ووجدانه ..

وكان كثيرا ما يقول لمن يحتم أمرا من الامور : وهل فى هذه الدنيا شيء ضرورى ؟ وهل فى هـــذه الدنيا أحـــد ضرورى ؟ وهل يمتنع غدا أن تتساوى النتائج وتتلاقى الاضداد التى نحسبها الآن على افتراق بلا لقاء ؟

رأى لـ « سعد زغلول »

وهذه النظرة المحيطة هى سر « ديمقراطيته » فى مسلكه بين الناس ومسلكه بين زملائه فى العمل ، وان خالفوه أبعد المخالفة فى الاراء ، ولا أذكر مرة واحدة فى نحو عشرين سنة قضيناها معه بمجمع اللغة العربية ، انه حـــاول بالتصريح أو التلميح أن يؤثر فى اتجاه المناقشة أو يقاطع صاحب رأى يعارضه وينفر منه ، وانما كان على الدوام فى نهاية المناقشة ولا يشعر المخالفين له بعد ذلك انه كان معهم على خلاف ..

تلك السماحة الواسعة فى تقدير وجوه الخـلاف ، جعلته مرجعا للمشورة الصادقة بين أصدقائه وتلاميذه من المشتغلين بالحكم والقائمين بأعمال الوزارات ، فقد كان يمحضهم الرأى من جميع جوانبه ويوازن لهم بين جميع احتمالاته ، ويتركهم أحرارا فيما يختـــارون ، وان كان ليتركهم أحيانا أخرى على باب التيه يحارون بين مضطرب الافكـــار ومفترق الظنون والتقديرات ، ولا أدرى ممن سمعت ـ أمن سعد زغلول ام من محمد محمود ـ ان لطفى السيد قوى الفـــكر ولـكنه قد يكون فى بعض تقديراته واحتمالاته قوتين متعارضتين ، فيقف به هذا التعارض دون العمل المستطاع ، أو يقف به دون الحمـــاسة لرأى من الرأيين ، ولا بد من الحماسة « ذات النظر الواحد » لمن يريد أن يمعن امعان الجد والعناد فى طريق مقصود الى غرض محدود ، ولم يكن لطفى السيد قط ذا نظر واحد

يحجب عن تفكيره سائر الانظار ..

ويلوح لى ان السماحة الخلقية تشارك هذه السماحة الفكرية فى مسلكه الديموقراطى بين الناس وبين المعتقدات ..

فلم يكن من طبعه أن يصادم أحدا أو يصطنع فى الخصومة قسوة ولددا .. ولكنه كان يثبت فى مكانه ويترك لمن يخالفه أن يصطدم به اذا شاء ، ولا سماحة فيما وراء ذلك اذا سامته السماحة ان يتحول عن مكانه الذى استقر عليه ، فهو عند رأيه لا ينحرف عنه وان أعطاه من الصور الفكرية ما يدفع عنه شر الضغينة والافتراء ..

مصر للمصريين

كان من مبدأ لطفى السيد ـ كما هو معلوم ـ ان استقلال مصر مقدم على الاعتراف بالسيادة العثمانية ، وكان هذا معنى شعاره وشعار زملائه فى الرأى والعقيدة : أن مصر للمصريين

ووقعت الجفوة بينه وبين الخديو عباس الثانى لان الخديو وجده على غير ما كان يرتضيه حين اختاره عضوا فى الجماعة السرية التى تنشر الدعوة الى القضية الوطنية فى الديار الاوربية . واتفقا مع أعضاء هذه الجمعية على سفر لطفى من مصر واقامته بسويسرا سنتين لاكتساب الجنسية السويسرية والانتفاع بهذه الحماية فى مكافحة الاحتلال ، فلم يستحسن لطفى السيد هذه الحيلة ولم يلبث أن تنحى عن الجماعة حين احس أن الخديو يريد أعضاءها خداما لشخصه وأعوانا لسلطته على غير المبادىء الدستورية ، وتمت القطيعة بينه وبين القصر بعد ولاية لطفى لتحرير « الجريدة » لسان حال حزب الامة ..
فتحمل القصر وحاشيته معاذيرهم لرفع الدعوى الجنائية

عليه ، واتخذوا من مناداته الصريحة بالاستقلال التام دليلا « قانونيا » على « خيانة » السيادة المعترف بها للخليفة العثماني والمتفق عليها في العلاقات الدولية ، بمقتضى المعاهدات التي يقرها المحتلون ولا يستطيعون « قانونا » أن يسقطوا العقوبة عمن يخرج عليها ..

وخطر للطفي السيد أن يحبط هذه المكيدة بعد أن جهرت بها الصحف الموالية للقصر ، ومنها « المؤيد » الذى كان له وزنه ونفوذه في الصحافة العربية ..

قال لطفي السيد مدافعا عن رأيه : انه يدعو الى استقلال مصر ولا ينكص عن هذه الدعوة ، ولكن التمام غير الكمال .. وقد يقال ان الطفل انسان تام ولكن الانسان الكامل لا وجود له بين الاطفال ولا بين الكبار ، وكان من حجته التى اعدها للدفاع عن رأيه أن بقاء الخلافة لا يقتضى أن تكون مصر مسلوبة السيادة ولا أن يكون استقلالها ناقصا غير تام ..

وشاءت المصادفات فى دراسات المجمع أن تعرض مسألة الفرق بين التمام والكمال ، وأن أذكر رئيسنا برأيه القديم ، فابتسم وقال : لعله من الوجهة السياسية رأى مقبول ، ولكننى لم أندم على شىء ندمى على ذلك التفسير الذى احبطت به دسيسة القوم .. ووددت لو أننى تركتهم يدعون ما يدعون ولم الحق مبدأ « الاستقلال التام » بأى تفسير

وبقى الرجل على شعار « مصر للمصريين » ومبدأ « الاستقلال التام » بغير تفسير .. وكان هو ثالث ثلاثة وضعوا صيغة توكيل الوفد فى طلب الاستقلال التام ، أما الاثنان الاخران فهما صديقاه عبد العزيز فهمي وسعد زغلول .. ولولا انه لم ينتخب عضوا للجمعية التشريعية

لكان ثالثهما فى زيارة دار الحماية للمطالبة بالغاء الحماية البريطانية والاعتراف لمصر بالاستقلال التـام ، مع انكار السيادة العثمانية والحماية البريطانية على السواء

المرشح الديموقراطى

وقصة سقوطه في انتخابات الجمعية التشريعية احدى اعاجيب الدعاية الانتخابية التى تعرض لها من جراء المناداة بالحقوق الديموقراطية ، اذ كان منافسه يشيع عنه انه يطلب للمرأة الحق في الجمع بين أزواج أربعة لانه يطلب لها المساواة الديموقراطية ، ويسألونه : هل انت حقا من طلاب الديموقراطية ؟ فيجيبهم بالتأكيد ويعيد لهم الشرح من جديد ..

ومما اذكره اننى ذهبت الى مكتبه بالجريدة لمؤاساته فى هذه الخيبة المؤسـفة ، فوجدته قد تلقـاها بصبر الحكماء وفكاهة العظة والاعتبار ، وهو لا يخفى اعجابه بذلك « الريفى » الماكر الذى غلبه باسم الديموقراطية !.. ثم حضر « الشيخ طه حسين » وأنا عنده ، وكان شابا يلبس العمامة لا يزال .. فاذا بالاستاذ يتبسـط معه ويعزيه لان زميله فى ترجمة بعض الكتب ـ الاستاذ محمد رمضان ـ قد خرج بمثل هذه الهزيمة من معركة الانتخاب وكان الشاب طه حسين كفؤا لهذه الدعاية فكان جوابه للاستاذ : اننى اتقبل التعزية ولكننى أرجو يا أستاذنا ألا ترفضها .. !

وهذه الديموقراطية التى نادى بها لطفى السيد ـ فكرة وقولا ـ قد عاش لها وعاش بها عملا وايمانا ، وقد كانت هى الطابع الذى طبع عليه بمزاجه قبـل ان يطبـع عليه بتفكيره ودراسته ، ولم تمنعه شيمته التى تتمثل فيها كل خلائق الوجاهة الفطرية أن يكون « أرستقراطيا » بالشكل

ديموقراطية بالموضوع ، اذا جازا هذا التعبير
كان هذا الرجل الممتاز بشخصيته وخلقه فكرة في حياة ، او حياة ملكتها الفكرة في خاصة شأنه وعامة عمله وقوله .. واخالنـا نقيمه في مقامه والوطيد بين مفكري العصور حين نقول انه في عصرنا هذا زميل عـربي لارسـطو اليـوناني ، تجـدد مع الزمن في مدرسـة الثورة الفرنسية .. مدرسة فولتير ، وروسو ، ومونتسكيو .
وعاش بعدهم فتقبل من حكمة العصر ما كانوا يتنزلون الى قبوله من حكمة القرن العشرين ، ولـكنه لم يزل بعـد منتصف هذا القرن العشرين على نمطه السلفي الافلاطوني، فكرا في اهاب انسان

حول مذكرات عبد العزيز فهمي

بعد وفاة « لطفي السيد » رحمه الله ظهرت لزميله وصديقه عبد العزيز فهمي « باشا» مذكرات عن تاريخ حياته تكلم فيها عن اعمالهما في الحياة العامة وفي حركة الوفـد المصري الذي كانا عضوين فيـه ، واستوقفني خلال المـذكرات بعض مواضع للملاحظة والتصـحيح ولم يتسع المجال للتعقيب عليها جميعا، فاكتفيت بما جاء منها من مقدمات الحركة وهو كاف للابانة عن مـدى الاختلاف بين الواقـع والرواية في سائر المذكرات . وهذا هو التعقيب كما نشرناه في صحيفة الاخبار :

قرأنا في مذكرات الأستاذ عبد العزيز فهمي « باشا » فصلا عن تأليف الوفد المصري وعن الاعضاء الثلاثة الذين قابلوا المندوب البريطاني « سير ريجنالد ونجت » قال فيه :

« هؤلاء الثلاثة هم سعد زغلول وعلي شـعراوي وعبد العزيز فهمي .. ومما تجب ملاحظته هنا ان اختيار هؤلاء الثلاثة انما وقع بطريق المصادفة والاتفاق ، والا فبـاقي اخوانهم فيهم من هو اكفأ في النضال المنطقي واولى بالسفارة مثل رجلنا الكبير احمد لطفي السيد . ولعل التقـدم في السن كان هو السبب الطبيعي الذي ادى الى اختيارهم »

هذا ما جاء فى المذكرات بنصه منقولا عن احد الاعضاء الثلاثة ، يليه كلام عن المناقشات التى دارت بين سعد وزملائه حول الاستعداد لاثارة القضية المصرية امام مؤتمر الصلح ، يدل كله عـلى ضرورة « التبييض » فى كل كلام يتعرض لمسائل الخلاف فى السياسة لانه يحتمل السهو والنسيان كما يحتمل التأثر بالميول والخصومات ، ولكننا نكتفى هنا بالفقرة الاولى من هذه القصة كلها لان الحقيقة فيهاأظهر من ان تحتاج الى المراجعةوالمناقشة ، وهىتتعلق بسبب اختيار الاعضاء الثـلاثة لمقـابلة ممثل الدولة البريطانية دون غيرهم من المشتركين فى الوفد بعد تأليفه:

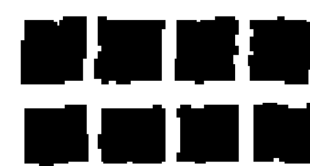
لم يكن اختيار هؤلاء الاعضاء الثلاثة مصادفة واتفاقا لم يكن للتقدم فى السـن على سائر الاعضاء ، ولكنهـم كانوا هم نواب الجمعية التشريعية بين الاصدقاء الخمسة الذين تألفت منهم نواة الوفد فى المرحلة الاولى ، وهم كما ذكرهم الاستاذ احمد لطفى السيد فى قصة حياته : «سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومحمد محمود ولطفى السيد » •• ولم يكن الاثنان الاخيران من اعضـاء الجمعية التشريعية ، فتقرر الاكتفاء بسعد وكيل الجمعية وشعراوى وعبد العزيز العضوين فيها ليكون للثلاثة صفة الكلام بالنيابة عن الامة

وقد كان الانتخاب للجمعية التشريعية اهم اسباب هذا الاختيار باتفاق الاعضاء ، ولكنه لم يخل من اسباب اخرى لوحظت فيه ـ كما سمعنا من سعد بعد ذلك ـ ومنها ان على شعراوى يمثل اعيان الفلاحين ، وان عبد العزيز فهمى الذى كان نقيبا للمحامين يمثل طائفة المتعلمين ، وان الاول من الوجه القبلى والثانى من الوجه البحرى ، فهم صالحون لتمثيل الناخبين فى أوسع نطاق ••

ولما تقرر القبض على الزعماء الاربعة ونفيهم الى جزيرة مالطة ، لم يكن هذا الاختيار ايضا من قبيل المصـــادفة والاتفاق فى نظر الجهات الرسمية ، ولكنه كان عند هذه الجهات موافقا لتقاليد البروتوكول فى نظام الاولية ،فكان سعد زغلول رئيس الوفد ووزيرا سابقا ، وكان اسماعيل صدقى عضوا يليه فى الاسبقية الوزارية ، وكان محمد محمود مديرا من كبار الموظفين ، وكان حمد الباسل يحمل لقب الباشوية ويمثل رؤساء العشائر فى البلاد

فلم يكن هنالك محل للمصادفة ، ولا لاعتبارات السن، فى اختيار الزعماء من جانب الوفد او من جانب السلطات الرسمية .. ولكنه عمل من اعمال النظام متفق عليه ، وقد سها عن ذلك رجل من اولى الناس بذكر مسائل النظام فضلا اعن كونه احد هؤلاء الزعماء فكيف بسائر الروايات؟ وكيف بسائر الرواة ؟ ..

أما بقية الكلام على المناقشات التى دارت عند التفكير فى اثارة القضية الوطنية ، فهى أحوج من هذه القصة الى التعقيب ، وهى لحسن حظ التاريخ مما يكفى للتعقيب عليه مجرد البيان الوجيز ..



- ٢ -

كان حزب الامة يضم بين أعضاء مجلس ادارته وسائر اعضائه البارزين فئة كبيرة من السروات وأصحاب الجاه والثراء فى البلاد ، وكانت الصلة الجامعة بينهم كافة انهم من « غير المرضي » عنهم فى قصر الامير ،وأرادوا أن يتخذوا لحزبهم صحيفة على « أوجه » طراز بين الصحف الاوربية، وبخاصة صحافة فرنســـا التى كان معظم المتعلمين من رؤساء الحزب يتثقفون بثقافتها ويفضلون صحفها على صحف « انجلترا » دولة الاحتلال ، فاختلفوا زمنا على اختيار احدى الصحيفتين الكبريين فى باريس مثالا لصحيفة الحزب اليومية ، وهما الطان والجرنال

اما الطان فكان المرجح لها عند العارفين بالشئــون الصحفية ان ترجمة اسمها «الزمان» تجعلها اصلح للنداء عليها فى اللغة العربية

ولكن « الطان » صحيفة شبيهة بالرسمية وعلى صلة بالدواوين العليا ، فليس من الموافق لحزب يسمى بحزب الامة ويتجنب الاتصال بقصر عابدين وقصر الدوبارة على السواء أن يتخذها مثالا لصحيفته القومية

فانتهى الخلاف الى اختيار « الجورنال » نموذجـــا

لصحيفتهم .. و «الجريدة» هى ترجمة اسم الجورنال

وظهرت «الجريدة» على مثال الجورنال فى الصبغة «غير الرسمية» وفى نظام التحرير وترتيب الصفحات ، واظهر ما كان فى هذا النظام فتح صفحات «الجريدة» للكتابة الادبية بأقلام ناشئة الجيل الحديث ، وربما أفسحت فى صفحتها الاولى ـ الى جانب المقال الافتتاحى ـ موضعا بارزا لقصيدة عاطفية أو مقال طريف من مقالات الوصف والنقد اللغوى ، وترددت على صفحاتها اسماء هيكل وعبد الرازق وطه حسين ومحمد السباعى وشكرى والمازنى والغاياتي وكاتب هذه السطور ، وغيرهم وغيرهم كثيرون

وكان اللواء لسان حال الحزب الوطنى ، والمؤيد لسان حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية يتقبلان الكتابة بأقلام الناشئين ، ولكنهما يقصرانها على الناحية السياسية ولا يرحبان بالكتابة الادبية الا اذا كانت بأقلام الشعراء والكتاب النابهين من طراز شوقى وحافظ ومطران والمويلحى والمنفلوطى وأمثالهم بين أدباء الجيل المتقدم ، فاتجه الادباء الناشئون الى «الجريدة» ولا سيما الطلبة والموظفون ، اذ كانت الكتابة فى السياسة محظورة عليهم ، وكانوا يكتبون فيها أحيانا الى الصحف عامة ـ ومنهما الجريدة ـ بتوقيع مستعار

وكنت ارسل مقالاتى أو مقطوعاتى الشعرية بالبريد فتنشر بعد يوم أو يومين من وصولها ، ولكنى قدرت لاحدى المقالات انها لا تحل عند قلم التحرير محل الترحاب اذا وصلت اليه محولة من مدير التحرير ، فتعمدت أن أسلمها الى المدير يدا بيد ، ولم أجد صعوبة فى لقائه عندما قصدت الى مكتبه على غير ميعاد ..

كانت المقالة على ما أذكر نقدا لكتاب الاستاذ محمد لطفى جمعه عن « كلمات نابليون » .. وكان الاستاذ جمعه قد نقل بعض هذه الكلمات كما ترجمتها بحروفها ولم يشر الى هذه الترجمة ، فلما نبهت الى ذلك فى تعليقى على كتاب الاستاذ محمد لطفى جمعه تذكرت أنه صديق لاكثر المحررين « بالجريدة » .. فكان ذلك من دواعى التفكير فى لقاء الاستاذ أحمد لطفى السيد لتسليمه المقاله ، ولارضاء فضول الشباب برؤية ذلك « الفيلسوف » الكبير الذى كنا نقرأ له ولا نراه

واستقبلنى مدير الجريدة استقبال الرعاية والترحاب ثم تصفح المقالة على عجل وأمر بارسالها الى المطبعة على الاثر ، وهو يقول مبتسما : الا تخاف من نابليون يا بنى ؟! ..

قلت وأنا أعلم ان كلمة الديموقراطية من احب الكلمات اليه وأكثرها ترددا على لسانه وقلمه : الحمد لله على نعمة الديموقراطية !!

ولفت نظرى أن أمام الديمقراطية المصرية يلبس « البونجور » ويحرص على السمت « الارستقراطى » فى زيه وتقاليد سلوكه المهذب مع زواره ومرءوسيه ، فثبتت فى ذهنى هذه الصورة ولا تزال ثابتة الى اليوم .. فاذا ذكرت « لطفى السيد » فى غيبته فلست أذكره الا وهو يلبس البونجور ، بعد أن رأيته عشرات المرات بالزى « الافرنجى » المألوف

وعزز هذه الصورة عندى اننى رأيته بعد ذلك يخطب بدار الجريدة وهو يلبسها ، ورأيته وهو يلبسها بديوان الاوقاف ، اذ حضر يوما لزيارة وزيرها « محمد محب باشا » وكنت فى حجرة استقباله ، لاسلم مدير المكتب

بعض المذكرات التى تعرض على مجلس الادارة

أما ان « لطفى السيد » ديموقراطى المبدأ فى تفكيره وسياسته ودعوته الوطنية فلا مراء فى ذلك ، ولاخلاف . .

وأما أنه « ارستقراطى » السمت والشارة فى مظهره ووجاهته فذلك أيضا مما لا مراء فيه ، ولا خلاف

ولم تطل بى الحيرة للتوفيق بين الحالتين ولا أراهما نقيضتين . .

لاننى لم ألبث أن شعرت من مراقبته ومراقبةالوجهاء من ابناء الفلاحين انهم جميعاديموقراطيون على هذا المثال، فهم كلهم ديموقراطيون لانهم ينكرون سيادة الطبقةالتركية واستئثارها بشرف الوجاهة الاجتماعية ، وقد كان الوجيه التركى يأبى على اكبر الوجهاء الفلاحين ان يساويه أو يصاهره أو يتخذ من المظاهر الاجتماعية مثل مظهره ، وقد سمعنا الكثير من تعليقات البيوتات التركية على قبول رئيس الوزارة لمصاهرة سعد زغلول ، وهو ــ على وجاهته بين أبناء الفلاحين ــ علم مشهور من أعلام القانون فى عصره

قال لى عبد العزيز فهمى «باشا» مرة : ان لطفى ديمقوقراطى الرأى والعقيدة ، ولكنه طول عمره ارستقراطى بين الارستقراطيين . . وحكى لى انه كان يقتنى جوادا خاصا يتنقل به من بلد الى بلد للتحقيق والتفتيش وهو وكيل للنيابة ، ولا يكلف نفسه أن يطلب جوادا من خيل الشرطة كغيره من وكلاء النيابات ، وانه كان يتحدى عظمة التركى بعظمة الفلاح ، فيلبس قفطان الوجيه الريفى، وهو فى الدار

ان « أحمد لطفى السيد » أشهر المنادين فى الصحافة بمبدأ مصر للمصريين ، قد كان ديموقراطيا ليساوى

المصريين بغيرهم من أصحاب السيادة فى بلادهم ، وكان ارستقراطيا ليتحدى الارستقراطيين من أولئك السادة المتغطرسين ، وقد أصهر الى أسرة رجل كان من أقران الخديو اسماعيل فى زمانه ، وهى أسرة المفتش اسماعيل صديق

فليست ديموقراطية لطفى السيد الغاء للعرف الاجتماعى فى آداب الطبقات ، ولكنها ديموقراطية المساواة بين ابناء كل طبقة من المصريين وغيرهم من الغرباء ـ كل الغرباء فى الاصل ، لانهم شركاء الطبقة فى المجتمع وأجانب من جميع الاجناس على عهد سيادة المحتلين

والديموقراطية على هذه السنة بجميع معانيها هى المبدأ الواسع الذى كان يلحظه هذا الفيلسوف الوجيه فى حقوق الرأى وفى حقوق الطبقة ، فليس ايمانه بتغليب رأى الكثرة مانعا عنده للقلة أن تبدى رأيها وتقابل به آراء الاكثرين من المخالفين

كان شعار « الجريدة » كلمة الفيلسوف الاندلسى ابن حزم وهو من قرائه فى مسائل الاخلاق والعقائد واختلاف الطوائف والعبادات

وكان ابن حزم يقول : « من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمتها لاول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس اياه أشد وأكبر من مدحهم اياه »

وقد وضع هذا الشعار تحت عنوان الجريدة منذ صدورها فى شهر مارس سنة ١٩٠٧ الى احتجابها بعد ذلك بنحو ثمانى سنوات ، لانه كان فى طوال هذه المدة يعلم أن معارضيه بالرأى أضعاف مؤيديه ، وكان أنصار الاحزاب من القائلين بالسيادة العثمانية والمشايعين للحاشية الخديوية والجانحين من الطرف الآخر الى

مشايعة السلطة الفعلية أو مشايعة الاحتلال .. كل أولئك الانصار كانوا أضعاف أنصاره فى حزب الامة ، وقد فارقه شطر كبير من هؤلاء الانصار فى منتصف الطريق ،وجنحوا الى ناحية القصر احتجاجا على ما سموه « استبداد محرر الجريدة بسياستها » وفيها ما فيها من مناصبة الامير

وهذا الديموقراطى الذى اباح للقلة ان تعلن رأيها فى غير مداراة ولا مواربة ، هو هو الديموقراطى ، الذى يسلم للكثرة بحقها عند مفترق الطريق ، وعند مفترق الطريق هذا سلم للكثرة من أعضاء اللجنة السياسية بما قررته فى المفاوضات التى أجرتها وزارة أحمد ماهر ،وهو على رأى فى تلك المفاوضات غير ما تراه

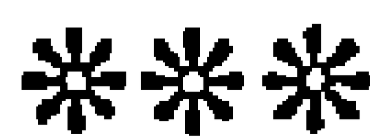
ولقد هنانى فى الصباح الباكر على مقال كتبته بالاهرام مؤيدا فيه خطة الوزارة الماهرية ، فلما وافق اللجنة أخيرا على قرارها سألته فى ذلك ونحن عائدان فى سيارته من المجمع الى مصر الجديدة ، فقال : اذا كانت كثرة اللجنة وكثرة أهل البلد على هذا القرار فالكثرة لها حكمها الذى لا حيلة لنا فيه

وذكرته يومئذ ــ مازحا ــ بمخالفته للزعيم سعد زغلول بعد مفاوضات لورد ملنر ، فقال : بل هذا ــ أيها الاخ ــ من ذاك .. فقد خالفت سعدا ، ولكنى لم أخالف كثرة الوفد فى النهاية

على أن المبالاة بالعرف الغالب لم تكن شيئا هينا فى تقديرات هذا السرى الفيلسوف ، فقد كان يولى ذلك العرف فوق حقه من المبالاة ، الى جانب تقديراته الفكرية أو تقديراته المنطقية .. فلم تزل رعايته للفكر مع المراسم والتقاليد أرجح عنده من هذه الرعاية له الى غير الجانب

الموافق لتلك المراسم والتقاليد

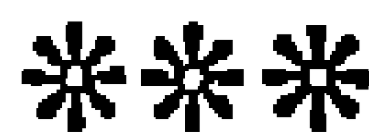
وليس من التناقض أن يكون لطفى السيد الفيلسوف كذلك ، وهو الثائر على الجمود والرجعية بلا مراء ،فانه فى ثورته يقف الى جانب مجتمع كبير ، ولا يقف الى جانب الشذوذ والانفراد ، وانما كان ايمانه بمبادىء الحرية على قواعد الثورة الفرنسية ايمانا أيده مع الزمن أضعاف من خالفوه



لقد كانت لهذا الثائر تقاليده التى يثور عليها ويعلن الحرب على أنصارها ..

ولكنه لم يكن يحاربها الا من أجل تقاليد أخرى يسالمها ويقرها ويعمل على اقرارها ..

وانما كان يفضل بعضها على بعض بشفاعة الواقع ، أو بشفاعة « قانون » التقدم كما آمن به الثائرون العلميون فى ابان القرن الماضى ، وثبتت عليه بقيتهم الى هذه الايام من القرن العشرين



لقيته بمكتبه وهو مدير لدار الكتب لتجديد رخصة الاستعارة ، وقدم زميله العالم الجغرافى « رأفت بك » مدير المتحف العربى التابع لدار الكتب فى بناء واحد .. فحيا تحية مقتضبة يلوح عليها شيء كثير من الامتعاض والابتئاس ، والتفت اليه الاستاذ لطفى يسأله : كيف حال متحفك وآثارك يارأفت بك ؟ .. قال « رأفت بك » ولم يفارقه امتعاضه وابتئاسه : انها اثر بعد عين .. شباب هذا العصر لايحفلون بماض ولاحاضر .. لايقرأون .. لا يدرسون .. افتقدهم فى متحف آثار أو معرض فنون فلا تجدهم ولا تسمع خبرا عنهم ، ولكنهم موجودون ليلا ونهاراً بين المراقص ، والقهوات ، والبـــارات .. زفت

وقطران .. زفت وقطران .. الا يسمع هؤلاء الشبان بأحوال اندادهم فى البلاد الاوربية ؟ ألا يسمعون بأندادهم من الاوربيين فى بلادنا ؟ .. الا يعرفون المفازة والغابات ومصاعد الجبال التى ينطلق اليها الشباب يستجلون فيها جمال الطبيعة وينشدون فيها صحة الجسد والذوق ؟

فنظر اليه الاستاذ لطفى مليا ، وقال له معاتبا فى لهجة لا تخلو من التأنيب اللطيف : الله .. ومالك منفعلا ثائرا هكذا يا سيدنا البك ؟ ..

فهدأ « رأفت بك » ثم قال بصوت كصوت الصدى يحاكيه فى لهجته : عفوا يا سيدنا البك ..

قال الاستاذ لطفى : يغضبنى ذلك أكثر مما يغضبك ، ولكن الحق على من فى هذه التقاليد الرثة ؟ .. ارأيت هناك شابا يخرج الى المفازة والغابات وحده ؟ .. الا يخرج الفتى ومعه الفتاة أو تخرج الفتاة ومعها الفتى ؟.. ألا يعرفون الحب بينهم قبل أن يعرفوا حب الجمال فى السهول والجبال ؟

وشاركت الاستاذين فى الحديث قائلا : « وهل يبتعد الفتيان عندنا عن البنات حيث يذهبون الى المراقص والبارات ؟

قال الاستاذ لطفى : وماذا يصنعون ؟ انهم يسرقون الحرية فى المرقص والبار ، وأن نصيبهم من الحرية المشروعة لا يزيد عن نصيب الفتيات فى الخدور

وهنا نلتقى بالجنتلمان الديموقراطى فى مجلسه وفى تفكيره .. انه لم يستطع أن يجيز لزميله ذلك « الانفعال» الممنوع فى قانون « الاتيكيت » .. ولم ينتصر للثورة على التقاليد الرثة الا لأنه ينتصر لتقاليد أخرى لاتزال فى ثوبها

القشيب .. ولكنها ، على أية حال تقاليد لها شفاعة من « قانون » التقدم المتفق عليه . وقد ظل الفيلسوف السرى على ايمان بهذا التقدم المتفق عليه حتى نهاية حياته ، وحتى بعد تعديل ذلك القانون بقانون آخر ينسخ منه مادة مرفوضة كلما أقر منه مادة مقبولة ، وهو قانون التطور الذى لا يقول بالتقدم المطلق المطرد فى كل سبيل ، ولا يستلزم ان يكون كل حديث فى عصرنا أصلح من كل قديم فى ماضى العصور وبخاصة فى مسائل الاخلاق والاداب

وكلما أباح فيلسوفنا لنفسه أن يمضى مع ابن حزم فى شجاعة الرأى ومخالفة الاجماع ، عاد الى رأيه المخالف فلم يتقبله الا لانه قانون الغد المتفق عليه سلفا ، لو سارت الامور حيثما ينبغى أن تسير . وقد قال فى ذلك من نصائحه للشباب : « كل ما تفكر فيه أو تلفظه أو تفعله انظر هل ترضى أن يكون قانونا للعالم أولا .. فان رضيت فافعله فى غير خوف ، وان لم ترض فلا تفعله أبدا »

***

وقد رأيت « أحمد لطفى السيد » مديرا للجريدة ومديرا لدار الكتب ومديرا للجامعة وعضوا بمجلس الشيوخ ووزيرا ورئيسا للمجمع اللغوى ورئيسا للجمعية الخيرية ، فلم تحتجب عنى خصلة من خصلتيه فى وظيفة من هذه الوظائف المتلاحقة .. وهما السمت الوجيه والديموقراطية الصادقة ، وكانت « ديموقراطيته » أجمل ما تكون فى مجال الرأى ومباحث التفكير ، وقد شهدناه نحو عشرين سنة فى هذا المجال بعد أن عملنا معه عضوا بمجمع اللغة العربية ثم رئيسا للمجمع بانتخاب أعضائه ، فكان أقدر رئيس عرفناه فى مجمع من مجامع البحث العلمى دانت له ديموقراطيته بغير كلفة ، ودان لها زملاؤه احتراما لحق الحرية الفكرية ، واحتراما لرئاسته الابوية

.. تلك الرئاسة التى كان لها سند من العطف المتبادل أقوى من اسناد المراسم والتقاليد

وكان رحمه الله يشترك فى المناقشة ويورد الشواهد فى أثنائها من محفوظاته الكثيرة ، وأولها القرآن الكريم وفى جملتها قصائد الشعراء الاقدمين من الجاهليين والمخضرمين والامويين والعباسيين ، وربما حفظ للمحدثين كما يحفظ للأقدمين ، ولكنه يقصر شواهده فى مقام الاحتجاج بالسند المقبول على الاولين دون الآخرين

وكان اجماع الاعضاء على توقيره وحبه يريحه كثيرا من كلفة الرجوع الى النظام فى رعايته لسنة المساواة التامة بين الاعضاء عند ابداء الآراء ، ولكنه كان يعمد الى الصمت الوديع كلما احتدم النقاش وحميت وقدة الخلاف وتكلم من يتكلم ورد عليه من يرد واعترض عليهما من يعترض دفعة واحدة ، تختلط فيها الاصوات وتحار معها الاسماع

ويميل الرئيس الى أقرب الاعضاء اليه يسأله مستسلما هل آمنت معى بأننا فى المجمع اللغوى ويتفق أن أكون الى جواره فأقول : بغير شكل يا استاذنا .. وبتسكين الغين فى هذه الساعة ! .

ويعود النظام توا فى لمحة عين ، وقبل أن يحوجه الاعضاء الى دق الجرس ، لانهم يفهمون من همسته فى أذن جاره أو انطوائه على صمته أنه يدق لهم أبلغ الاجراس!..

وقد عرفناه من قبل ، ومن بعد ، على صورته التى لا تتغير ولا يختلف مظهر منها عن مخبر ، لانها صورة المفكر الذى تتجلى أعمق أفكاره فى مسالك حياته ، والذى يعيش لفكره وبفكره وعلى وفاق فكره : ثائرا محافظا على قدر، وديموقراطيا فى قرارة طبعه ، يزيده من الديموقراطية ولا ينقصها عنده أنه لم ينسها قط وهو فى سمت العلية وفى عزوف الحكيم الفيلسوف

– ٣ –

كان لطفي السيد من المرحبين بالظاهرة الادبيـة التى تمثلت فى فن المنفلوطى ، أو فى أسلوبه الانشائى ، عند ظهورها فى عالم الصحافة وبعد جمع المقالات فى كتاب « النظرات » ، لان المقالة الانشائية كانت « قالبا لفظيا » لا عناية فيه بالمعنى قبل المنفلوطى ، وقبل محمد المويلحى فى فصول عيسى بن هشام على التخصيص ، فكانت كتابة المنفلوطى على عهد « الجريدة » التى كان يحررها لطفى السيد ظاهرة ملحوظة بين المنشئين

وقد كتب فى تقريظ مقالات « النظرات » يقول :

« من الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشي فى بيئة الكتاب ، لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة .. بل لا يكتب الا اذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس فى الثوب الذى يناسبها على تفصيل مودة الاذواق الحاضرة وحسبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار . وكتاب هذا الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل ، الا أن كتاباتهم على قلتها هى المربى الوحيد للأمم والعلل الاولى التى تدفعها الى الاخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح ، وهى خير اللغات وأبقاها .. »

ثم ينتقل من هذا التمهيد فيقول عن أسلوب المنفلوطى بين هذه الاساليب :

« من اشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطى .. اكاد لا أجد له فى طريقته مثيلا بين كتابنا ، فانه يمتاز بالمساواة ، وقل من يعرف المساواة . يمتاز باستعمال الفاظ الخصوص فلا يلبس معنى الالفاظ الذى لا يكاد يشاركه فيه معنى آخر »

والمساواة والخصوص فى هذا السياق كلمتان من تعبيرات لطفى السيد ، لم يكن معناهما غنيا عن التفسير عند استخدامهما للمعنى الذى أراده .. فقد أراد بالمساواة أن تكون العبارة اللفظية مساوية للغرض الفكرى الذى تؤديه ، وأراد بالخصوص أن يكون اللفظ على قدر معناه، أو يكون باصطلاح العرف الحديث كثوب « التفصيل » وليس كالثوب المجهز لكل لابس على التقريب بعد القص والتوسيع .. وقد يصح أن يقال عن اسلوب المساواة والخصوص انه هو أسلوب « القصة » بمعنييه : معنى الاقتصاد ومعنى الارادة ، لان اسلوب القصة هو الاسلوب المحكم الذى لا فضول فيه ، وهو الاسلوب الذى يؤدى به الكاتب لفظه لانه يقصده بذاته وفاقا لغرضه ولا يقصد غرضا سواه ، ولولا أن كلمة القصد اقرب الى الاحكام والتقدير منها الى التسوية والتنسيق لكان فيها الغنى عن كلمتى المساواة والخصوص

والتفات لطفى السيد الى هذه «الخاصة» فى الاسلوب الانشائى لم يكن بالامر الغريب من كاتب «القصد المحكم» فى اللفظ والمعنى ، لان تحديد ما يريد بالكلمة كان هو طبيعة عقله الغالبة على تفكيره وتعبيره ، بل على تقديره للأمور وتقديره للاعمال .. فلم يكن للعمل عنده شأن أكبر من شأن المطابقة للكلمة والمطابقة للفكرة التى تدل

عليها ، وكانت حياته لفكرته هى الحياة الاولى التىتتلوها بعد ذلك كل حياة عملية تعنيه ..

وكانت مرانة عقله على تحديد عباراته تشغله للتسلية والرياضةكما تشغله للجد والتدبير ، كأنه الجبار الرياضي الذى يداعب صحبه بالضغط على أكفهم عند المصافحة أو بالشد على ظهورهم عند المعانقة ، يوهمهم أنها ملاكمة ومصارعة وليست بمصافحة وعناق .. وكذلك كان لطفى السيد يصنع بتحديد معانى الالفاظ كلما طابت له الدعابة مع صاحب أو زميل ، بين يدى عمل من أعمال الفكر والنظر أو أعمال الادارة والتنفيذ

دخل الى مكتبه بوزارة الداخلية وكيل الوزارة يتأبط ملفات الحركة الادارية فبادره قائلا :

ـ ماذا تتأبط يا حسن (١) .. خيرا ؟ !

قال حسن : نعم خير ان شاء الله .. الحركة الادارية !

قال لطفى السيد متجاهلا : حركة ؟ .. وهل هذه حركة فى الزمان أو فى المكان ؟

وربما كان الكلام على حركة الزمان والمكان أول كلام من نوعه ورد على مسمع وكيل الداخلية الحائر فى أمره بين يدي هذا الفيلسوف الوزير ، فعاد يقول : بل هى حركة التنقلات بين المديرين ووكلاء المديريات والمأمورين وموظفى الادارة على العموم

قال الفيلسوف : وهل هى حركة بغير مقتض ؟ ولماذا يتحركون ؟ هل طلبوا منك أن تحركهم ؟ .

ثم انقضت هذه الحادثة كما شاء الوكيل أن يقضيها

---

(١) حسن رفعت « باشا » أقدم وكلاء الداخلية فى عهده

وكانت فكـــاهة الليلة فى مجلس رئيس الوزارة محمد محمود !

***

وعاد الى مصر مع ثلاثة اعضاء من الوفد لمراجعة الامة فى المقترحات البريطانية ، فقابله الصحفيون على الميناء وسأله أحدهم : هل انتم قادمون بمهمة ســياسية ؟ فكان جواب الصحفى القديم على الصحفى الناشىء :

ـ ماذا تعنى بالسياسة : دبلوماسية أو بوليتيقية؟

وحاول صاحبنا ان يخلص من الورطة بقوله :

ـ أعنى الاثنتين !

قال الفيلسوف : ليس لنا مهمتان ،ولسناسفراءفتكون لنا مهمة دبلوماسية ، ولا وزراءفتكون‌لنا مهمةبوليتيقية!..

ولقد ذهب الصحفى الحائر فكتب هذا اللغز الفلســفى كما استطاع ، وبدل فيه وعدل كما أراد ..

***

ولما الف اصدقاؤه الاحرار الدستوريون حزبهم كان هو معارضا لهذه التسمية ، وظل معارضا لها بعد تأليف الحزب بزمن طويل ، وانما كان اقتـــراحه أن يســـمى الحزب باسم « الحريين الدستوريين » وحجته فى تفضيل هذه التسمية أن كلمة الحريين هى التى تقابل كلمــــة «ليبرال» بالفرنسية والانجليزية .. والا فماذا نســمى المحافظين خصوم الاحرار ؟ هل نسميهم « بالعبيــد » وهـــم لا يقنعون بالحرية وحدها دون السيادة عـــلى العالمين ؟ !

ولم يكن يكرثه أن يداعبه اخوانه من ظرفاء الحـــزب قائلين : أهلا بالحرى .. سلاما على الحـــرى .. ذهب الحرى .. جاء الحرى .. ولا لزوم للتسمية مع هـــذا التحديد

قال لطفى السيد فى قصة حياته :

« نشأت من الصغر ميالا الى العلوم المنطقية والفلسفية. وقد لفت نظرى فى أرسطو انه اول من ابتدع علم المنطق واكبر مؤلف له أثر خالد في العلوم والاداب . ولما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض اصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الاوربية .. ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة ارسطو فلا جرم ان آراءه ومذهبه أشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية، والطريق الاقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .. »

والحق أن لطفى السيد كان « أرسطيا» قبل أن يعرف أرسطو او يفكر فى ترجمته ، لان تكوين عقله المنطقى هو الذي حبب اليه منطق ارسطو حين اطلع عليه ، وحبب اليه صاحب المنطق حتى كان يتحدث عنه متبسطا فيسميه « سيدنا أرسطو رضي الله عنه » .. وقد استفاد من ارسطو ما كان مستفيده من مراجعة عقله بغير اصطلاحات المنطق والفاظه « المخصوصة » على حد تعبيره ، فان الفكرة المحددة كانت ديدنا طبيعيا عنده ولم تكن من الدروس التى تكتسب بالتعلم ، وقد كان حرصه على حد الفكرة اشد واكمل من حرصه على حد العمل ، لانه عرف بالتجربة أن نتائج الاعمال قد تختلط بينها وقد تتناقض المقدمات والنتائج فيها ، لكثرة العوامل المنطقية وغير المنطقية التى تحيط بها . ولكن حدود الفكرة فى ذهنه لم تكن تلتبس بين معنى ومعنى ، ولم تكن تخرج على حدود المساواة بين أغراضها وعباراتها ، وقد كانت كلمة «يجرى ايه » تجرى على لسانه ــ كما لاحظ صديقه عبد العزيز فهمى ــ عند التسوية بين نتائج الاعمال ولو كانت فى

ظاهرها على أبعد ما تكون من التناقض والاختلاف ، ولكن « يجرى ايه » كانت تنقلب الي « يجرى كل شيء » اذا حدثت التسوية بين كلمة وكلمة لا تتساويان في النتيجة المنطقية ، لان حدود المنطق واضحة امامه بمقياس الشعرة وبغير لبس ولا اختلاف بين أقرب النتائج واشدها شبها في ظاهرها

وقد ذكرت في غير هذا المقال ان أستاذ الجيل كان يتجنب التصريح برأيه أثناء مناقشات المجمع اللغوى تورعا منه عن التحيز الى جانب من جوانب المناقشة، ولكنه كان في اللجان التى تعد القرارات للفصل فيها يشترك في المناقشة ولا يترخص في رأيه عند المعارضة بين اقتراحه واقتراحات غيره ، بل أذكر في جلسة من جلسات اللجان أننا قضينا نصف الوقت في الخلاف على كلمتى المفكرة والمذكرة ، أيهما أصلح للترجمة عند التفرقة بين اليومية والقائمة والمدونة والمذكرة ، فكانت معارضته لكلمة « المفكرة » طويلة في غير هوادة ، واستغرقت نحو نصف الوقت كما تقدم .. لانه — كما قال — لا يفهم كيف ينسب التفكير الى المفكرة وكيف يكون الخلط بين مدلول التفكير ومدلول التذكير



في أوائل عهدى بالصحافة قرأت مقالات لبعض الرحالين السياسيين حكموا فيها على احدى الامم الشرقية حكمهم الذى يداخله الهوى كما يداخل أحكام الساسة على العموم .. ثم قرأت نقدا للرحلة ولامثالها من الرحلات يدور على فكرة واحدة ، وهى أن رحلة الاسابيع المعدودة في أمة من الامم — كبيرة كانت أو صغيرة — لا تكفى للحكم عليها

وقرأت النقد كما قرأت الرحلة فوافقت الناقد في

تخطئته لكثير من أحكام كاتب الرحلة ، ولكننى عدت الى نفسى أسألها : أمن الحق أن الامم لا تعرف من سياحة أسابيع بين ربوعها ؟ وهل اقامة السنين تكفى من ليس لديه مقياس صحيح للعلم بأحوال الامة التى قام فيها ؟.

وظلت هذه الخاطرة تشغلنى زمنا طويلا حتى انتهيت منها الى الرأى الذى اعتقده اليوم وهو : ان العبرة بالمقياس وبمن يقيس ، وليست العبرة بطول الوقت أو قصره عند فقدان المقياس الصحيح ، وصح عندى ان شيئين اثنين قد يعينان الناظر على العلم بنصيب الامةوالفردفلايصعب الوصول الى تقدير هذا النصيب فى بضعة أيام ، فضلا عن الاسابيع

هذان الشيئان هما : تقدير الكلمة وتقدير الوقت ، فلا شك فى تقدم الامة التى تعرف للكلمة قيمتها وتعرف للوقت قيمته ، ولن تكون الامة التى تستخف بالكلمة أو تستخف بالوقت على نصيب من التقدم أو من قوة الخلق وسلامة الفطرة ، ولو اعجبتنا جميع ظواهرها الاخرى

وليس من الصعب أن نعرف نصيب الامة من تقدير الكلمة وتقدير الوقت بعد يومين نقضيهما بين أبنائها ، ففى عناوين الدكاكين ونداءات الباعة ومواعيد المواصلات ومواعيد الزيارات مادة كافية للقياس الصحيح فى جميع الحالات

وقد درجت ـ منذ وقرت فى نفسي هذه العقيدة ـ على قياس العظماء وغير العظماء بهذين المقياسين : ما قيمة الكلمة عند هذا العظيم أو عند هذا الاديب أو عند هذا الانسان كائنا من كان ؟ وما قيمة الوقت عنده فيما يعنيه ؟ .. ولا اعرف اننى أخطأت تقدير انسان امكننى أن أعرف قدره بهذين المقياسين

وكذلك تعرف قيمة الكلمة على حسب معدنها المأثور عند من يقدرها ويحرص عليها ، فاذا كان هناك تفاوت بين عظيمين يقدران الكلمة ويحرصان عليها فمعدن الكلمة هو موضع التفاوت بين ذينك العظيمين

ولقد خطر لى يوما أن أقابل بين لطفى السيد وبين أناس ممن عرفتهم من أبناء جيله وهم : سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود ، فظهر لى مرة أخرى ان الكلمة هى الرجل كما قيل ..

وكانت الكلمة عند سعد زغلول كائنا عضويا يكاد ينضح بالدورة الدموية ، وكان هو يفهمها هكذا من كلام غيره كما كان يفوه بها من كلامه على غير تعمد منه ، فلا يسمعها السامع الا أحس انه سيحضر معها أثرها « الحيوى » انفعالا نابضا فى نفس المخاطب بها فردا كان أو جماعة

وكانت الكلمة عند عبد العزيز فهمى « حيثية » فى حكم قضائى ، يعنيه منها قبل كل شىء ماذا تقرر من الحكم وماذا تدفع من وجوه الاشكال أو الاعتراض ، وقد يسمع الكلمة فلا يستريح اليها لانه يحس ان هناك اعتراضا قد يرد عليها وان لم يتضح له هذا الاعتراض لاول وهلة ، ثم يعرف السبب فلا يلبث أن يبدل الكلمة المقبولة بالكلمة المعترض عليها ، وله على ذلك قدرة المراثة على التمييز بين النصوص وقدرة الاطلاع على كتب الادب والقانون .

وكانت الكلمة عند محمد محمود ، بل كانت كلمات اللغة كلها ، تصريفا لكلمة واحدة هى كلمة « الكرامة » أو الوجاهة ، وربما التقى فى هذا التصريف قاموس السيد الصعيدى وقاموس « الجنتلمان »

أما لطفى السيد فالكلمة عنده « حد منطقى » فى قضية كاملة ، ولا التباس عنده بين حد وحد من الوجهة المنطقية الصميمة ، وانما يعرض لها اللبس حين تتعرض للنزاع

بين المنطق العقلى والمنطق « السيكولوجى » أو منطق الوعى الخفى والوجدان العاطفى ، لانه – على تسليمه الدائم بجوانب الضعف الانسانى – لم يكن من طبيعة عقله أن يسمح للضعف أن ينتقل الى كفة الميزان فى موازنته بين الحقائق الفكرية ، وربما جاء من هذا العزل بين منطق الفكر ومنطق النفس أن روح الفكاهة فى كتابته تختفى وراء الرأى الممحص والتقدير المحكم بالقياس الصحيح

***

ولقد كان يستطيب « القفش الحلو » كما سماه فى بعض مقالاته ، ولكنه لم يكن سريعا الى «لقط» النكتة ، ولم تكن له تلك الضحكة العميقة التى تملأ الافواه كما تملأ الصدور .. وقد يشترك المجلس كله فى الضحك ولا يشاركهم فيه ، فيحيل الخطأ على نفسه ويقول معتذرا : لا مؤاخذة ! اننى بطىء فى فهم النكتة ! ..

ومما أذكره نماذج شتى من النكات « البلدية » التى كانت تضحك جلساءه ولا تضحكه ، ومنها حديث أطرفنا به الاستاذ عبد الوهاب خلاف ، – رحمه الله – عن صاحب له ولنا من الشيوخ المعممين الملتحين الذين لا يعطون المشيخة ولا اللحية كل حقهما من التزمت والحشمة ، وكانت مناسبة الحديث « دردشة » عارضة على حد تعبير رئيسنا فيما يقال قبل انعقاد جلسات اللجان الخاصة بالمباحث اللغوية فى موضوع من الموضوعات ، وكان موضوع الجلسة تعريب المصطلحات الموسيقية أو تهذيبها

قال الاستاذ عبد الوهاب عن ذلك الشيخ المرح انه شوهد وهو يتأبط ذراع الموسيقى المعروف « سامى الشوا » فسئل :

– ما الذى يجمع هذا على ذاك ؟ وما الذى يقرن بين

زمرة الاولياء وزمرة الطرب والغناء ؟

قال الشيخ غير متلعثم :

ـ ولم لا ؟ .. هذا شيخ « كمان » !

وشوهد الشيخ فى احدى سهراته وامامه كأس من الويسكى ، فسأله الزائر الطارىء مستنكرا :

ـ أما تستحى لهذه العمامة فوق هذه اللحية التى وخطها الشيب

فقال كذلك غير متلعثم :

ـ وماله : هذه ايضا (بلاك آند هوايت !)

وكان يقول للمازحين من أصحابه كلما ذكروه بوقار اللحية :

ـ انها لا تربينى .. أنا الذى أربيها !

وقد كان الرئيس ـ خلال هذه الدردشة ـ يبتسم ولا يضحك ، ويعود فيلقى اللوم على تقصيره هو فى هذا المجال ..

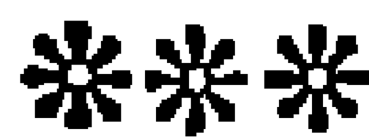
وعلينا ان ننصفه من نفسه فى هذا اللوم ، لان النكتة الجناسية فى الواقع ليست من أجود النكات ولامن أصدق الوان الفكاهة ، وليس بالمستغرب من العقل المنطقى ولا من صاحب القلم الحريص على « الفاظ الخصوص » ألا يأنس الى لعب الجناس «اللفظى » والا يشغل باله بعد استيفاء شروط العقل بحواشى المشابهات فى الآذان ، وقد مرت بنا فيما نقلناه من تقريظه لاسلوب المنفلوطى كلمة من الكلمات الجناسية يتحاشاها فى مكانها من يلقى باله الى مشابهاتها ، ولكنها لم تكن مما يتحاشاه أرسطو المصرى فى لغة الجد والتحقيق ..

انه يقول عن كتاب الخصوص :

«ان كتاباتهم ــ على قلتها ــ هى المربي الوحيد للامم والعلل الاولى التى تدفعهــا الى الاخذ بكلّ نوع من انواع الرقى والنجاح »

وكم من نكتة جناسية فى هذه « العلل » لمن يشاء أن يحكم « القافية» فى لغة التفكير والتعبير ؟

الا ان الانصاف الذى يعفى فيلسوفنا من اتهام نفسه بالتقصير فى مجال النكتة ، لا يمنع المنصف أن يلاحـظ أن نصيب الروح الفكاهية فى كتاباته قليل يشكو الحرمان من جور الجد المنطقى عليه



وبعد .. فان الكلمة عند لطفى السيد هى موضــوع مقالنا ، ولكننا ذكرنا فى عرض المقــال مقياسا آخر للامم وللرجال غير مقيـــاس الكلمة وهو مقيــاس الوقت .. فلا ننسى ان نضيف هــــذا المقياس الى ذلك المقيــاس ، ولا نرانا بحاجة الى كلمات كثيرة لنقول أن الكفة ستبقى على رجحانها فى الحالتين :

لقد تولى لطفى السيد رئاسة مجمع اللغة وهـــــو يقارب التسعين ، فلم يتخلف عن المجمع يوما واحدا وهو قادر علي الخروج من داره ، ولم تأت الســاعة الحادية عشرة فى يوم من أيام حضوره وهو بعيد من كرسيه بقاعة الجلســة ، ولا تتم الداقيقة التاسعة والخمســون ويده بعيده من جرس التنبيه !





میرزا محمد مهدی خان

زعیم الدولة و رئیس الحکماء

نشرت فى صحيفة « الدستور » سلسلة من الفصول عن شعراء الفرس النابهين معتمدا فيها على قصائدهم واخبارهم المترجمة الى اللغة الانجليزية .. وحدث فى صيف سنة ١٩٠٩ أن شاه الفرس أراد أن يلغى الحياة النيابية فنشبت الثورة فى البلاد ، واضطر الى النجاة منها بنفسه فبايعت الامة ولى عهده .. وهو فى نحو الحادية عشرة من عمره . ونقلت الانباء البرقية عنه أنه بكى حين بويع بالملك بين تلك الزعازع المرهوبة ، فكتبت يومئذ مقالا فى صحيفتى « الدستور » و « مصر الفتاة » وجهت فيه الخطاب الى الشاه الصغير ، وقلت فى مفتتحته : « أنت فى الشرق .. بين أمة الشعر والشعور » .. ثم قلت : « انك ان لم تضمر لهم سوءا ولم تحمل عليهم ضغنا ، فالعرش أوثر من المهد ، وحجر الامة ألين ملمسا من حجر الام ، وأنت مع ذلك أسعد أسلافك ، لانك أول من رفعته ايران الى عرشها بيدها ، وأيمن شاه لانك توليت الحكم فى العهد الذى سيذكر التاريخ انه أول عهد وافق نهضة الاسلام من جديد »

ولقينى غير واحد من صحبى بعد نشر هذا المقال وهم يقولون لى : « ان مقالك قد اعجب الدكتور « مهدى خان » وهو يحب أن يراك »

فمن هو هذا الدكتور « مهدى خان » ..

لقد كانت القاهرة يومئذ تموج بالتيارات السياسية ، بين ظاهرة وخفية .. كانت كأنهـا مرصـد الحوادث فى الشرق الاسلامى كله ، فكان فيها دعاة من العرب ، ودعاة من الترك ، ودعاة من الفرس ، ومن آسـيا الوسطى على اختلاف شعوبها ، ومنهم من يعمل للحـرية والتجديد ، ومنهم من يعمـل فى خدمة المستبدين ، بل فى خدمة الاستعمار ..

وكان الدكتور « مهدى خان » فى ذلك الحين علمـا من الاعلام المشهورة بين أولئك الدعاة ..

كان يعرف فى بلاده باسم « الدكتور ميزرا محمد مهدى خان زعيم الدولة ورئيس الحكمـاء » .. وكان مولده فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان قد ناهز التسعين حين لقيته ، وكان نموذجا صادقا لثقافة القرن التاسـع عشر فى زمنه وفى وطنه ، لانه تعـلم الطب فى فـارس ثم حضر دروسا مختلفة فى علم الاديان المقـارنة على أسـاتذة من الالمان ، وكان ينظم الشعر الفارسى أحيانا ، ويكتب العربية والتركية ، ويتكلم الالمانية مع أهلهـا ، وربمـا كان على معـرفة بالفرنسـية .. ومن مراجعه فى الطب كتب ابن سينا والاطباء الاقدمين ، ولهذا كان يشترك فى مباحث الفلسفة كما طرقها أولئك الفلاسفة الاطباء

ولست على يقين من تفصيلات برنامجه السـياسى ، ولكننى أعلم أن صحيفته « حكمت » كانت تصادر أحيانا فى بلده ، وكان يرسلها سرا فى كثير من الاوقات الى جهات من بلاد الدولة العثمانية تنقل منها الى ايران وبعض بلاد المسلمين الذين كانوا تابعين يومئذ للحكومة القيصرية

وكان شديد السخط على الحركة البابية ، ويعتقد أنها

تخدم مآرب الانجليز والامريكيين فى ايران ..

ولم ألقه على اثر كتابة مقالي الى الشاه الصغير ، ولكننى لقيته بعد ذلك بفترة وجيزة .. وعرفنى اليه صديقنا الشاعر المجيد الاستاذ على شوقى رئيس قلم النظارة بوزارة الاوقاف

كان من أسباب ترحيبى بمعرفة الدكتور « مهدى » انه مرجع موثوق به فى الشعر الفارسى خاصة ، وقد تحققت منه مما كنت أرجحه ترجيحا عن خطأ الترجمات الاوربية لشعر الخيام وغيره من شعراء الفرس المترجمين ، فاذا هى فى الواقع محشوة بالاغاليط ، عن جهل باللغة تارة ، وعن رغبة من المترجمين فى التزويق تارة أخرى

وكان للرجل فضل فى تمكننا من حضور ليلة عاشوراء بالتكية الفارسية ، ولم يكن ذلك ميسورا لكل راغب فيه .. فلم يكن فى التكية ليلة شهدنا الحفلة احد من المصريين غير حسين رشدى باشا وثلاثة من الزملاء والادباء هم : الاستاذ المازنى ، والاستاذ على شوقى ، والاستاذ عبد الرحمن البرقوقى رحمه الله ..

على أننى مدين له بالفضل فى الوقوف على أسرار مسألة من اخطر مسائل السياسة الشرقية فى أيامها ، وهى مسألة المطبعة العثمانية التى يتوقف على العلم بها تقدير أناس يحسبون الان من أبطال الحرية والدعوة الوطنية

فقد كنت أرى الرجل كلما زرته فى مكتبه شديد الحذر على أوراق صحيفته ، وعلى أسماء المشتركين فيها من المقيمين فى ايران وروسيا على الخصوص ..

وكنت أعيب عليه هذا الحذر ، وكان يقول لى : « انك يا بنى لا تعلم انها مسألة خطرة على حياة المئات .. ومن

يدرى ؟ فقد تتعرض لما تعرض له أصحاب المطبعة العثمانية من حيث لا نعلم وذلك غاية ما نخشاه

اما مسألة المطبعة العثمانية هذه فيستطيع من شاء ان يراجعها فى الصحف المصرية « ابريل سنة ١٩٠٢ » .. وخلاصتها كما سمعتها من هذا الرجل العليم بها — دون ان نتوسع هنا فى تفصيلاتها — ان احرار الترك نشطوا يومئذ لنشر الدعوة الى الدستور والحكومة النيابية ، واصدروا بالقاهرة صحيفة كانوا يرسلونها خفية الى انصار هذه الحركة فى أنحاء الدولة العثمانية .. وقلق السلطان عبد الحميد ، واشتدت رغبته فى الوقوف على أسماء هؤلاء الاحرار من رعاياه المقيمين فى بلاده وجزاؤهم — لو أنهم عرفوا — قضاء بالموت أو بالعذاب فى غيابات السجون .. فاذا بقضية تدبر فى القاهرة للحجز على المطبعة العثمانية ، ظاهرها انها دعوى مدنية وباطنها انها حيلة للاستيلاء على الاوراق التى فيها الاسماء والعناوين

ويفزع أحرار الترك حذرا من سوء العاقبة على اخوانهم الغافلين فى بلادهم ، فيلجأون الى الوكالة البريطانية ..!

وتتخطى الوكالة البريطانية القانون ، فتأمر بكسر الاختام وتسليم الاوراق الى أصحابها وترك ما فى المطبعة ما عدا ذلك محجوزا عليه ، وتكسب بذلك ولاء طائفة من احرار الترك ، ومعاكسة السلطان عبد الحميد ..

وهنا يقرأ العجب من شاء الرجوع الى الصحف فى تلك الايام : بين الغيرة على الاختام ، والغيرة على أرواح المئات من طلاب الحرية والدستور



فؤاد "الصاعقة"

اذا كان سبب من أسباب السمعة مانعا للكتابة عن أحد ، فهذا الكاتب الصحفي أولى الناس بالسكوت عنه..

ولكنه أحق الصحفيين بالكتابة عنه اذا كان تاريخ « الادوار الكتابية » فى حياة الصحافة عندنا موجبا للكتابة عن صاحب الدور ..

فقد كان « أحمد فؤاد » صاحب صخيفة الصاعقة الاسبوعية اشهر الصحفيين من أبناء جيله فى تمثيل ذلك الدور الذى عرفناه فى صحافتنا بعد ظهور الصحف السيارة عندنا وانتشارها فى أواسط القرن التاسع عشر .. فاذا وجب ان تختصر أسماء الصحف التى يصح ان نطلق عليها عنوان « صحافة الهجاء الاجتماعى » فى اسم واحد ــ فاسم « فؤاد الصاعقة » هو ذلك الاسم الذى لا يزاحمه شريك مثله فى هذه الصناعة ..

كان الناس يعرفون اسم « فؤاد الصاعقة » ولا يعرفون اسم « أحمد فؤاد » اذا انفرد بغير هذه القرينة .. وقد يكتفون باسم « الصاعقة » ولا يزيدون ، فيعرف قراء الصحافة من يريدون ..

وقد كان « فؤاد الصاعقة » ممثلا فى المجتمع المصرى لدور واحد على صورتين : صورة تظهر فى محيط الادب

الشعبى وهى صورة « الادباتى » المتجول بين بلاد الريف والحضر ..

وصورة «مفصحة» من هذا الادباتى وهى صورةالاديب «الاريب» المحتال لعيشه فى لغة المقامات ، واسم « أبو زيد السروجى » فى مقامات الحريرى عنوان عليه

واذا أردنا أن نترجم هذه الصناعة بالاسلوب الاقتصادى لتفسير الادب والتاريخ ، فالصحفيون من طائفة إحمد فؤاد هم « محصلو ضريبة الوجاهة والهيبة » فى المجتمع الجديد ..

ولنا ان نتخيل أن هذا المجتمع سلطان من السلاطين الاقدمين كان له خدامه على طريقته ، وكان لهؤلاء الخدام نصيب من التزاماته وجباياته المقررة على رعاياه ، فان هؤلاء الادباتية « يخدمونه بالرقابة على أصحاب الجاه والهيبة فيحيلهم بتحصيل الضريبة لحسابه أو لحسابهم من جميع هؤلاء ، هربا من تكلف المغارم والوفاء بحق الجزاء الصريح .. لان المجتمع نفسه وأصحاب الجاه والهيبة فيه ، أولئك الجباة المسلطون عليهم ، كلهم جميعا غير صرحاء

على أن « الوظيفة » هذه لم تكن مخجلة لاصحابها ، ولا كان أصحابها يكتمونها ويدورون حولها ..

جلس أحدهم بين زمرة من الكتاب والفضلاء يتحدث عن صديقه السرى الذى يستدنيه منه ويسومه أن يجاريه بتعاطى المخدرات وشم « الكوكايين » وكان يومئذ بدعة « أولاد الذوات » المتبطلين من رواد السهرات

قال الادباتى السبروجى الحديث : « ولكن من ذقنه فت له .. كان ــ بسلامته ــ يريد منى أن اشم له الكوكايين لاعينه على السهر ، ولكننى كنت أسهر بغير كوكايين

وأجمعه عندى الى ساعة الحاجة فى آخر الليل .. تلك الساعة التى توصد فيهـا أبواب الصيدليات ومخابىء العقاقير الممنوعة ، وتحلو فيها الشمة الواحدة بأضعاف سعرها فى جميع الاسـواق السوداء ، وأبدى لصاحبنا الغيرة على خدمته والتحرق على شمة أو شمتين معه قبل انقضاء السهرة ، فلا يقنعنى فى الجرام الواحـد أقل من ثمن عشرة جرامات ، وأخرج من هنا وفى جيبى حصـيلة الاسبوع من الكوكايين المدخر لتلك الساعة ، ثم أعود اليه ببقية « العشرة الجنيهات » قروشـا معدودات .. ولم أصرف من الورقة نصف مليم » !

وتحدث صحفى آخر عن كلمة غمز بها بعض الوجهـاء وفهمها ذلك الوجيه وفهم المقصود منها ، فأرسـل اليه خمسة جنيهات ولمح هو من الوسيط أن الحـكاية قابلة للمساومة والزيادة جنيهين أو ثلاثة جنيهات ..

ثم اعتدل الصحفى الادباتى ، وهو يقول فى زهو وخيلاء : ولكن فشر ..! محسوبكم « برى فكس » .. كلمته واحدة لا يقبل المساومة .. عشرون جنيها على داير المليم ، والا فالذى قرأه الباشا غمزا يقرأه الناس جميعا تصريحا على المكشوف .. وعينك ما تشوف الا النور .. لقد جاءتنى الجنيهات العشرون قبل مغيب الشمس فى ذلك المساء

كان هذا الصحفى يلقب بيننـا « بالزبرا » اى حمـار الوحش ، وكان بعضهم يتلطف فيسميه الفنـان لانه من أسماء الحمر الوحشية . فلما سمعنا منه هذه القصـة صاح الاستاذ أحمد صبرى المصور المعروف متهكما متبرما وهو يلوح له بيديه فى وجهه : لا والله .. من الان فصاعدا .. حمار وكفى .. ولا زابرا ، والا فنان ، ولا يحزنون !

على هذا المثال كان « الصـحفى الادباتى السروجى »

يؤدى وظيفته فى بقايا المجتمع من القرن التاسع عشر ، وكان محصوله من هذه الوظيفة ضريبة المجتمع على الوجاهة والهيبة بحسب براعته فى التحصيل

وكان فؤاد الصاعقة أبرع هؤلاء الجباة فى استغلال وجاهة الوجيه وهيبة المهيب شفويا وتحريريا بغير عناء ، وهو عالم بحدود العرف والقانون مع كل طبقة من تلك الطبقات

كان له جعل من المصروفات السرية يصيبه حينا ويفقده حينا ويتطلبه فى جميع الاحيان ، وكان عبد الخالق ثروت (باشا) وحسين رشدى (باشا) ممن عودوه المنحة بعد المنحة من هذه المصروفات ..

وانقطعت عنه منحة ثروت باشا ، وهو لا يزال رئيسا للوزارة ، فتربص به الى ساعة اجتيازه ببار اللواء مشيا على قدميه كعادته فى أكثر الاوقات ، وتعمد ان يجلس ذلك اليوم بين رهط من كبار رجال وزارتى العدل والداخلية، فما هو الا أن عبر الباشا بهم وهو يعرفهم جميعا حتى وثب فؤاد الصاعقة وراءه ، ووقف على قارعة الطريق يناديه : يا سى عبد الخالق .. يا سى عبد الخالق !

فهرول أولئك العلية الى داخل البار ، وعاد اليهم مقهقها وهو يقول : ليس بينى وبينه تكليف !..

وقال أحدهم وهو يلطمه على فمه : ولا بينى وبينك تكليف يا ابن ...

ولمح رشدى باشا عند محطة الرمل بالاسكندرية بعد اعتزاله الوزارة ، فوضع ذراعه تحت أبطه ونظر اليه فى غاية من الهدوء والتبسط وهو يمازحه قائلا : لا صاحب دولة الآن ولا صاحب عطوفة .. ولا حجاب على الباب ولا حراس فى الطريق .. كلانا سواء يا حسين !.. فدفعه

الباشا عنه بتلك البساطة الطريفة التى عرفت عنه ، وقال له كأنه يرد المزاح بمثله : لكن أنا عندى فلوس يا ابن ...

وكانت صحيفة « الصاعقة » أسبوعية كما تقول رخصتها أو يقول عنوانها ..

ولكنها فى الواقع لم تكن أسبوعية ولا يومية ولا شهرية ولا سنوية ، اذا كان لابد من تحديد الموعد بوقت معلوم..

وانما تصدر كلما وجدت « الضحية » التى تؤدى ضريبة الجاه والهيبة ، سواء من هذه الضريبة ثمن الثناء أو ثمن الهجاء أو ثمن النجاة من التهديد والوعيد

ويحدث كثيرا أن تقع المعاملة مع هؤلاء الضحايا بالجملة، كما حدث فى رثاء بعض الاعلام من المشاهير .. فان رثاء العلم المشهور لم يستغرق غير كلمات فى بضعة أسطر ، ثم عقب « فؤاد » بعد هذه الكلمات متسائلا : أيجوز فى شرعة القدر أن يموت مثل هذا ويعيش أمثال فلان وفلان وفلان .. الى آخر القائمة المطولة من أسماء المغضوب عليهم والمطالبين بسداد الاشتراك ، عن عددين فى السنة ، أو بضعة أعداد !

وقد يصدر العدد من أجل عنوان واحد يتكرر على الصفحة بجميع البنوط :

لا تبيعوا أقطانكم الا بمائتى ريال !

لا تبيعوا أقطانكم الا بمائتى ..

لا تبيعوا أقطانكم ..

لا تبيعوا ..

لا .. لا ..

ويبلغ من يعنيه الامر ان الاعلان سيعاد ويعاد مع

مضاعفة الاجور فى كل مرة .. فيسرع من يعنيه الامر الى السداد ..

أما من كان يعنيه الامر فى قصة بيع القطن ؛ فهو رجل من أصحاب المزارع والمحاصيل كانت له مساهمة فى صناعة القلم على أسلوب المقامات وما جرى مجراها ، وكانت منافسة « الصاعقة » له سببا مضافا الى سبب الطمع فى ماله ، او فى ضريبة الجاه والسمعة من يديه ، فحسب عليه تلك النصيحة الفاشلة التى ضيعت على الفلاحين محصول العام زلة يهدده بها كلما نقم منه واحتاج الى جدواه .

وقد يؤجر « فؤاد الصاعقة » على التحرش بالادباء والكتاب ممن لا مال لهم ولا جاه ، فيعرف قراء الصاعقة ذلك كلما طلعت لهم الصحيفة بفصل من فصول الكاتب المغضوب عليه .. يتبعه تهديد للمشتركين المتخلفين بمواصلة النشر والاعادة من امثال هذه الفصول !

وربما أخذ التوقيع الذى يوقع به الكاتب مقالاته فترجمه من عنده على هواه .. فتوقيع « ك . ك » هو توقيع « كامل كيلانى » بالحرفين الاولين من اسمه ، ولكنه عند فؤاد الصاعقة اما « كلب كلب » .. واما كاهن كذاب

ولم تبلغ الجراة بأحد مبلغ هذا « الادباتى السروجى » فى مخاطبة الامراء والرؤساء .. فقد انقطعت عنه المعونة الشهرية من ديوان المعية الخديوية ، فكتب الى الامير ، مباشرة ، خطابا يقول فيه : ان كان بعضهم يظفر بعطايا الأمير لانه ينظم فهو حقيق بهذه العطايا لانه ينثر .. وان كان لعيب من العيوب ، فهو — اى فؤاد الصاعقة — يضم ازاره بحمد الله على تلك العيوب ، وعلى شر منها ، وزيادة

عليها .. ثم يمضى فى تعداد عيوبه غير مقتصد فيهـا ، كأنهما عيوب ضحية من ضحاياه ..

واسم « الصاعقة » نفسه مثل من أمثلة الشهادة على نفسه فى مقام المقابلة بينه وبين غيره ..

كان فؤاد الصاعقة يدين بالاستاذية للمويلحيين الكبير والصغير ..

وكان المويلحيان استاذين فى ذلك الجيل للكتاب من مدرسة « النقد الاجتماعى » على الاسلوب المهذب فى لفظه ومعناه ..

فأخذ تلميذهما اسم « المصباح » وحوله الى الصاعقة

واخذ أسلوب « النقد » وحوله الى أسلوب « الهجاء »

وارتد على الاستاذين بالتهديد والوعيد ، وحاول أن يتقاضى منهما ضريبة الابتزاز والاتاوة .. فعلمه المويلحى درسا قال له فيما بعد أنه قد فاته أن يتعلم منه مع الهجاء .. هجاء الالف والباء ..

أرسله الى الآستانة برسالة يغنم فيها الهيل والهيلمان ، من سلطان آل عثمان ..

فلما وصل الى الميناء كان فى استقباله مدير الشحنة السرية بدلا من مدير التشريفات بالمابين ، وقضى فى السجن ما شاء المويلحى الكبير أن يقضيه هناك ، قبل أن يشفع له ويدفع الشبهة عنه ..

ولقد سمعت من هذا « الادباتى السروجى » وصية تدل على طريقته فى تقاليد هذه الصناعة ..

كان يقول لى كلما لقينى بدار البلاغ أو الاهرام : انا أعلم انك لا تخافنى كما يخافنى فلان وفلان .. وكل ما

ارجوه منك الا تجهر بذلك أمام هؤلاء .. ردعنا نأكل عيشنا معهم ، برزقنا الله واياك ..

ومرة واحدة لقينى جالسا الى بعض زملائنا الصحفيين على قهوة بجوار البنك الاهلى ، فهتف بى كالمعاتب الناصح : كله الا هذا يا أستاذ .. ان الكاتب الذى يلقبه سعد زغلول بالجبار لا يجلس على القهوات .. دعهم يحسبونك من مردة الاساطير ، يتلو أحدهم الطلسم كلما خطر له أن يراك



فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

ســـيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

ســنغافورة : M. Ahmed Bin Mohamad Bin Semit,
Almaktab Attijari Assharqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street,
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

هذا كتاب جديد لم يسبق نشره ، من مؤلفات الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ، تناول فيه عددا من الاعلام الذين عرفهم . ولم يكتب المؤلف عنهم بقصد استقصاء الحوادث أو تحليل شخصياتهم من وجهتها العامة ، ولكنه رسم لهم رسوما قريبة من الزاوية التى اتفقت له معرفتهم فيها . وقد توخى فيها ـ كما جاء فى تقديم الكتاب ((أن تكون كصور السياحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخوص حيثما مرت به فى رحلاته .. فليست هى أطلسا جغرافيا للمواقع والبلدان ، وليست هى شرحا تاريخيا للشخوص والاعلام ، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة ، وان لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم))